حسن الأمين

قِيَمٌ خَالِدَة

في التَاريخ وَالأدب

دار التراث الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع

قِيَمٌ خَالِدَة

في التَاريخ وَالأدبْ

ألجزء الاول

بقلم

حسن الأمين

١٣٩٤ ـ ١٩٧٤

دار التراث الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان
ص.ب ٩٥٨٤

بسم الله الرحمان الرحيم

هذه بحوث نشرت في الصحف العربيـة في اوقـات متباينة وظروف متباعدة ، جمع ما بينها انها من تاريخ هذه الامة في الصميـم سواء كانت بحوثا في التاريخ او بحوثـا في الادب . ولم اشا ان افصل فيها بين ما هو تاريخـي بحت او ادبـي بحت ليقينـي بارتباط الاثنيـن وتمـازج النـوعيـن .

وبعد ان نشرتها فصولا متفرقة ، رايت ان اؤلف بينهـا في اضمـامة واحدة ، اذا تنوعت اغصانها وتلونت افنانها ، فستظل من روض متكامل وحقل متماسك ، لا يعدو تاريخ العرب وادب العرب . وحسبـي بالعرب محتدا يمد بكـل كريم ويرفـد بكل طيب .

وليس من شان الكاتب ان يرضـي كل الميول ، ويوافق كل المناحـي . وليس من امره ان يمازج بين تضارب الاهواء وتشاكس الآراء . ولكـن من شانه ان يكون مخلصا فيمـا يقول . وهذا ما احسبنـي كنته ، وما اعلمنـي عشته .

فالـى المخلصيـن وحدهم اهدي هذه الصفحـات وكل ما كتبت وما سوف اكتـب .

بـيروت حسن الامين

هذه اللغة العربية ((١))

هذه اللغة العربيـــة المظلومة التـــي تهاجم بلا هوادة وتهجا بلا رفق ... هذه اللغـــة التـــى ينســـى المهاجمـــون كل جمالاتها ، ولا يذكرون الا ان فيها قواعد صعبة تدق على افهامهم وتعيـــى بها افكارهم ، والا ان فيها عامية وفصحى وهم يريدونها عاميـــة بلا فصحـــى !

هذه اللغة التـــي حملـــت لنا احـــدى الصحف تحقيقـــا عنهـــا من احد « الدكاترة » ، تحقيقا لا شك ابدا بـــان الدكتور كان مخلصا فيه ، وان لم يكن مصيبا ... واذا كانت اللغة قد منيـــت بالقادحيـــن ، فهـــي قد اصيبت ببعض المادحين ، فكل من فكر في امر من امورها كان عندهم مأجورا هدامـــا ... اما ان فيمـــن هاجموها مأجورين هداميـــــن فهذا حق كل الحق ، واما ان فيمن نقدوها مخلصين بنائـــين فهذا ايضا حق كل الحق ، ونحن لن نأخذ انفسنا الا بالدفاع الذي نؤمن به ونعتقده .

اول ما يطالعك من هذه الاراء هو القول بازدواجيـــة اللغـــة العربيـــة وان فيها فصحـــى وعامية ، بل يكاد يقال ان فيها لغتيـــن ... وهذا المأخذ الذي يهول به المهاجمون تهويلا عجيبا ، ويصخبون به صخبا شديدا ، هو اهون من ذلك

---

١ كانت هذه المقالة ردا على بعض من هاجم اللغة العربية .

واقل خطرا ... فليس العجيب ان يكون في اللغة العربية عامية وفصحى ، وان يكون بينهما هذا الفارق ، بل العجيب هو صمود هذه اللغة امام الاستعمار والفتح ، وبقاؤها حية الى يوم الناس هذا ... العجيب هو ان اللغة العربية لم يكن شأنها شأن اللغات البائدة ، ممن لم يبق منها الا آثار ،كالسريانية وغير السريانية ، بل ظلت لغة الملايين تتدفق بالادب العريق والشعر الرقيق !

ان اللغة التي فقدت سلطانها ، وعنت للفاتحين ستة قرون او تزيد ، لا يرتفع لها فيها علم ، ولا يهدر فيها لها صوت ، ولا يرف لها فيها نغم ... ان اللغة التي حكمها المتغلبون الفاتحون حكم المجتاح الغاصب ، الذي يرى فيها شبح المقاومة وخيال الانتفاض ، حكموها قرونا حكما لا رحمة فيه ولا لين ، حتى اذا خيل للناس انه لن يبقى فيها نفس يتردد ولا حركة تتجدد ، خرجت من الظلام القاتم كأتم ما تكون بريقا واشعاعا !

اتعجبون ان يكون في اللغة العربية فصحى وعامية ، وقد مزق الفتح اقطارها ، وحجز بين ديارها ، فاصبح العراقي المحكوم من الانكليز يسمي مثلا المنضدة « ميز » والشامي المحكوم من الفرنسيين يسميها « طاولة » !

ان النتيجة الحتمية لما نال العرب من اضطهاد ، وما صارت اليه اقطارهم من تشتيت ، هو ان تنشأ فيها « العاميات » المحلية التي تتباعد تباعدا قويا ، كما ان النتيجة الحتمية لما صارت اليه حال العرب اليوم من استقلال وتحرر ، ولما ستصير اليه في الغد من تجمع

وتوحد ، ان تضيق الشقة بين العامية والفصحى ، وان تظل تضيق وتضيق حتى تغدو خيطا دقيقا لا تخلو من مثله لغة ولا يشذ لسان !

ان النتيجة الحتمية لانتشار الصحافة والمذياع ، ولتقدم الثقافة والتعليم ، هي ان يأتي يوم يصبح فيه التفاوت بين اللهجات العربية تفاوتا جزئيا يقوم على نوع من اللفظ وطريقة في اخراج الحروف ... خذ عاميين جاهليين من قطرين عربيين مختلفين ، عاميين من بقايا الاستعباد وفلول الاستعمار ، خذ هذين العاميين واجعلهما يتفاهمان ، فانا معك بانهما يكادان لا يبينان في بعض ما يؤديان من قول ، وما يريدان من كلام ... ولكن خذ شابين مثقفين من قطرين عربيين مختلفين ، تر ان ليس في لهجة كل منهما ما يباعد بينها وبين ان يفهمها الاخر ، ذلك انهما قد دنوا من الفصحى ونأت بهما الثقافة عن العامية .

لم تعد الالفاظ الجديدة تؤخذ عن طريق الحاكمين الغرباء ، فيقول العراقي لسائق السيارة « دريفر » ويقولها الشامي « شوفير » ، بل انها تؤخذ من الصحافة ومن المذياع ، فكل البلاد العربية من طنجة الى مسقط تقول اليوم بعامياتها وفصحاها : القنبلة الذرية ، وقاذفات القنابل ، والنفاثات ، والتأميم ، والقصف الجوي ، وغيرها من الكلمات المستحدثة الجديدة ، ولم يعد في البلاد العربية من لا يقول : سيارة ، وطيارة ، وقطار .

ان الصحافة والثقافة والمذياع ، وان التقارب والتعارف والاجتماع ، هي التي ستمحو ازدواجية اللغة العربية

المزعومة ، وهـــي التـــي لن تبقـــي من كل هذا الازدواج الا بقايا نجـــد امثالها في كل لغة .

وبعد ازدواجيـــة اللغـــة يطالمونك بامر قواعد اللغة ويستشهد بعضهم علـــى ذلك بجملة « ان الطقس جميـــل » ويرى ان كلمة الطقس هـــي مبتدأ منصوب ، لان الطقس هو موضوع الكلام ، فهو الاساس اذن . . . هو مبتدأ ، ولكنه مبتدأ منصوب ، ووجه نصبه هو دخول هذه الاداة للتوكيد . . . يقول هذا القول ، ويعدها من مشاكل اللغة ، ويتخذها دليلا لدعم رأيه في الهجوم علـــى القواعد العربية !

وكنت اود لو انه استشهد بغير هذا الكلام ، فكيف فاته ان هذا الذي يقوله هـــو عين ما تقوله كتب النحو ، من كتاب سيبويه الـــى احدث كتاب صدر في هذه السنة .

ماذا قال النحاة عـــن « ان » ، نحاة عصر سيبويه ، ونحاة عصر القائل . . . انهم يقولون عنها وعن اخواتها انها تنصب المبتدأ وترفع الخبر وهذا كل عملها . . . وماذا من جديد في قول المعتـــرض ؟ انهم يقول صراحة كما قال : ان الطقس مبتدأ ولكنه منصوب ، ووجه نصبه دخول هذه الاداة عليـــه للتوكيـــد . . . وكل جريرتهم انهم سموا هذا المبتدأ المنصوب « اسم ان » تمييزا له عـــن المبتدأ المرفوع ، انهم لم ينكروا انه مبتدأ بدليل انهم قالوا : « ان تنصب المبتدأ » اذن فهـــو عندهم مبتدأ ولكنه مبتدأ منصوب !

ويقول ، او بالاحرى يقال عـــن لسانه : « ترى الا نستطيـــع ان نعلم العربيـــة بطريقة ترسخ في عقول الاولاد ويميلون اليها ، عوضا عـــن ان ينفروا ويبكوا ويلعنـــوا

سيبويه ، بدلا من ان يترحموا عليه ويرحموه ؟ » ونقول لقد كنا اولادا ، وكان الملايين غيرنا اولادا ، وتعلمنا اللغة العربية ، ورسخت في عقولنا ، وملنا اليها ، وترحمنا على سيبويه ورحمناه . اننا لم ننفر منها ولم نبك ابدا ... وما ذنب اللغة اذا اساء تعليمها بعض المعلمين ، او ضاق عن فهمها بعض المتعلمين ؟

واذا كانت — كما يقول الناقل لكلام المعترض — اذا كانت هدى « ابنة الدكتور الحلوة المهضومة تدمع عيناها الحلوتان ، كلما اخذت فرضا في الاعراب ، فتأتي الى ابيها مولولة : بابا دخيلك ساعدني عندنا « كواعد » ومش فاهمي شي » ..اذا كانت هدى « لا تستطيع مجاراة الكسائي والفراء والاخفش » — كما يقول الكاتب — اذا كانت هدى كذلك ، فهل يجوز ان نحكم على النحو بالموت ، اكراما لعينيها الحلوتين ، لئلا تدمعا فرقا من القواعد ... وما دامت هدى لا تستطيع ان تلفظ القاف من كلمة « قواعد » فما علينا اذن ، الا ان نلغي القاف من اللغة ونحل محلها الكاف !

لقد كنت احب للكاتب ان يعالج الموضوع معالجة جدية صارمة ، ولم اكن احب له ان يقحم ، في موضوع خطير كهذا الموضوع ، مثل هذا الهزل المرير !

واما الثالثة التي لا ينون يثيرونها فهي مسألة الخط العربي الجميل ... انهم ينسون كل مزايا هذا الخط ولا يخطر لهم الا الحرف اللاتيني ... ينسون ان الحرف اللاتيني ليس هو كل شيء في هذه الدنيا العريضة، وان الامم

التـــي لا تأخذ به هـــي اكثر عديدا واوسع حدودا من الامم التـــي تأخذ به .

وما اوهـــى الحجة التي ينادون بها للحرف اللاتيني من ان علينـــا ان نفهم اولا لنستطيـــع القراءة ... واني اسأل الكاتب : اهو جاد في هذا القول ؟.. احقا يضيق فهمه وهو يقرأ ثم يتوقف حتـــى يفهم فيعاود القراءة !.. انـــي اسأله كم مرة يحدث له ذلك وهـــو يقرأ كتابا من الدفة الى الدفة؟.. اهو متوقف عند كل كلمة متردد في كل عبارة ؟.. احقا يجـــد في ذلك مشكلـــة ؟

اما الامر الذي نقر الكاتب عليه ــ وان اخذناه علـــى غير ما يأخذه ــ فهو قوله : فلغتنا لصيقة بالعاطفة والديـــن والتـــاريـــخ والقوميـــة .

اجل والله ، اجل وذمة العرب ... ان لغتنا لصيقة بكل ذلك ، وستظل لصيقـــة بكل ذلك ابدا . علـــى عكـــس ما يتنبأ لها الكاتـــب !..

واما ان هذه النواحـــي الفكرية تـــرى بعين القلب لا بعيـــن العقل ، فاننا نخالفه فيه ونقول له : انها تـــرى بكلا العينيـــن ... ان لها عينا تشع من القلب ، وعينا تشع من العقل ، وحسبها عيناها المشعتان مصباحا في هذا الديجور !

معركة عين جالوت ((١))

لا احسب ان امة نكبت بمثل ما نكبت به هذه الامة في الغزو المغولي الذي بدأه جنكيز خان وأكمله هولاكو . ولا احسب ان شعبا استهدف لمثل ما استهدفت له الشعوب التي جاءت على طريق هؤلاء الغزاة الراعبين ، الذين تجاوزوا كل حد في القتل والتدمير والغدر والاباحة ، والذين انسوا كل ما سطره التاريخ من اهوال .

فلم تكن غايتهم توسيع ملك وحكم شعوب وامتلاك بلاد ، مما يمكن ان يكون غاية كل فاتح مجتاح ، ولا كان الدافع حب السيطرة والتحكم والاغتناء . بل كان الدافع حقد الوثنية على التوحيد ، وكره الجهل والعماية للعلم والهدى .

ومن هنا لم ينفع الناس مقاومة ولا تسليم ، ولم يجدهم امان ولا ايمان ، فالمدافعون المهزومون يبادون والمصالحون المستأمنون يقتلون ، ثم بعد كل ذلك احراق للكتب واستئصال للعلماء .

ومضى هولاكو على هذا السبيل ، ودمر ايران وقوض العراق ، ثم نفذ الى الشام مستهدفا مصر لتعم

---

١ — تقع عين جالوت في فلسطين بين بيسان ونابلس وحدثت المعركة في رمضان السنة ٦٥٨هـ — ١٢٦٠م .

كارثتـــه وتطغـــى مصيبته .

وبينمـــا هو يهم بالخطوة الجديدة اذ بلغه نعـــي اخيه ومليكـــه (منكوقاآن) وتـــرامـــى اليه ان نزاعا بيـــن اهله يوشك ان يحل ، فلم يشأ ان يستأثر غيره بسيادة الموقف الجديد ، فآب الـــى بلاده مخلفا جيوشه الكثيفة علـــى اهبتها لغزو مصر بقيادة قائد من اشرس قواده اسمه (كيتوبوقا) .

التهـــديـــد

وكان هولاكو قد انفذ قبل رحيله نذيرا الى حاكم مصر، الملك المظفر سيف الدين قطز(٢) ، مع واحد واربعين رجـــلا من رجـــاله الغلاظ الشداد .

وكانت انبـــاء انتصاراته قد عمت الدنيا كلها ، وكانت جيوشه ثملة ببأسها ، وكان الناس في كل مكان يوقنـــــون بالفشل ان قاوموه ، بعد ان كسر في زحفه ما لم يكسر ، وفتح ما لم يفتـــــح .

في هذا الجو المشحون بمعنـــى الانهزام المملوء بالرعب ، المفعم بالانخذال ، مضـــى وفده يحمل الـــى حاكم مصر هذا الكتاب :

« ان الله تعالـــى قد رفع شأن جنكيز خان واسرته ، ومنحنا ممالك الارض برمتها ، وكل من يتمرد علينا ويعصي امرنا يقضـــى عليه ، مع نسائه ، وابنائه ، واقاربـــه ،

---

٢ ــ الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبدالله المعزي تسلطـــن بعد خلع استاذه الملك المنصور علي بن الملك المعز ايبك يوم السبت ١٧ ذي القعدة سنـــة ٦٥٧ .

والمتصلين به ، وبلاد ، ورعاياه ، كما بلغ ذلك اسماع الجميع . اما صيت جيشنا الذي لا حصر له فقد بلغ الشهرة كقصة رستم واسفنديار . فاذا كنت مطيعا كخدم حضرتنا ، فارسل الينا الجزية ، واقدم بنفسك واطلب الشحنة ، والا فكن مستعدا للقتال » .

هذا هو الانذار المخيف الذي حمله الواحد والاربعون مغوليا الى السلطات المصرية وهذا هو التهديد المروع الذي وصل الى القاهرة .

وكانت كل جملة في هذا الكتاب صحيحة صادقة فقد دانت لهم ممالك الارض ، وكل من تمرد عليهم قضي عليه وخربت بلاده . وشهرة جيشهم المنتصر كانت اعرف من ان ينوه بها . وكبراء الناس قد صاروا خدم الحضرة المغولية .

وهبط الوفد مصر جبارا متكبرا ، يزلزل بروعته العزائم ويوهي الهمم . هبط مصر وهبط معه تاريخ اسود من الانتصارات الكاسحة ، وماض بشع من التسلط المهول ، كانا كافيين للتسليم والخذلان ، لولا ان جابهتهما حمية شماء ورجولة انوفة وبطولة وفداء .

وكان قد سبق الوفد المغولي الى مصر وفود المنهزمين في البلاد الاخرى من الذين اطاحت بهم الضربات المغولية فتساقطت بلادهم ، البلد بعد البلد ، فتجمعوا كلهم في مصر لاجئين اليها .

وها هم المغول يلاحقونهم الى القاهرة وينازلونهم على النيل .

مؤتمـــر عسكـــري

كان الامر أخطر من ان يقطع فيه انسان واحد . وكانت مصر آخر معقل فاذا هوت ، لم تقم بعدها قائمة . لذلك لم يجرؤ رجل فرد ، مهما اوتـــي من سداد الرأي وقـــوة العزم ، ان يتفرد بالقرار . فجمع الحاكم المصري ، الملك المظفـــر قطز ، مؤتمرا عسكريا ، كان في محاوراته ونقاشه في ارفع مستوى عرفه التاريخ من الاجتمـــاعات العسكرية والمؤتمـــرات الحربيـــة. وجرت المداولة فيه بصراحة كاملة اقتضتها خطورة الموقف .

قال الحاكم المصري للمؤتمريـــن ، وكانوا في اكثريتهم من القـــواد اللاجئيـــن :

« لقد توجه هولاكو من توران الـــى ايران بجيـــش جرار ، ولم يكـــن لاي مخلوق من الخلفاء والسلاطيـــــن والملوك طاقـــة علـــى مقاومته ، واستولـــى علـــى جميـــع البلاد ، ثم جاء الـــى دمشق ولو لم يبلغه نعـــي اخيه لالحق مصر بالبلاد الاخرى ومع هذا فقد تـــرك في هذه النواحـــي كيتوبوقا ، وهو كالاسد الهصور والتنيـــن القوي فـــي الكميـــن ، واذا قصد مصر فلـــن يكون لاحد قدرة علـــى مقاومته . فيجب ان تتدبروا الامر قبل فوات الفرصة » .

منـــاقشة المـــوقف

هذا هو البيان الموجز الذي افتتح به الحاكم المصـــري الملك المظفـــر مؤتمـــره العسكري .

انه يبسط الامر علـــى حقيقته لا يحاول ان يهول ولا ان يهون ، ومن خير ما فيه هذه الشورى ، او اذا شئت بلسان العصر الحاضر هذه الديموقراطية السليمـــة .

فبالرغم من ان المتكلم هو صاحب مصر ، والجيوش جيوشه ، والبلاد بلاده ، والعواقب تعود عليـــه وعلـــى بلاده وبالرغم من انه مستطيع ان يفرض الرأي الذي يريد ، فأمـــا تسليـــم او قتال ، فانه لم يشأ الا ان يشرك حتـــى ممثلـــي البلاد الاخرى في الراي وان يستمع اليهم .

أصغـــى المؤتمرون الـــى بيـــان الحاكم المصري بتفهم واستيعاب ، فكان اول المجيبيـــن ناصر الديـــن قيمري ،فقال من جمـــلة كلام له :

« ان البلاد الممتدة من تخوم الصين الى باب مصر هي الان كلها في قبضة هولاكو ، فلو ذهبنا اليـــه لطلب الامان ، فليس في ذلك عيب وعار ، ولكن تناول السم بخـــداع النفس واستقبال الموت امران بعيدان عـــن حكم العقل ، انه ليس بالانسان الذي يطمـــأن اليه ، وهو لا يفـــي بعهده وميثاقه، فانه قتل نجاة خورشاه ، وحسام الدين عكة ، وصاحب اربل بعد ان اعطاهم العهـــد والميثاق ، فاذا سرنا اليه فسيكون مصيرنا مصيرهم » .

فرد الحاكم المصري :

« ان كافة بلاد ديار بكـــر وربيعة والشام ممتلئـــــة بالمناحات والفجائع ، واضحت البلاد من بغداد حتـــى الروم خرابا يبابا ، وقد قضـــي علـــى جميـــع من فيها مـــن حرث ونسل ، فلو اننا تقدمنا لقتالهم فسوف تخرب مصر خرابا تاما

كفيرها . وينبغي ان نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا ، واحدا من ثلاثة . الصلح او القتال او الجلاء عن الوطن . اما الجلاء عن الوطن فامر متعذر ،وذلك لانه لا يمكن ان نجد مقرا لنا الا المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيدة » .

القرار الاخير

كان يبدو من لهجة الحاكم المصري انه ميال الى المسالمة، ولكن الحقيقة ان المسالمة لم تكن من رأيه ـ كما تبين فيما بعد ـ ولكنه لم يشأ ان يفرض الحرب ، بل فضل ان تكون بقرار جماعي او ان يفوض الامر اليه . وعندئذ يقررها اعتمادا على التفويض ، وهكذا كان .

فقد رد ناصر الدين القيمري قائلا :

« وليس هناك مصلحة ايضا في مصالحتهم اذ انه لا يوثق بعهودهم » .

واذن فقد اصبح الطريق ممهدا لاتخاذ قرار مشرف . ان المسؤول عن مصر يبرهن على استحالة الجلاء . والقيمري يبرهن على استحالة المصالحة . ولكن بقي رأي اخر باستطاعته ان يبرهن على عقم المقاومة ، على انه بعد الرأيين السابقين ، وما فيهما من وضوح، لم يعد باستطاعة هذا الرأي الاخير الا ان يلجلج دون ان يفصح . لذلك رأينا بقية الحاضرين ـ وكان معظمهم قد ذاق مرارة الهزيمة امام هولاكو فخمدت عزائمهم وضعفت هممهم ومالوا الى التسليم ـ يقولون لصاحب مصر قطز :

« — ليس لنا قدرة ولا طاقة على مقاومتهم فمر بما يقتضيه رأيك »

فقال الملك المظفر :

— ان الرأي عندي هو ان نتوجه جميعا الى القتال . فاذا ظفرنا فهو المراد والا فلن نكون ملومين امام الخلق .

وكانت كلمته حاسمة ، فقر الراي على وجوب المقاومة . ورأى بعضهم ان يفاجئوا المغول بأمر يدل على الحزم والمضي في القتال دون هوادة ويقطع الطريق على اية دعوة انهزامية فأشاروا بقتل رسل المغول . فاستصوب الملك هذا الراي وامر بصلب الرسل في الليل .

ولقائل ان يقول :

وما ذنب الرسل ، والرسل في كل الشرائع لا تقتل ..

ولكن الذي يطالب بمثل هذا ينسى ان المغول امتهنوا الشرائع ، وغدروا بالرسل ، وخانوا المستأمنين ، ونقضوا العهود ، وان كل ما يمكن ان يرهب هؤلاء القوم هو حلال في كل شريعة صحيحة ، وان الامر كما قال علي بن ابي طالب عليه السلام : الوفاء لاهل الغدر غدر عندالله ، والغدر بأهل الغدر وفاء عند الله .

المغول على ابواب مصر

كانت طلائع المغول قد وصلت الى غزة ، وكان قد عسكر فيها جيش قوي بقيادة القائد المغولي (بايدر) ، وكان هذا القائد يتهيأ للهجوم على مصر ، فلما اتاه خبر صلب الرسل ارتاع لذلك وتردد في التقدم ، ورأى ان يراجع

قائده الاعلــى (كيتوبوقا) الذي كان يعسكر بالقرب من مدينة بعلبك ، فاستشاط هذا غيظا وامر (بايدر) بان لا يتقــدم قبــل وصولــه .

ولكن المصريين كانوا قد تخلوا عن الدفاع وعزموا علــى ان يبدأوا بالهجوم ، فاقتحم جيشهم غزة وطاردوا (بايدر) حتــى نهــر العاصي . فزاد هذا التحدي من غضب كيتبوقا واسرع بجيوشه لتأديب المصريين واثقا من نفسه مطمئنا الى جبروت قـــواه .

المعركة الفاصلــة

وكان المصريون موقنيــن ان الشجاعة وحدها لا تحسم الموقف ، وان الاستماتة لا تكفــي لرد الاعداء ، فلا بد مــن اعمــال الراي لان الجيش القادم جيش خطر ، كثير العدد ، واضح الشجاعة ، مرهوب الجانب . لهذا تعمد الملك المظفر اعمال الحيلة فعبأ جيشه في كميــن تعبئة محكمة ، وخــرج هو ببضعة آلاف يقابل المغول وجها لوجه في (عين جالوت) فرشقته سهام المغول رشقا عنيفا ، وكروا عليه كرة زلزلته عن مواقفه فانهزمت جيوشه وتراجع ، فتعقبه المغول واعملوا السيــف في المصريين المنهزميــن فقتلوا منهم كثيرا ، ولكن لم تلبث ان طلعت عليهم الكمــائن المصرية من ثلاث جهـــات فصدمتهم صدمة عنيفــة صمدوا لها من الفجر الــى منتصف النهار واستقتل الفريقان ، ولكن المفجأة المصرية اثمرت ثمارها في زعزعة صفوف المغول ، فلم تلبث بشائر النصر ان لاحــت للمصريين ، ولم تلبث الجمــوع المغولية ان اخذت بالتصدع ،

ولم تلبث الهزيمة ان حاقت بهـــا .

وابـــى(كيتبوقا) ان ينهزم ، وآثر الموت على الفـــرار، وصمـــد يجالد بسيفه جـــلادا عنيفا ، ولكنه في النهاية سقط اسيرا وسيـــق مكبلا الـــى الملك المظفـــر ، فعنفه مذكـــرا اياه بالدمـــاء التـــي سفكها والعهـــود التـــي نكثها . فعاد المغولـــي يهدد ويتوعـــد قائلا من جمـــلة كلامه : « ستطـــأ سنابك خيل المغول من اذربيجان حتى ديار مصر ، وستحمل رمال مصر في مخالـــي خيولهم الـــى هناك ، ان لهولاكـــو ثلاثمائة الف فارس مثل كيتوبوقا ، فافرض انه نقص واحـــد منـــهـــم » .

ولكـــن رأس كيتوبوقا طاح عـــــن جسده ومضـــى المصريـــون يطاردون المغول في الديار الشامية ويطهرونهـــا منهم حتـــى بلغوا شاطـــىء الفرات .

ومضـــى تهديد كيتوبوقا في الهواء . ولم يكتب لسنابك خيل هولاكو ان تعود فتطأ تراب الشام ورمال مصر مرة ثانية.

بطـــلان

تتعرض الامم احيانا الـــى مواقف يتزلزل فيها كيانهـــا ويتهشم وجودها ، فتغدو وكأنها شلو ممزق ، فقد الرأس والاطــــراف .

هنا تتجلـــى كوامن العزائم وتبرز مخبآت العبقريات ، فيقيض الله للامة من لم تكن تحسبهم شيئا فاذا هم كل شيء.

هذا ما صار اليـــه امر العرب والمسلمين بسبب الغزو المغولـــي الثانـــي بقيادة هولاكو ، حين استطاع تدمير البلاد والعبـــــاد ، وقضـــى علـــى آخر رمز اسلامي قضاءه المبرم وحل ما كان قد بقـــي من روابط يمكن ان تشد البلاد بعضها الـــى بعض ، واخمـــد كل صوت يمكن ان يستصـــرخ مستنجدا ويستثير محمسا .فعادت الامة قطيعا سائبا تتعاوره الذؤبان وتعيث فيه السباع ، ونعى الاسلام نعاته ، ورثاه رثاته ، وخيل للناس ان الوثنية سادت وان لا قائمة تقوم بعد لكلمة التوحيـــد .

ولكن الاسلام ، وقد كان احيا بعبقريته الشعوب وخلق النور الساطع من الظلام الدامس ، لم يكن ليستسلم بمثل تلك السهولة التـــي حسبها الضعفاء ، فجذوته التي هزت الكون قبل اليوم ، كان لا يزال منها قبسات في نفوس بنيه ، فمن قلب اليأس برز الامل في عزم رجليـــن اثنين قيض لهما ان ينقـــذا الاسلام من اخطـــر بلاء اصابه . ومن المؤسف ان الجمهور الاسلامـــي يجهل كل شـــيء عنهما ، بل ان الخاصة الاسلاميـــة نفسها لا تكاد تعرف الا لمحات خاطفـــة عنهمـــا،

في حين أن بعض من احيطت اسماؤهم بالتهويل والتطبيل في بعض الاحداث الاسلامية ليسوا باهل لشيء من هذا ، وكان نصيبهم من العمل نصيبا لا يستحقون عليه ذرة من هذا الاجر الضخم .

هذان الرجلان متناقضان في كل شيء ، فلقد جرى كل منهما في طريق لا صلة لها بطريق الاخر ، وكانت وسيلة كل واحد منهما مختلفة عن وسيلة الثاني ، بل ان واحدا منهما لم يتصل بزميله ولم يتعرف اليه ولم يدر عن خططه شيئا ، بل عمل كل فيما هيىء له وسار في الطريق التي لا يحسن السير في غيرها . ولو انه انحرف عنها قيد شعرة لتعسف السبيل وضل الدرب وتاه واتاه معه العروبة والاسلام .

الملك المظفر

هذان الرجلان البطلان هما الملك المظفر سيف الدين قطز حاكم مصر (١٢٥٩ ــ ١٢٦٠ م) والعالم الفيلسوف نصير الدين الطوسي (١٢٠١ ــ ١٢٧٤م) .

وقصة الاول منهما ذكرت في مقال آخر ، فلا اعيد منها هنا شيئا سوى القول بان هذا الرجل العظيم استطاع ان يبطل اسطورة الجيش الذي لا يغلب فهزم المغول في عين جالوت (١٢٦٠م) هزيمة لم يتوقعها احد ، بل خاض في الاصل معركة لم يتوقع خوضها احد .

لقد انتصر في عين جالوت على المغول انتصارا يمكن القول من ناحية انه كان حاسما ، هذا اذا اعتبرنا النتائج البعيدة التي ادى اليها هذا النصر . فان الزحف المغولي

منذ تقدم بقيادة هولاكو لم يوقفه شيء وانهارت امامه جميع القوى . حتى خيل للناس في كل مكان انه ماض في فتوحه حتى النهاية ، وان مصر هي هدفه الثاني بعد الشام ، وان هذا الهدف كغيره من الاهداف قريب المنال ، ومتى استصفى المغول مصر فانهم سيمضون حتما الى ما هو ابعد ، ولا يعلم الا الله اين سيقفون .

وفي الواقع لو قدر للمغول الانتصار العسكري في « عين جالوت » لكان الامر كما ظن الناس ولكن المقاومة الباسلة التي لقوها عند حدود مصر ، والصمود الرائع الذي اعده لهم الملك المظفر ، ثم الهزيمة الكاسحة التي الحقها بهم المصريون بقيادته : ان ذلك اثبت اولا ان المغول يمكن ان يهزموا ، ثم وضع حدا لتقدمهم ، ولم يكتف بردهم عن مصر ، بل ردهم عن الشام ايضا ، ومن هنا يمكن اعتبار النصر المصري في « عين جالوت » نصرا حاسما .

نصير الدين الطوسي

كان نصير الدين الطوسي ضحية من ضحايا الغزو المغولي الاول ، حينما اجتاحت جحافل جنكيز خان (١٢١٥ — ١٢٢٧م) البلاد الاسلامية ودمرت ما مرت به منها . وكان من تلك الضحايا مدينة نيسابور التي كانت تعج بالعلماء وتزخر بالمدارس .

ولم يكتف المغول بتدمير المدينة بل اعملوا السيف في الناس ، فقتل من قتل واستطاع الفرار من استطاع ،

وكان بين الناجين نصير الدين الطوسي ، فهام على وجهه يطلب الملجأ الامين فوجده في قلاع الاسماعيلية الحصينة ، تلك القلاع التي صمدت وحدها لجنكيز خان وصدته عن اسوارها ، فظل حقد المغول مضطرما على الاسماعيليين الى ان استطاعوا الثأر منهم في عهد هولاكو حفيد جنكيز .

ولم يكن نصير الدين وحده هو الذي احتمى بهذه القلاع ، بل لقد لجأ اليها كثير ممن استطاعوا الفرار والنجاة .

وعندما تقدم المغول في غزوهم الثاني ، واعاد هولاكو سيرة جده ، كانت الحملة هذه المرة من القوة بحيث هابتها القلاع الاسماعيلية فلم تستطع لها صدا ، ونزل الامير الاسماعيلي ركن الدين خورشاه على حكم المغول ، فكان حكمهم قتله وقتل اعوانه ومن لجأ اليه ، واستثنوا من ذلك ثلاثة رجال كانت شهرتهم العلمية قد بلغت هولاكو فامر بالابقاء عليهم ، ولم يكن هذا الابقاء حبا للعلم وتقديرا لرجاله، بل لان هولاكو كان بحاجة الىما اختص به هؤلاء الثلاثة من معارف ، فاثنان منهم كانا طبيبين هما موفق الدولة ورئيس الدولة ، والثالث كان مشهورا باختصاصه في اكثر من علم واحد هو نصير الدين الطوسي، وكان مما اختص به علم الفلك ، وكان هولاكو مقدرا لهذا العلم تقدير حاجة لا محض تقدير ، مؤمنا بفائدته له . لذلك رأيناه بعد ذلك يعنى بانشاء مرصد « مراغة » ويوفر له كل ما يستدعي نموه وتقدمه . . .

رجـل الساعـة

جمع نصير الديـن الطوسـي الـى العلم الواسـع العقل الكبير ، فتريك سيرته رجلا من افذاذ الرجـال لا يمر مثله كل يوم . وتشاء الاقدار ان تعده لمهمة لا ينهض لها الا من اجتمـعت له مثل صفاته : علم وعقل وتدبير وبعد نظر ، فكان رجل الساعة في العالم الاسلامـي ، هذا العالم الذي كان مثخنـا بالجـراح .

كانت مهمـة الطوسـي من اشق المهمـات ، وكانت ازمته النفسية من اوجع ما يصاب به الرجال ، فانه وهـو العالم الكبير ذو الشهرة المدوية بين المسلمين ، يرى نفسـه فجأة في قبضة عدو المسلمين ، ويرى هذا العدو مصرا على ان يبقيـه في جانبه ويسيره في ركابه . والـى اين يمشـي هذا الركاب ؟ انه يمشـي لغزو الاسلام في دياره والقضاء عليـه في معاقله ، فهل من محنة تعدل هذه المحنة ؟

ان اقل تفكير في التمـرد علـى رغبة القائد المغولـي سيكـون جزاؤه حد السيف ... وانـني لاتخيل الطوسـي متأملا طويل التأمل ، مطرقا كثير الاطراق ، لقد كان يعـز عليه ان يذهب دمه رخيصا وان يكون ذلك بارادته هو نفسه ، فلو ان سيفـا من سيـوف المغول الجانية اودى به فيمـن اودى بهم في رحاب نيسابور وسهول ايران لكان استراح . اما الان فلـن يستسلم للقدر الطاغـي وسيثور علـى حكـم الزمـن الغاشـم .

الوضع العـــام

كان الطوســـي ذا فكر منظم يعرف كيف يخطط ويدبر. وهو في ذلك آية من الايات ، وقد ادرك ان النصر العسكري على المغول ليس ممكنا ابدا ، فقد انحل نظام العالم الاسلامي انحـــلالا تاما لم يعـــد معه امل في تجميـــع قوة تهاجـــم المغـــول وتخرجهم من دياره ، وكانت البلاد المحتلة اضعف من ان تفكـــر في ثورة ناجحة . علـــى ان المغرب الاسلامـــي كان لا يزال سليمـــا ، وكانت مصر هـــي القوة الوحيدة التي تتجه اليها الانظار ، وقد استطاعت مصر ان تذيق المغول مرارة الهزيمة وان تردهم عنها ، ولكنها لم تكـــن مستطيعـــة اكثر من ذلك ، فمهاجمة المغول فيمـــا احتلوه من بلاد بعيـــدة واخـــراجهم من تلك البلاد كان فوق طاقة مصر .

وفكر نصير الديـــن طويلا فايقـــن انه اذا تم للمغول النصر الفكري ، بعد النصر العسكري ، كان في ذلك القضاء علـــى الاسلام ، وها هو يرى بام عينيه الكتب تحرق والعلماء يقتلـــون ، فماذا يبقـــى بعد ذلك ؟..

لقد استغل حاجة هولاكو اليه ، وحرصه علـــى ان يكون في معسكره فلكـــي عالم بالنجوم ، فعزم علـــى كسب ثقـــته واحترامه فكان له ما اراد ، وصار له من ذلك سبيل لانقاذ اكبـــر عدد من الكتب وتجميعها ، كما استطـــاع ان ينجي من القتل الكثيريـــن ممن كانوا سيقتلون .

ولما استتب الامر لهولاكو خطا نصير الديـــن خطوته الاولـــى ، وكانت هذه المرة خطوة جبارة فقد اقنعه بان يعهد اليـــه بالاشراف علـــى الاوقاف الاسلاميـــة والتصـــرف

بمواردها بمـــا يـــراه ، فوافق هولاكو . وتتطلع نصـــير الديـــن فرأى ان المسلميـــن كانوا قد وصلوا من الانحـــلال الفكـــري الـــى حـــد اصبح العلم عندهم قشورا لالبـــاب فيها ، وانهم حصروا العلم في الفقه والحديث وحدهـــما ، وحرموا ما عداهما من سائر صنوف المعرفة التي حث عليها الديـــن العظيم ، وانصرفوا عـــن العلوم العملية انصرافا تاما . فاعلـــن افتتاح مدارس لكل من الفقه ، والحديث ، والطب ، والفلسفة ، وانه سيتولـــى الانفاق علـــى طلاب هذه المدارس ، ولكنه سيجعل لكل واحد من دارسي الفلسفة ثلاثة دراهم يوميا ، ولكل واحد من دارسي الطب درهميـــن ولكل واحد من دارســـي الفقه درهما ، ولكل واحد مـــن دارســـي الحديث نصف درهم ، فاقبل الناس علـــى معاهد الفلسفـــة والطب ، بعدما كانت من قبل تدرس سرا .

النصـــر الاول

احرز نصير الديـــن النصر الاول في معارك الاسلام ، فالعلم لـــن ينقطع بعد اليوم ، ولن يجمد المسلمون عن طلبه، ثم انصرف يخطط للمعركة الكبـــرى الكاسحة . فاذا كـــان انشاء المدارس المتفرقـــة لـــن يلفت هولاكو اليها ، ولن يدرك اهميتها ، فان انشاء الجامعة الكبرى وحشد العلمـــاء فيها وحشر الكتب في خزانتها ، سيكون حتما منبها لهولاكو فكيف العمـــل ؟.

هنا تبدو براعة الطوســـي ، فهولاكو استبقاه لغاية معينة ، فراح يقنـــع هولاكو بانه من اجل استمراره في عمله

والاستفادة من مواهبه لا بد من انشاء مرصد كبير ، فوافق هولاكو على انشاء المرصد ، وفوض لنصير الدين المباشرة بالعمل .

لقد كانت هذه الموافقة الحلم الاكبر الذي حققته الايام لنصير الدين ، وبات بعدها مستريحا للمستقبل لا يشغله شيء الا الاعداد الدقيق والتخطيط السليم الموصل الى الغاية القصوى .

يقول الدكتور علي اكبر فياض : « كان يعيش عند ذاك رجل يعد من اكبر المشتغلين بالعلوم العقلية بعد ابن سينا ، الا وهو نصير الدين الطوسي . قدر لهذا الرجل العظيم ان بقوم بانقاذ التراث الاسلامي من ايدي المغول » .

ويقول الاستاذ مدرسي : « استطاع الطوسي بتأثيره على مزاج هولاكو ان يستحوذ تدريجيا على عقله وان يروض شارب الدماء فيوجهه الى اصلاح الامور الاجتماعية والثقافية » .

الخطة الحكيمة

ضخم نصير الدين امر المرصد لهولاكو واقنعه انه وحده اعجز من ان يرفع حجرا فوق حجر في ذاك البناء الشامخ ، وانه لا بد له من مساعدين اكفاء يستند اليهم في مهمته الشاقة ، وانه لا مناص من اجل ذلك من ان يجمع عددا من الناس المختارين ، سواء في البلاد المحتلة او في خارجها ، فوافق هولاكو على ذلك .

وهنا هب نصير الدين الى اختيار رسول حكيم هو فخر الدين لقمان بن عبدالله المراغي ، وعهد اليه بالتطواف في البلاد الاسلامية ، وتأمين العلماء النازحين ودعوتهم للعودة الى بلادهم ، ثم دعوة كل من يراه كفؤا في عمله وعقله من غير النازحين .

ومضى فخر الدين يؤدي مهمته على احسن الوجوه ، وقصد الى اربل والموصل والجزيرة والشام ، فعاد الهاربون ولبى الدعوة غيرهم فجاءوا من كل مكان . جاءوا من دمشق والموصل ، وقزوين وتفليس وغيرها . وتحلقوا حول نصير الدين يعدون العدة لانشاء اكبر معهد علمي عرفه العالم الاسلامي ، ساترين هدفهم بالمرصد ، مغلفين طريقهم بالافلاك والنجوم . بل لقد بلغت الدعوة أقاصي المغرب فكان من المغاربة يحيى بن ابي الشكر المغربي الذي كان احد الستة الذين اختارهم نصير الدين ليكونوا اللجنة العليا المشرفة على العمل .

يقول الدكتور مصطفى جواد : « التحق نصير الدين الطوسي بهولاكو لينجي نفسه من الهلاك ، وليأتي بمعجزة القرن السابع وهي نشر العلوم في الشرق وتأسيس اول اكاديمية علمية فيه بالمعنى العلمي الحديث الذي تدل عليه كلمة **Academie** ، واقامة اعظم مرصد عرف في الشرق وانشاء اول جامعة حقيقية من النوع المعروف اليوم بالـ **Université**

رواية شاهد عيان

وكان في طليعة الوافدين الى مراغة العالم الدمشقي

مؤيد الدين العرضي الذي ترك لنا رسالة في وصف مرصد مراغة وادارته تحدث في مقدمتها عن نصير الدين الطوسي فكان مما قاله :« ... وذلك كله باشارة مولانا المعظم والامام الاعظم العالم الفاضل المحقق الكامل قدوة العلماء وسيد الحكماء » .

ثم يقول : « فجمع العلماء اليه وضم شملهم بوافر عطائه وكان لهم ارأف من الوالد على ولده فكنا في ظله آمنين وبرؤيته فرحين كما قيل :

نميل على جوانبه كأنا
نميل اذا نميل على ابينا
ونغضبه لنخبر حالتيه
فنلقى منهما كرما ولينا

وهو المولى نصير الملة والدين محمد بن محمد الطوسي ادام الله ايامه .

النتائج الخطيرة

مضى العمل منظما دقيقا وانصرف العلماء باشراف الطوسي منفذين مخططا مدروسا ، فلم يمض كبير وقت حتى كانت المكتبات تغص بالكتب ،وحتى كانت مكتبة مراغة بالذات تضم مجموعة قل ان اجتمع مثلها في مكتبة اخرى ، وحتى كانت المدارس تقام في كل مكان ، وحتى كانت الثقافة الاسلامية تعود حية سوية ، وحتى كانت النفوس مشبعة بالامل والقلوب مليئة بالرجاء ، وحتى

كان الدعاة ينطلقون في كل صوب والهداة ينتشرون علـــى كل وجهـــــة ...

ثم يمـــوت هولاكو ، ولكن الاسلام الذي اراد له هولاكو الموت يظل صحيح البنية ، متوهج الفكر . والعرب الذين عول الطاغيـــة علـــى تحطيمهم يظلون شامخيـــن سالمين ، ثم يمـــوت ابن هولاكو وخليفتـــه (ابقاخان) والاسلام لا يـــزال بقيـــادة الطوســـي صامدا ، يقاتل ويقاوم ويدعـــو ويهـــــدي .

ويأتـــي بعد ابقاخان ، ابن هولاكو الاخر (تكودار) فاذا بالاســـلام ينفـــذ الـــى قلبه وعقله ، واذا به يعلـــن اسلامه وتسلم الدولة كلها بعد ذلك .

وكان الطوســـي قد مات سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٤م) . مات قرير العين وهو يرى طلائع الظفر مقتحـــمة الدنـــيا بموكبها الرائع وبشائر النصر هازجة بارغع صوت واعلـــى نبـــرة . مات الطوســـي مودعا الامر الـــى تلميذه واقرب المقربيـــن اليه قطب الديـــن ابو الثنـــاء محمود بن مسعود الشيرازي ، فنهض بالعبء علـــى ما اراده نصير الديـــن . فلم يجـــد « تكودار » الذي اصبح اسمه « احمد تكودار » خيرا من الشيرازي خليفـــة الطوسي ليكون رسوله الـــــى العالـــم العربـــي والاسلامـــي .

يقول الاستاذ عبد المتعال الصعيدي : « لم يمت نصير

الدين الا بعد ان جدد ما بلي في دولة التتار من العلوم الاسلامية واحيا ما مات من آمال المسلمين بها » .

الى ان يقول : « ... ان الانتصار على التتار لم يكن في الحقيقة بردهم عن الشام في موقعة « عين جالوت» وانما كان بفتح قلوبهم الى الاسلام وهدايتهم له » .

هكذا استطاع نصير الدين الطوسي ان يهزم بالعقل والعلم الدولة الطاغية الباغية ، وان تنجح خططه في تحويل المغول من وثنيين الى مسلمين .

ابن الفوطي مؤرخ العصر المغولي

بين الاسرى الذين وقعوا في ايدي المغول بعد النكبة الكبرى ، اسير لم ير فيه آسره الا غلاما حدثا قد يصلح اكثر ما يصلح للخدمة في الدور او الدواوين ، ولم يثر في نفس الآسر ابعد مما يمكن ان تثير فيها اية دابة من دواب الارض التي تسعى في مصالح الناس وتقاد الى العمل طوعا او كرها واي شأن لصبي لم يتجاوز الاربع عشرة سنة من سنه يقبض عليه بين عشرات الالوف التي قبض عليها في بغداد وغير بغداد ممن هوت دولتهم وهانت عزتهم وتلاشت قوتهم .

هذا الصبي الاسير الذليل هو عبد الرزاق بن احمد الذي اشتهر بعد ذلك بابن الفوطي والذي ولد في المحرم سنة ٦٤٢هـ ببغداد ثم وقع في ايدي المغول بعد افتتاحهم عاصمة الخلافة العباسية . فمضى مقودا الى آذربايجان ثم منها من مكان الى آخر حتى عثر عليه فيمن عثر عليهم الفيلسوف نصير الدين الطوسي ، الرجل الذي تحدثت عنه في مقال سابق والذي كان له فضل افساد المخطط المغولي في القضاء على الاسلام في معاقل الاسلام .

عثر عليه الطوسي بعد سنة من اسره فلم تفته ملامح

الذكاء في وجهه ودلائل النبوغ في تصرفه ، والطوسي يومذاك يفتش عن الاكفاء ويسعى الى الاذكياء ليلم بهم الشمل فيجدد مسيرة الاسلام قدما الى ابعد الغايات . فعمل الطوسي على فكاك الغلام ثم ضمه الى حاشيته. وما عسى ان تكون حاشية الطوسي ؟ كانت علماء حكماء وبناة اشداء رصهم الطوسي رصا في صفوف حاشدة وجمعهم من كل مكان جيشا يقاتل بالقلم ويحارب بالفكر ويكر بالكتاب . فكان لفتانا الاسير الطليق مكان واضح في تلك الجموع العالمة العاملة ، بدأه اولا تلميذا للطوسي تلمذة استمرت ثلاث عشرة سنة في مدينة مراغة التي اختارها الطوسي ميدانا لكفاحه المرير الطويل .

ووجه الطوسي تلميذه فيما وجهه الى دراسة العلوم الرياضية والنظريات الفلسفية ، كما اتقن التلميذ اللغة الفارسية واحاط بآدابها ونظم الشعر فيها ، والم بلغة الفاتحين المغول . وكان من اعظم انجازات الطوسي حرصه على انقاذ الكتب وجمعها في مكتبة كبرى وصونها من ايدي المخربين والعابثين ، وبعد ان تم له ذلك وقامت المكتبة عهد بالاشراف عليها الى تلميذه ابن الفوطي . وهكذا اجتمع لعبد الرزاق الفكر النير والذهن المتفتح والاستاذ الموجه والمناخ المؤاتي ، فكان ان انتهى الى ان يصبح مؤرخ العصر المغولي العالم الكاتب الشاعر .

في مراغة

قلنا ان عبد الرزاق ولد ببغداد ، ونقول ان اللقب الذي

التصق به (ابن الفوطـــي) انمـــا جاءه من قبل جده لامه ؛ وهـــو منسوب الـــى الفوط جمع فوطة وهـــي نوع مـــن الثياب ويبدو ان الجد كان يعمل في صنع هذه الثياب او بيعها، ويقال انه ينتسب الـــى معن بـــن زائدة لذلك يلحق باسمه احيانا لقب الشيبانـــي . وكانت ولادته بعـــد مضـــي سنتين من خلافـــة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين . ولا يدرى شـــيء عـــن حداثته سوى ما يستنتج مما كتبه هو من انه ولد في محلة الخاتونية القريبة من دار الخلافه وانه سمع قبل سقوط بغداد من الصاحب محيي الدين ابن الجوزي احد قتلى وقعة بغداد ، وانه ولد في اسرة متوسطة الحال ثم اســـر واطلق من الاسر واصبح قيمـــا للمكتبة الكبرى في مراغـــة طيلة ثلاثة عشر عاما . وفي خلال ذلك كانت مراغة قد اصبحت مقرا لدولة تتبعها خراسان وايران باسرها والعـــراق والاناضـــول اي انها كانت عاصمة المشرق الذي استولـــى عليـــه المغول ، وكانت الحال في هذه الدولة تتطور عاما بعد عام ، فمـــن عداء صريح للاسلام والمسلميـــن ومذابحوفواجع ونهب وسلب واحراق الـــى هدوء ثم تحول لتأسيس دار الرصد وخزانة الكتب وتأميـــن العلماء واستقدامهم مـــن الافـــاق البعيـــدة . كل ذلك تم بعد عام واحد من استباحة بغـــداد ، وكان الفضل في تمامه للعقل المدبـــر نصير الدين الطـــوســـي .

المكتبة ودار الـــرصد

يفهم مما سجله ابـــن الفوطـــي نفسه انه وضع للمكتبة

نظاما دقيقا يسير عليه المطالعون والدارسون والمشرفون ثم عكف على طلب العلم فكان ان استهواه التاريخ فانصرف اليه . وبدأ اول ما بدأ بتسجيل تاريخ الدار التي آوته وحمته وثقفته فسجل كيف انشئت دار الرصد واشار الى استقدام العلماء المدرسين اليها وذكر عمل كل منهم واختصاصه ومؤلفاته مترجما له ترجمة ممتعة ، والف كتابا خاصا سماه « تذكرة الرصد » خصصه بالذين وفدوا الى الدار او مكتبتها ، كما وصف بعض ما حوته المكتبة من نفائس الكتب وصفا ممتعا ذكر فيه تراجم المؤلفين وزياراتهم للمكتبة وبعض آثارهم .

وقد حفظ في كل ذلك صورا للحياة السياسية والعلمية والاجتماعية والادبية ما كان لها ان تحفظ لولا ان سجلها بقلمه المبدع . مما كان حقيقا بما وصف به من (انه مؤرخ النهضة العلمية الكبيرة في مراغة) .

العودة الى بغداد

وتزداد الحياة تطورا وتحولا فمن بين السنين الثلاث عشرة التي قضاها في مراغة كانت ست منها في حياة الطاغية هولاكو والباقية في عهد ابنه اباقا ، انغمر فيها ابن الفوطي في المجتمع انغمارا كاملا واستطاع بكياسته ان يتغلغل في ارفع المقامات المغولية وان يزور الاميرات المغوليات وان يستزيد من الصداقات ويكثر من الاخوان . وان يسجل من وحي ذلك كل طريف معجب .

على انه وهو في قمة نجاحه وعنفوان تألقه لم ينس

وهو البغدادي العريق والعراقي الاصيل ضفاف دجلة ومسارح الطفولة ومدارج الصبا وذكريات الاهل والاحباب ، وثار به الحنين الى بغداد التي فارقها غلاما غض الاهاب ، فلم ينسه اياها نضوح الشباب وشيوع الذكر ونجاح الامر حتى كان العام ٦٧٨هـ (١٢٧٩م) حين حكم العراق الصاحب علاء الدين الجويني صديقه في مراغة .

وكانت الرغبة الكبرى لابن الفوطي هي ان يحمله الصاحب الى بغداد فحقق الصاحب له الرغبة فكان مما قاله عنه : « هو الذي اعادني الى مدينة السلام سنة تسع وسبعين وستمائة وفوض الي كتابة التاريخ والحوادث وكتب لي الاجازة لجميع مصنفاته واملى علي شعره في قلعة تبريز سنة سبع وسبعين وستمائة .

في بغداد

العمل الذي اتقنه ابن الفوطي في مراغة هو نفسه الذي عهد اليه به علاء الدين الجويني في بغداد وهو الاشراف على مكتبة المستنصرية وكانت انذاك اعظم مكتبة عامة في العالم وكانت ملتقى لرجال العلم والفكر ، فعكف ابن الفوطي على عمله فيها بنفس الدقة والاتقان والتنظيم الذي عرف به في مكتبة مراغة . وكانت سنه يومئذ دون الثلاثين فرأى ان يستزيد من العلم فاقبل على دراسة الفقه والحديث بتعمق واتقان حتى استحق بين المحدثين لقب (الحافظ) .

وانشأ لنفسه مكتبة خاصة كانت محجة للعالمين

والمتعلميـــن البغداديين ومقصـــدا للطارئين الوافديـــن ، وكان يشير في تدويناته الـــى زواره وزوار مكتبته من كل الاصنـــــاف .

كمـــا وضع معجمـــا خاصا بمـــن تتلمذ عليهم واخذ عنهـــم فبلـــغ عددهم الـــى الخمسمائة .

من حال الـــى حـــال

وظل ابـــن الفوطـــي علـــى عمله في المستنصريـــة خمسا وعشريـــن سنة بدأت سنة ٦٧٩ وانتهت سنـــة ٧٠٤ كان التحول خلالها قد ازداد سرعة والدنيا تبدلت غير الدنيا . وكانت غراس نصير الديـــن الطوســـي قد نمت واثمـــرت فاسلمت الدولة المغولية وتحولت الـــى مجتمـــع اسلامـــي يساهـــم في نهضة الاسلام وتقدم المسلميـــن .

كما ان السياسة تطورت من حال الى حال فان ارغون حفيـــد هولاكو صب نقمته علـــى آل الجوينـــي لانهم نصروا عمه احمد تكودار فبطش بهم واستأصلهم وقرب خصومهم ، كما عامل العراقيين بعامة معاملة انتقام وقمع لميلهم الـــى آل الجـــوينـــي .

وقد كان كل ذلك بمرأى من ابـــن الفوطـــي فشهـــد الصراع الحزبـــي المغولـــي الدامـــي وشهد مصـــارع آل الجوينـــي الذيـــن حكموا العراق اكثر من عشريـــن سنة حكمـــا حببهم الـــى العراقييـــن واما لهم اليهم ، كمـــا كان قد شهـــد من قبل وفاة الصاحب علاء الديـــن ووفاة استاذه ومربيـــه نصير الديـــن الطوســـي ووفاة الاجيال التـــي

عاصرت الطوسي او تخرجت عليه .

شهد كل ذلك في العصر المغولي الاول من فتح بغداد الى اواخر القرن السابع ، وهذه الفترة تعتبر من اشرس الفترات المغولية واعنفها ، ولكن المغول اخذوا يتكيفون تكيفا تدريجيا فلطف الاسلام من شراستهم وخفف من شدتهم ، ولم يكد القرن السابع ينتهي ويقبل ما نستطيع ان نسميه العهد المغولي الثاني حتى كان التكيف قد ازداد بالتصاق المغول بالاسلام وتحسسهم بمظاهر الحضارة الاسلامية فرأينا الحواضر المغولية تصطبغ بصبغة جديدة من المدنية ، ورواسب الوثنية تذوب في النفوس والادارة تتحضر والنظم الاجتماعية تتبدل .

وقد شهد ابن الفوطي هذه العهود كما شهد التي قبلها مشاهدة المؤرخ المرهف الحس واتصل برجالها حكاما وعلماء ونافذين ، فكتب عن كل ما شاهد وترجم للرجال ووصف الحياة ، بعقل نير وفكر ثاقب وقلم رشيق .

في تبريز

بعدما تخلى ابن الفوطي عن عمله في المستنصرية سنة ٧٠٤ رحل الى تبريز حيث اقام هناك ست سنوات ثم عاوده الحنين الى بغداد فرجع اليها ثم عاد الى بغداد وكثر تردده الى تبريز . ويبدو ان الذي جذبه الى تبريز هو وجود صديقه القديم وزميله في الدرس على نصير الدين الطوسي الطبيب رشيد الدين الهمذاني العالم المفكر السياسي الذي عرفت تبريز في عصره ازهى عهودها

العلمية والعمرانية والسياسية فلازمه ابن الفوطي وعاود سيرته في الأخذ عن العلماء والدرس على الشيوخ ولقي في تبريز الامام قطب الدين الرازي الفقيه الرياضي الفيلسوف فتلمذ عليه ثم استجازه كما اخذ عن غيره من مشاهير العلماء الذين كانت تعج بهم تبريز ، ولكن اثر الرازي كان فيه بارزا .

وبعد ان وزر رشيد الدين لثلاثة من ملوك المغول الايلخانيين هم غازان وخربنده وابي سعيد تغير عليه الاخير لدسائس حيكت حوله فاقصي عن الحكم ثم اعيد اليه ولكن المؤامرات ظلت تلاحقه حتى قتله السلطان ابو سعيد في احداث ليس هذا مكان ذكرها . .

على ان افجع ما اعقب هذه الاحداث هو احراق مكتبة رشيد الدين وكانت تضم ما لا يقل عن خمسين الف مجلد . ويبدو ان معظم مؤلفات ابن الفوطي كانت ضمن تلك المكتبة فذهبت طعمة للنيران فيما ذهب من كتب، وهكذا لم يبق من تلك المؤلفات الا اسماؤها فضاع بذلك تاريخ فترة من ادق فترات تاريخنا ولم يبق في ايدينا الا اجزاء محدودة مما كتب ابن الفوطي .

ولقد هزت هذه الفاجعة كيان ابن الفوطي اذ قتل صديقه واحترقت كتبه فترك تبريز وعاد الى بغداد ومات بعد انقضاء خمس سنوات على حادثة تبريز عن احدى وثمانين سنة .

كتاب مجمع الاداب

ضاعت مؤلفات ابن الفوطي النفيسة حرقا في

احداث تبريز علـــى الارجح ، وان كان يمكن ان يكون بعضها قد ذهب للاسباب نفسها التـــي ذهبت بها مؤلفات غيره مـــن العلماء . ومن كتبه كتاب (مجمع الاداب) الذي لم يوجد منه الا جزءان الرابع والخامس وقد وجد الاول منهما في دار الكتب الظاهرية بدمشق وهو نسخة الاصل ومسودة المؤلف بخط يده . ووجد الثانـــي في مكتبة جامعة لاهور بالباكستـــان وهو نسخة المؤلف ايضا . وهذان الجزآن همـــا اثنـــان من اصـــل خمسيـــن مجلدا يتألف منها الكتاب وقد ضاعت كلها ما عدا هذيـــن الجزأيـــن . وطريقة المؤلف في هذا الكتاب هـــي ان يؤرخ للعصر عـــن طريق التاريخ لرجاله . وقـــد ظل يعمل في الكتاب ويجدد فيه حتـــى قبيل وفاته ، اذ وردت دراسات عـــن جمـــاعة وجدوا سنة ٧٢١ اي قبل وفاتـــه بسنتيـــن وسنـــة ٧٢٢ اي قبل وفاته بسنـــة واحدة ولا ننســـى انه كان عندذاك في الواحدة والثمانيـــن من عمره .

وقد كان لهذا الكتاب اثره الكبير في امداد المؤرخيـــن الذيـــن تلوا عصر المؤلف بادق المعلومات التاريخيـــة عن ذاك العصر . وممن استفاد منه واخذ عنه كل من الصفـــدي في (الوافـــي بالوفيات) والذهبـــي في (تاريـــخ الاســـلام) والسيوطـــي في (بغيـــة الوعاة) وابـــن عنبة في (عمـــدة الطالب) وشمس الديـــن الجزري في (غاية النهاية) وابن كثير في (البداية والنهاية) وغيرهم .

ابـــن الفوطـــي في المصادر القديمة

في طليعـــة من تحدث عـــن ابـــن الفوطـــي كـــان

الذهبـــي في كتابه تذكرة الحفاظ اذ جعله منهم كمـــا ســـماه مؤرخ الافاق ، ويبدو من حديث الذهبـــي ان كتابه (مجمع الاداب) ذا الخمسيـــن مجلدا هو مختصر لكتاب اكبـــر ، فالذهبـــي يقول : (وعمل تاريخا كبيرا) لم يبيضه ثم عمل آخـــر دونه في خمسيـــن مجلدا اسمـــاه مجمع الاداب) .

فهل مجمع الاداب هو مختصر من مطول ام هو كتاب آخـــر ؟...

وذكره كذلك صاحب الدرر الكامنة وقد جاءت عبارته صريحـــة في ان المجمع هو اختصار للكتاب الكبير ، اذ قال :

(... تاريخا حافلا جدا ثم اختصره في آخر سمـــاه مجمـــع الاداب في خمسين مجلدا ...) .

وذكـــر صاحب الدرر فيمـــا ذكـــر من مؤلفاتـــه : كتاب الدرر الناصعة في شعراء المائة السابعة ، وموضـــوع الكتاب يعرف من اسمه ، وهكذا فاننا نرى ان ابـــن الفوطي لم يكـــن مؤرخ سياسة واحداث فحسب ، بل هو ايضا مؤرخ ادب .ولا شك ان فقدان هذا الكتابخسارة تضاف الى غيرها من الخسارات ولو بقـــي لعرفنا فيه حياة شعراء تلـــك الفتـــرة وقرأنا اثارهم بقلم معاصر سامع لهم باذنيه شاهد لهم بعينيه . ويبدو ابداع ابـــن الفوطـــي بكتابة التراجم في وصف الذهبـــي له حيـــن قال عنه : (... له الباع الطويل في ترصيع تراجم الناس) . ووصفه الذهبـــي ايضا بقوله : (كان روضة معارف وبحـــر اخبار) .

في المصادر الحديثـــة

لم يلق ابـــن الفوطـــي حتـــى اليوم ما يستحقه مـــن

الدارسيـــن في العصر الحاضر باستثناء الشيخ محمـــد رضا الشبيبـــي الذي اكتشف مخطوطة الجزء الرابع في دمشـــق فاستهواه ابـــن الفوطـــي استهواء عجيبا جعله يخصه بعدة بحـــوث ثم ختم ذلك بكتاب من جزئيـــن سماه (مؤرخ العراق ابـــن الفوطـــي) .

المثقف الفريـــد

لا شك ان ابـــن الفوطـــي كان في عصره مثال المثقف العالـــي الثقافة الموغل فيها والآخذ من كل فنونها بطرف ، ومثال العالم الجاد المواصل للمطالعة والكتابة والتفكير ، وحسبك في ذلك ان يظل القلم والورق في يده وهو في الواحدة والثمانيـــن من عمـــره كما كان وهو في مطالع الشبـــاب وغضارة العمـــر . وان يذكره المؤرخون في اول صفوفهم كما يذكـــره المحدثون في رأس حفاظهم ، فقيها بيـــن الفقهـــاء وفيلسوفا بيـــن الفلاسفة ورياضيا بين الرياضيين وشاعرا بيـــن الشعراء وصوفيا بين الصوفيين ، واداريـــا بيـــن الاداريين ومعلما بيـــن المعلميـــن متذوقا للجمال والموسيقى والشعـــــر .

مـــؤرخ الشعب

واذا كنا قـــد ذكرنا فيـــما تقدم انه ترجم للعلمـــــاء والشعراء والسياسيين فان هذا الفقيـــه المحدث الحافـــظ قد ترجـــم فيمـــن ترجم لهم لاعـــلام الموسيقـــى الاليـــــة والصوتية ، بل يبدو انه كان ذا بصر في الموسيقـــى وتجارب

عمليـــة . كمـــا ارخ للوراقيـــن والناسخيـــن والمعلميـــن والمؤدبيـــن وذوي الفنـــون والصنائع الجميلة ، وبذلك خرج علـــى طرائق المؤرخيـــن قبله الذيـــن اهملوا تاريخ الشعب وعنوا بتاريخ المتسلطيـــن وحدهم فهو في الواقع مـــؤرخ الشعب بكل طبقات هذا الشعب .

رشيد الدين الهمذاني وكتابه جامع التواريخ

الغزو المغولي الاول الذي حمل وزره جنكيز ، ثم الغزو المغولي الثاني الذي باء بأثمه هولاكو لم تؤرخهما المصادر العربية تاريخا مفصلا يعرض دقائقهما ويوضح وقائعهما بحيث تكون الصورة امامنا جلية ترينا ما جرى رؤية بينة شاملة .

وكل ما اشتملت عليه المصادر العربية حديثاجمالي متقطع ، وتدوين عام موزع علىوقائع السنين . ولم يكن من هم اكثر من كتبوا عن ذلك ان يخصصوا تاريخا محصورا بالغزو وحده ، بل كان هم معظمهم منصرفا الى التدوين العام لما يجري خلال كل عام ومنه بطبيعة الحال تقدم المغول الى البلاد الاسلامية .

وممن عني من مؤرخي العرب بتاريخ المغول ، ابن كثير في البداية والنهاية وابو الفداء في تاريخه ومؤلف الحوادث الجامعة والسبكي في طبقاته وابن خلدون وابن حجر في الدرر الكامنة والعيني في عقد الجمان والسخاوي في الضوء اللامع . هذا مضافا الى ما ورد في الكامل لابن الاثير وما اورده ابن الفرات في تاريخه .. .وفي عصرنا هذا يمكن ان نعتبر كتاب الدكتور جعفر خصباك افضل ما الف في هذا الموضوع .

اما في غير اللغة العربيــة فمن اشهر تواريخ المغول باللغــة الفارسيــة كتاب (جهان كشاي) لعطا ملــك الجوينــي و (تاريــخ وصــاف) لعبدالله بن فضل الله الشيرازي المعروف بوصاف الحضرة و (تقويم الوقائع التركية) لصاحب كشف الظنــون ٠ وفي اللغة التركيــة عدة كتــب وضعت بالتركية رأسا او ترجمت اليها مثل كتاب (شجــرة التــرك) لامير خيوة وكتاب (كلشــن خلفا) وكتاب (تــرك تاريخــي) وكتاب التاريخ العام لسائر بطون التتر والمغول والتــرك ، منقول من الفرنسية الــى التركيــة .

والمغــول سواء في عهــد جنكيز او حفيده هولاكو لم يكونوا حمــلة حضارة ولا رسل عقيدة . كمــا لم يكونوا ذوي ثقافة ولا اهل علــم مما يمكن ان يحملهم علــى ان يدونوا التاريخ بانفسهم لانفسهم ، او ان يعدوا من رجالهــم من ينصرف الــى غير القتل والضرب والتخريب والسلب .

ولكنــهم بعد ذلك وقد اسلموا ثم بدأوا يتشبعــــون بروح الحضارة الاسلاميــة ويروضون من جماحهم ويهذبون من عتوهم ، ثم يوغل الفكر الاسلامــي فيهم فيلتفتون الــى غير الطغيــان والجبروت ، ويتأملون شؤون الحياة تأمل ذي الفكــر الذي اخذ يستنيــر بنور المدنية وضياء العلم .

انهم وقد احتوتهم الذهنيــة الاسلامية وصهرتهــــم اوساطها ، بدأوا يعنــون بتاريخهم والتطلع الــى ماضيهم وحاضرهم وتسجيــل ما يمكن ان يعتبروه من مآتيهــــم ومآثــــرهم .

واذا كان ماضيهم زاخرا بسفك الــدماء ، حافــــلا

بالترويع ، قائما على الغدر وتحليل كل محرم . فان ذهنيتهم ، بل ربما كان لنا ان نقول : ان ذهنية الناس كل الناس يومذاك وما بعد يومذاك ، كانت ترى في الغلبة وقهر الشعوب افخم امجادها بصرف النظر عما يرافق هذه الغلبة من اهوال وفجائع .

وهكذا فان مجرد تصورهم ما احرزه جنكيز من انتصارات ، وما حققه هولاكو من فتوح ، كان في نظرهم شيئا خطيرا يستحق ان يتمدحوا به ويسجلوه في صحفهم دليلا على بطولتهم واشارة الى قوتهم وشجاعتهم .

وكان اول من فكر منهم بوضع تاريخ لهم هو غازان الذي عهد بهذه المهمة الى الطبيب فضل الله رشيد الدين الهمذاني .

رشيد الدين

وتعود الصلة بين رشيد الدين وبين المغول الى اليوم الذي حقق فيه هولاكو انتصاراته الحاسمة في زحفه الطويل فكان مما خضع له قلعة الموت حصن الاسماعيليين الحصين فاستسلم حاكمها ركن الدين خورشاه واستسلم معه فيمن استسلم ثلاثة من نزلاء القلعة هم نصير الدين الطوسي ورئيس الدولة وموفق الدولة الهمذاني. فقتل هولاكو الجميع واستثنى من القتل هؤلاء الثلاثة لا رحمة بهم ، بل حاجة اليهم لان الاول كان فيلسوفا كبيرا وفلكيا مشهورا والثاني والثالث كانا طبيبين معروفين. وكان هولاكو بحاجة لهذا النوع من الرجال فالزم الثلاثة

صحبته وامرهم بمرافقته والسير **في ركابه** .

والطبيـــب موفق الدولة هو جد الطبيـــب **فضل اللـــه** رشيـــد الدين **الهمذانـــي** .

ولسنا ندري الى اي مدى استمرت صلة الجد بالمغول، ولا نوع الصلة التـــي كانت بعد ذلك للاب بهم ولكننا نعلم ان رشيد الدين كان من اعوان غازان السلطان المغولـــي المسلم المقربيـــن وخلصائه الاثيريـــن .

علـــى ان ما يرويه رشيد الديـــن نفسه قد يدلنا على ان صلة الاسرة بالمغول ظلت مستمرة وانها تعمقت بعـــد اسلامهم . فرشيد الديـــن **يقول عن نفسه : « على هـــذا النحـــو كنت استغل اوقات فراغـــي ، وذلك لانـــي الحقت** بقصر السلاطيـــن منذ شبابـــي الغض » .

ولا بد ان الذي الحقه بالقصر هو ارتباط ابيه بذلـــك القـــصر بعد ارتباط جده . ويبدو لنا ان ذلك الارتباط كان في تسلسله ارتباط اسرة عرفت بالطبابة ومهارتها بها وانه كمـــا كـــان الجد طبيـــب القصر المغولـــي كذلك كان الاب ثم كان الحفيـــــد .

سيـــرة رشيد الديـــن

ولد رشيد الديـــن في مدينة همـــــذان سنة ٦٤٥هـ (١٢٤٧م) علـــى الارجح . اذ انه يحدثنا انه كان في سنـــة ٧٠٥ في حدود الستيـــنمن حياته . وقبل غازان كان علـــى صلـــة بأباقا خان وخلفائه مكرما عندهم معنيا به في بلاطهم . ولكننا لا نعلم انه تولـــى منصبا كبيرا قبل غازان الذي ولي الملك سنـــة ٦٩٤هـ (١٢٩٥ م) .

ونحن نعلم ان اول من اسلم من ملوك المغول هو (تكودار) بن هولاكو الذي ولي الملك بعد اخيه (اباقا خان) وتسمى بأحمد . وكان اباقا خان قد عهد بالملك الى ابنه (ارغون) . ولكن آل الجويني ومن والاهم من الامراء والقواد لم يدعوا ارغون يتولى الملك ونادوا بتكودار ملكا سنة ٦٨٠ ولم يطل الامر اكثر من ثلاث سنين حيث استطاع ارغون التغلب على عمه الامير (احمد تكودار) وقتله وتولى الملك بعده . وفي عهد ارغون انتعشت الوثنية من جديد كما اشتد نفوذ اليهود . وبعد ارغون تولى ابنه غازان الذي كان اول ملك مغولي يؤدي الصلاة في المساجد الجوامع فيحذو حذوه الامراء والكبراء وجمهرة الشعب المغولي . وكانت صلة رشيد الدين بغازان في اول امرها صلة علمية بحتة . وكان السلطان يغتنم فرصة لقائه برشيد الدين ليذاكره في مبادىء الاسلام وتفسير القرآن ويستوضحه ما خفي عليه من شؤون الدين ، وليجول معه في امور العلم والفكر .

ثم ولاه المنصب الاول في الدولة وجعله وزيرا له ، بعد مقتل الوزير السابق صدر الدين الزنجاني ، الذي اودى به سعيه برشيد الدين عند غازان ومحاولة الايقاع به لديه ، فادى ذلك الى مقتله واحلال رشيد الدين محله عام ٦٩٧هـ (١٢٩٧ م) واشرك معه في الوزارة سعد الدين الساوجي .

ثم مات غازان وتولى الحكم بعده اخوه الجايتو خدابنده فحفظ للوزيرين منصبيهما وظلت لرشيد الدين نفس

المنزلة التـي كانت له عنـد غازان .

وكمـا حيكت له الدسائس لدى غازان اخـذت الدسائس تحاك له ولزميله سعد الدين لدى (خدابنـده) فنجـا منها رشيد الديـن مرارا في حيـن انها ادت الـى مقتـل زميله سعد الديـن واحلال علـي شاه محله الذي اخـذ يدس على رشيد الديـن دون ان ينجـح في دسائسه. ومات الجايتو خدابنده ورشيد الدين علـى مكانته ، وتولـى بعد خدابنده ولده ابو سعيد والتنافر بيـن الوزيرين على اشده ودسائس علـي شاه لدى ابـي سعيد تتوالى حتـى نجح في حمـل السلطان علـى اقصائه عن الوزارة سنـة ٧١٧هـ (١٣١٧ م) . علـى ان مساعي اصـدقائه اعادته من جديد الـى الوزارة بعد ان تردد واحجم ، ولكن هـذه العودة كانت السبب في وصوله الـى نهاية المحنة . اذ اتهمه زميله علي شاه بانه سمم السلطان خدابنده وبعد مناقشات طويلة اقتنـع ابو سعيـد بان رشيد الديـن ان لم يسمم اباه فهـو علـى الاقل وصف له دواء كان السبب في موته . وبالرغـم من ان التهمـة كانت واهيـة فقد سيطرت علـى ابـي سعيـد فأمر بان يقتل رشيد الديـن وان يقتـل معه ولده اليافع ابراهيم الذي لم يكن قد تجاوز السادسة عشرة من عمـره بدعوى انه هو الذي ناول الدواء بنفسه للسلطان، فقتل ولده امام عينيه ثم قتل هو سنة ٧١٨هـ (١٣١٩ م) وقد بلـغ الثالثة والسبعيـن من عمـره .

ولم يلبث بعد ذلك ابو سعيد ان ادرك انه كان مخطئا فيمـا اجراه علـى رشيد الديـن وولده ، وشاء ان يكفـر

عمـا فعل فاستدعـى غياث الديـن احد اولاد رشيد الدين وعهـد اليـه بالمنصب الذي كان يشغله ابوه في الوزارة .

الربع الرشيدي

انشأ رشيد الديـن في تبريز ضاحية اطلق عليها اسم الربع الرشيدي وعنـي بها عناية فائقة . علـى ان اكثـر ما يهمنـا من تلك الضاحية انه انشأ فيها مكتبة حافلة جمع فيها من صنوف الكتب ما قل ان يجتمع مثيله في مكتبة .وكانت تحتـوي علـى ما لا يقل عـن خمسيـن الف مجلد .

ولما نكب وقتل كان من افجع اثار النكبـة احـراق تلك المكتبة بكل ما فيها . ولدينا الكثير من الكتب التـي لـم يصلنـا الا اسمها وكانت فيمـا تحويه مكتبة الربع الرشيدي وذهبت كلها طعمـة للنار . ويكفـي ان نذكر منها مؤلفـات ابـن الفوطـي وحدها .

المثقـف المسلم والعالم العالمـي

هذا تلخيص لحياة رشيد الدين السياسية ، وهـي حيـاة مهمـا كان قد اوتـي فيها من كفاءة وتفوق في حسـن تصريف الامور ، ومهمـا كتب له من النجاح في ميادينها ، فهـي علـى كل حال حياة كحيـاة كل السياسيين المتفوقين منهم وغير المتفوقيـن ، الذيـن لا يلبث اسمهم ان يضيـع في طيـات الزمن ويختفـي في اغوار الدهر . ولو كانت هذه الحيـاة هـي كل ما كان لرشيد الديـن لما وجد مـن يشغل نفسه بها ويلفت قراءه اليها .

ولكـــن لرشيد الديـــن حياة اخرى هـــي التـــــي تعنينا في هذا البحث ، وهـــي التـــي عنت قبلنا غيرنا مـــن الكاتبيـــن : هـــي حياة العالم المفكـــر المؤرخ ، وهـــي حيـــاة اكسبت رشيـــد الديـــن الخلود ، وجعلته من احيـــاء الذكـــر علـــى طول الدهـــر .

يقول المستشرق الفرنســـي (كاترمير) في مقدمتـــه التـــي كتبها لكتاب جامع التواريخ : « اذا غضضنا النظـــر عـــن الطب الذي اقبل رشيد الديـــن علـــى تعلمه منذ زمن مبكـــر ، وعـــن شتـــى فروع المعرفة الاخـــرى التـــي ترتبط بهذا العلم برباط مباشر ، وجدنا انه ايضا لم يهمـــل دراسة الزراعة والهندسة والميتافيزيقا واللاهوت . وكـــان يحيـــط احاطة تامـــة بكثير من اللغات وهـــي : الفارسية والعربية والمغولية والتركية والعبرية وربما الصينية » .

ويقول عنه ايضا « كان مولعا بالمعرفة اشد الولـــع فاستطاع رغم كل هذه المشاغل والموانع ان يجد لنفســـه الوسيـــلة لمعالجة الاداب والعلوم والاحاطة بالدين الاسلامي الـــى اعمـــق حد » .

ويبدو مما ذكره الفقيه الكبير الحســـن بن يوسف بـــن المطهـــر ، المعروف بالعلامة الحلي في بعض كتبه ان مجالس رشيد الديـــن في عهـــد وزارته كانت مجالس علمية ومباحث اسلاميـــة تعرض فيها شتـــى البحوث وتطرح مختلف الاسئلة لا سيمـــا المتعلق منها بالاسلام . وان بعض من كان يحضـــر كان يسأل رشيد الديـــن عـــن دقيق الامور ، وكان رشيـــد الديـــن يجيب ويناقش .

وقد ذكر العلامة الحلـــي انه حضر بعض تلك الجلسات في عهـــد السلطان الجايتو خدابنده واستمـــع الى سؤالين اسلاميـــين طرحا علـــى رشيد الدين وانه اجاب عنهـــما . ولشدة اعجاب الحلي بجواب رشيد الدين فقد دون السؤالين والجوابيـــن . يقول العلامة الحلي ما نصه : (وحضرت في بعض الليالـــي للاستفادة من نتائج قريحته فسئل في تلـــك الليلة سؤاليـــن مشكليـــن فاجاد في الجواب عنهمـــا) .

والواقع ان رشيد الديـــن كان يمثل المسلم المثقـــف ، الرفيـــع الثقافة كمـــا كان يمثل العالم العالمـــي ، باوسع ما تعنيه هذه الكلمات من معنـــى . ولو لم تشغله السياسة ، ولو لم يغره الحكم لكان له من الشأن فوق الذي كان . اذ انه لم يعط الجانب الثقافـــي الا بعض العطاء ومع ذلك فقـــد كـــان لـــه فيه مثل الذي رأينا .

واذا كان لرشيد الديـــن من الكتب مثل (التوضيحات) و (مفتاح التفاسير) والرسالة السلطانية) و (الاحياء او الاثار) و لطائف الحقائق) و (بيان الحقائق) ، فلا شـــك ان قمة اعمالهالتأليفية هـــي ما كتبه في التاريخ في كتابـــه (جامع التواريخ) .

قصة جامع التواريخ

يعود الفضل بالدرجة الاولـــى في تأليف هذا الكتاب الـــى السلطان غازان الذي شاء ان يكون للمغول تاريخ مكتوب . وكان لا بد في الرجوع في تسجيل هذا التاريخ الـــى مصـــادر معروفة واحداث مكتوبة تكون المادة الاولى للمؤرخ

الذي يأخذ علـــى نفسه القيام بهذا العبء .

وكان سلاطيـــن المغول يحتفظـــون في خزائنهم بوثائق مكتوبة بلغتـــهم فيها تدويـــن لكثير من وقائعهم ، كمـــا كان كثير من الاسر المغوليـــة العريقة يحتفظ بمثل هذه الوثائق . وكان كل ذلك يحتاج الـــى من ينظمه وينسقه ويستخلـــص منه الحقائق ، ويخرج منه اصولا لتاريخ يمكن ان يدون .

واهتـــم غازان بهذا ونضجت الفكرة في ذهنـــه فعمل علـــى تحقيقها ، ولم يكـــن في بلاطه افضل من رشيد الدين من يمكـــن ان يعهد اليه بانجاز تاريخ المغول وتدوينه . فاودع لديه كل ما كان تحت يده من وثائق وعهد اليه باستطـــلاع ما يمكنه استطلاعه من المدونات الاخرى او الروايات غـــير المعروفـــة .

فقام رشيد الديـــن بالمهمـــة علـــى افضل وجوههـــا وعكف علـــى انجازها بقدر ما تسمح له به ظروف اضطلاعه بشؤون الادارة والحكم .

ولما اوشك الكتاب علـــى التمـــام كان غازان قد توفي ٧٠٢ (١٣٠٣) وورث عرشه اخوه (الجايتو خدابنده) فلم يكـــن اقل اهتماما من اخيه بانجاز هذا التاريخ ، بل زاد عليه بان طلب الـــى رشيد الديـــن ان يشير الـــى الشعوب التي اتصل بها المغول ويعرض لتاريخها وان يضيف الـــى ذلك دراسة شاملة لكل الشعوب .

ولم تأت سنة ٧١٠ (١٣١٠) حتـــى كان الكتاب قد انتهـــى مكتوبا باللغة العربيـــة واللغة الفارسية باســـم (جامع التواريخ) واودع مكتبة المسجد الذي كان رشيد الدين

قد بناه في مدينة تبريز .

ويصف كاترمير الكتاب قائلا : « الواقع ان تاريخ رشيد الدين قد اعتمد في تأليفه على فحص الوثائق الوطنية الصحيحة المحفوظة في سجلات الامبراطورية والمذكرات التي في حوزة الاسر الكبيرة وقام بتأليفه رجل صادق حي الضمير ، وبذلك يكون قد توفرت له كل مقومات الصدق » .

وينقل كاترمير عن المخطوطة العربية وصفا لمنهج رشيد الدين وطريقته في التدوين بقلم رشيد الدين نفسه : « استطيع ان اشهد لنفسي باني لم ادخر اي احتياط او جهد في تحري الحقيقة والامتناع عن كتابة كل ما هو زائف او مشكوك فيه . وقد اقتبست دون اي تغيير ما انطوت عليه اصدق الوثائق الخاصة بكل شعب ، والروايات التي حازت احسن التقدير والمعلومات التي استقيتها من اعلم الرجال في كل قطر . وفتشت كتب المؤرخين ورجال الانساب . وحققت هجاء اسم كل امة وكل قبيلة » .

الواقع اننا نستطيع ان نعد ميزة التجرد اولى الميزات التي اتصف بها رشيد الدين في تاريخه ، وان نوقن بانه سعى وراء الحقيقة سعيا مخلصا شجاعا ، ولم يراع جانب المغول وهو يتحدث عما في تاريخهم من فظائع ، وكان كما قال عنه كاترمير : « اذا كان يبدو في كتابه مسلما صادق الاسلام ، فانانراه من جهة اخرى يتجنب الاطراء غير المجدي ويتمسك دائما بنزاهة في الرأي تستحق كل اجلال ، ولا سيما اذا كانت من مؤرخ » .

ويقول ايضا : « يذكر دون مواربة ولكن دون مبالغة

ايضا ضروب القسوة الشنيعة التي ارتكبها هذا الشعب (المغولي) وتخريب اعظم المدن واكثرها ازدهارا وتذبيح السكان العديدين دون قلق او ندم ، كما يصور بهدوء وتحفظ ضروب التجديف التي قاموا بها في مساجد بخارى وغيرها من المدن ، حيث مزقوا المصاحف والقوا بها ارضا وصنعوا من اغلفتها الثمينة مذاود لخيلهم » .

تاريخ هولاكو

عندما نراجع كتاب تاريخ هولاكو ونتجاوز ما فيه من ذكر المذابح والاهوال التي رافقت هولاكو ومشت معه في كل خطوة خطاها مما نص عليه رشيد الدين نصا واضحا، وعندما نقف عند محاولة المغول غزو مصر ، وتصميم الملك المظفر سيف الدين قطز على المقاومة والقتال وما انتهى اليه الامر بعد ذلك من الظفر .

نرى ان هذا القسم قد حوى من الحقائق واوضح من الخوافي ما لم يكن ممكنا الوصول اليه في غير هذا الكتاب . لقد ابرز لنا مثلا مقدمات معركة عين جالوت والاحداث التي ادت الى تلك المعركة ابرازا لا نجد له مثيلا في غيره . وحين نريد الاعتزاز بما جرى لا نجد امامنا ما يمدنا بمثل ما امدنا به رشيد الدين في كتابه .

وعندما يصف المؤتمر العسكري الذي عقده وترأسه الملك المظفر سيف الدين قطز ، فانه يذكر كل الكلمات والجمل التي وصفت هولاكو بما هو فيه والتي صورته سفاكا غادرا لا يرعى الا ولا ذمة ولا يحفظ عهدا ولا امانا .

انه يذكر مثلا عن لسان ناصر الدين قيمري من كبار اعضاء المؤتمر قوله عن هولاكو : « لا يتورع عن احتزاز الرؤوس . وهو لا يفي بعهده وميثاقه » .

ويذكر عن لسان سيف الدين قطز قوله واصفا ما جرى في البلاد التي مر بها هولاكو : « ان كافة بلاد ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع ، واضحت البلاد من بغداد حتى الروم خرابا يبابا ، وقضي على جميع ما فيها من حرث ونسل » .

حقائق اخرى

من الحقائق التي عرفناها في كتاب (جامع التواريخ) حقائق مذهلة حقا . فلم يكن يدور في خلدنا ان المحرضين للمغول على غزو المسلمين هم بعض المسلمين . وان قاضي القضاة شمس الدين القزويني كان هو المحرض والمصر على التحريض والثابت عليه . فان هذا القاضي او قاضي القضاة هذا كان لا يحتمل وجود الاسماعيليين في قلاعهم المنيعة التي ارتدت عنها جحافل جنكيز ، فكان لا يفتأ يتوسل الى منكوخان بمختلف الوسائل المثيرة ليحمله على توجيه هولاكو لمباشرة الغزو والتقدم الى القلاع الاسماعيلية .

ولقد سار هولاكو وشعار حملته القضاء على الاسماعيليين الذين كان يسميهم الملاحدة . ويحدثنا رشيد الدين عن ذلك قائلا عن هولاكو : « ثم ارسل عدة رسل الى الملوك والسلاطين في ايران تشتمل على تلك

العبارات : « بناء على امر القاآن نذ عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وازعاج تلك الطائفة ... » ..

تدابيــر ابن العلقمــي

ويعرض لنا رشيد الدين التدابير المحكمة التي كان يعدها ابن العلقمي لدفع عادية المغول وكيف كان يفسدها الدوادار الصغير مجاهد الدين ، كما يحدثنا عما يشبه المؤتمر الذي عقده من يسميهم امراء بغداد وعظماؤها في منزل ابن العلقمي الذين كان منهم سليمان شاه والذي اضطر على حضوره ــ على ما يبدو ــ الدوادار نفسه وكيف حمل الحاضرون على ضعف الخليفة مستشعرين الخطر الداهم . وكيف قام ابن العلقمي بعد ذلك باعداد الجندوعرضهم وكيف كان نقص المال يحول دون اكمال الاعداد وكيف ان الخليفة رفض مد الجند بالمال مما افسد خطط الوزير ..

ثم يشير رشيد الدين الى حقيقة اتهام ابن العلقمي قائلا :

« ولما كان الدوادار ــ في تلك الفترة ــ خصما للوزير فان اتباعه من سفلة المدينة واوباشها كانوا يذيعون بين الناس ان الوزير متفق مع هولاكوخان » .

كما يشير الى ان سليمان شاه حين احضر بين يدي هولاكو واستجوبه هولاكو متسائلا كيف لم يشر على الخليفة بما فيه الرأي ، وان سليمان شاه اجابه بان الخليفة لم يستمع لنصح الناصحين .

حقـــائق وحقائـــق

ومما يثير النفس اســـى ان المستعصم الذي رفض ان يجود بالمال لاعداد الجيش وتنظيمه كمـــا اراد ابن العلقمي، يضطـــر بعد ان دخل المغول بغداد لان يكشف لهولاكو عـــن حوض مملوء بالذهب في ساحة القصر ، فحفروا الارض حتـــى وجدوه وكان مليئا بالذهب الاحمـــر وكله سبائك تزن الواحدة مائة مثقال ، كمـــا يروي رشيد الديـــن .

ثم يقول : وقصارى القول ان كل ما كان الخلفاء قـــد جمعوه خلال خمسة قرون وضعه المغول بعضه علـــى بعض فكان كجبل علـــى جبـــل .

بعـــد فـــوات الاوان

وبعد فوات الاوان يدرك المستعصم ان ما قد أشار به ابـــن العلقمـــي كان هو الصواب وانه لو عمل بآرائه لمـــا وصل الحال الـــى ما وصل اليه ..

ولما استدعاه هولاكو عاد يستشير ابن العلقمـــي قائلا له : ما حيلتنا ؟.. فقال ابـــن العلقمي : « لحيتنا طويلة » . وكان مراده من ذلك ـــ كمـــا نص رشيد الدين ـــ : (انه عندما فكر اول الامر في ان ترسل احمال وفيرة لدفع هذا البلاء ، قال الدوادار : « لحية الوزير طويلة » وحال دون الاخذ بهذا الرأي واستمع الخليفـــة لكلامه واهمل تدبير الوزير) .

ولا شك ان الامر الان قد خرج عـــن كل تدبير ورأي .

ومن صراحة رشيد الديـــن استعماله كلمة الشهـــادة

لمن يقتله المغول كما قال عن تاج الدين بن صلايا الاربلي : « ... وعند محاكمته ثبت جرمه واستشهد » .

كذلك يشير الى ما بلغ اليه الملوك من الهلع الذي حملهم على الاستخذاء استخذاء مزريا : فهو مثلا يحدثنا عن السلطان عز الدين صاحب الروم ، انه عندما فتحت بغداد أمر بصنع حذاء ملكي في غاية الجودة ونقشت صورته على نعل ذلك الحذاء ثم قدمه لهولاكو اثناء معاتبته اياه . وعندما وقع نظر هولاكو على تلك الصورة قبل عز الدين الارض وقال : (ان املي هو ان يشرف الملك رأس هذا العبد بوضع قدمه المباركة عليها) .

مجلدات الكتاب

يشتمل كتاب جامع التواريخ على اربعة مجلدات : الاول : يتعلق بتاريخ المغول المشتمل على تاريخ القبائل التركية المغولية واجداد جنكيز ، ثم جنكيز نفسه ومن بعده خلفاؤه حتى غازان . والثاني : يتعلق بتاريخ الفرس قبل الاسلام ، ثم التاريخ الاسلامي الى سقوط بغداد ، ثم الامم التي اتصل بها المغول في فتوحاتهم ، والثالث: يشتمل على ابعد عصور التاريخ حتى اخر خلفاء بني العباس . والرابع : يشتمل على تفصيل حدود الاقاليم السبعة وولايات ممالك العالم .

على ان كاترمير يقول : لدينا الجزء الاول من كتاب رشيد الدين وهو الجزء الخاص بتاريخ المغول . وانه الكتاب الوحيد الذي نستطيع العثور فيه على اصدق

المعلومات عن حياة جنكيز خان وخلفائه وعن عهودهم .

ثم يتساءل كاترمير : هل الاجزاء الثلاثة الاخرى قد ضاعت دون امل في العثور عليها ؟ وكان في نية كاترمير تحقيق اكثر ما يمكنه تحقيقه من المجلد الاول ولكنه لم يستطع تحقيق سوى القسم الخاص بهولاكو ونشره بالفرنسية مع مقدمة نفيسة طويلة سنة ١٨٣٦ .

ويقول يحيى الخشاب : ان حديث كاترمير عن (جامع التواريخ) قديم ، وقد جد الكثير عنه سواء من ناحية اكتشاف اجزاء منه لم تكن قد عثر عليها ايام كاترمير او من ناحية النشر .

ومن امثلة ذلك الطبعة التي صدرت سنة ١٨٥٨ وهي قسم من الجزء الاول متعلق باجداد جنكيز وتاريخ جنكيز نفسه . وكان اخراج آخر جزء من هذا البحث سنة ١٨٨٨ باللغة الفارسية مع الترجمة الروسية وقد اخرج هذه الاجزاء المستشرق الروسي (برزين) .

كما صدر بعد ذلك ابتداء من اوائل هذا القرن اكثر من قسم من المجلد الاول كهذا الذي نشره المستشرق الفرنسي (بلوشيه) سنة ١٩١١ والذي نشر في ايران سنة ١٩٣٧ والذي نشره المستشرق التشكسلوفاكي (كارل) سنة ١٩٤٠ وكذلك سنة ١٩٤١ .

وهكذا يمكن القول ان المجلد الاول من جامع التواريخ قد نشر كله . كما نشر كارل يان سنة ١٩٥١ القسم المتعلق بالفرنج من المجلد الثاني .

في اللغـــة العربيـــة

كان عبد الوهاب عزام اول من دعا في العرب لنـــشر (جامع التواريخ) وترجمته والقـــى عام ١٩٤٧ محاضرة في الجمعية الجغرافية عن رشيد الـــدين تحـــدث فيهـــا عـــن كتابه وضرورة القيام بنشر القسم العربـــي منه وترجمة بقيـــة الاجزاء الـــى اللغـــة العربيـــة .

ثم مضت عهود وعهود فكان ان قررت ادارة الثقافـــة والارشاد القومي في مصر ان تقوم بنشر هذا التاريخ . ولكننا لا نعلـــم انه صدر في اللغـــة العربيـــة غير قسم مـــن المجلد الثانـــيـــ الجزء الاول وهو (تاريخ هولاكو) . نقله الـــى اللغـــة العربيـــة كل مـــن محمـــد صادق نشأت ومحمـــد موســـى هنداوي وفؤاد عبد المعطـــي الصياد ، وراجعـــه وقدم له يحيـــى الخشاب ، وطبع سنة ١٩٦٠ .

كمـــا نشرت مع هذا القسم السيرة الطويلة النفيسة لرشيـــد الديـــن التـــي كتبها المستشرق الفرنســـي كاترمير والتـــي ترجمها محمـــد القصاص .

وكذلك نشر الجزء الثانـــي من المجلد الثانـــي ..

ووعد يحـــيى الخشاب في آخر مقدمته بنشر مـــا ينجز من الكتاب اولا بأول . ولا نعلم بعد هل تحقق شـــيء من هذا الوعد ام لا.

حرص رشيد الدين على حفظ مؤلفاتـــه

كـــان رشيد الديـــن حريصا علـــى ان تصل مؤلفاته لا

سيمـــا جامع التواريخ الـــى الاجيال الآتية . وقد كـــان يعلم ما كان يمكـــن ان يكـــون عليه ، او ما كان عليـــه مصير كثير من الكتب حيـــن لا يكون في ايدي الناس منها الا نســـخ محدودة تذهب بها ايدي الحدثان لا سيمـــا في العصور التي تكـــثر فيها الفتـــن وتعم الفوضـــى .

لذلك حرص اشد الحرص علـــى ان يتخذ طريقـــة يكتب لمؤلفاته معهـــا الوصول من جيل الـــى جيل ، فاستكتب عدة نسخ من كتبه مفردة ومجمعة ، بالفارسية وبالعربية . كمـــا استكتب مجلدا ضخمـــا ضم كل مؤلفاته بالفارسيـــة والعربيـــة زيادة منه في الحرص علـــى حفظها . واودع ذلك في البناء الكبير الذي شاده في الربع الرشيدي ليكـــون مدفنـــا له . ثم توسع في الاحتياط فوقف قسمـــا من ثروته لكتابـــة نسخـــة بالفارسيـــة ونسخة بالعربيـــة في كل عـــام من مجمـــوعة مؤلفاته كلها لترسل الى مدينة من مدن الاسلام الكبـــرى وتوقف على اهل تلك المدينة ، وكتب في ذلك وصية جميلة طريفة مؤثـــرة .

ولكـــن كل ذلك الحذر لم يفد وضاع ما ضاع مـــن مؤلفاته ووجد ما وجد شأنه شأن كل المؤلفيـــن في تلـــك العهـــود .

ولعل هذا الحرص هو الذي اوصل الينا ما وصل ، ولولاه لضاع الجميـــع ، وقد كان مطمئنا الـــى بناء الـــربع الرشيدي الذي حفظ فيه كتبه ، ولكن الربع كله نهب بعد نكبته واحتـــرقت مكتبتـــه كمـــا قلنـــا .

مـن مـلامح الدولة الفاطمية

يقول الدكتور حسـن ابراهيم حسـن من عمـداء جامعة القاهرة واساتذة التاريخ السابقين فيها وهو يتحدث عـن كتاب (المجالس والمسايرات) للنعمان بـن محمـد : (وعرض النعمـان غير مرة لعلاقة المعز (الفاطمـي) بالدولة البيزنطيـة فاوضح إعتمـاد حاكم الاندلس عبد الرحمـن الناصر الاموي علـى الروم في صراعـه مـع الفاطميين وصور ما حل بالروم وحلفائهم امام اساطيل المعز تصويرا رائعا وذكـر الرسائل التـي بعث بها اباطرة الدولة البيزنطيـة لاستدرار عطف المعز ومهادنته ولاول مرة نسمع ان مسلمـي جزيرة قريطش (كريت) الذين كانوا تحت الحكم العباسـي يطلبون النجدة من المعز (الفاطمي) لحرب الروم ومن دراستنا للوثائق التـي تبودلت بيـن اهل قريطش وبيـن المعز لديـن الله نرى ما وصلت اليـه الدولة الفاطميـة من قوة ونفوذ » .

ويقول الدكتور محمـد كامل حسيـن من اساتـذة جامعـة القاهرة :

فالقاهرة الفاطميـة اصبحت مطمـح انظار العلمـاء ومحط رحال الطلاب وفي العصر الفاطمـي استطاعت مصر ان تنتزع زعامة العالم الاسلامـي في الحيـاة العلمية .

ويقول ايضا : وكان الفاطميون يهتمون بالدراسة الفلسفية في الوقت الذي كان فيه غيرهم في البلاد الاخرى يرمون من يشتغل بالفلسفة بالزندقة والالحاد .

ويقول ايضا : وقد كان الخلفاء الفاطميون يقربون العلماء ويشجعون الطلاب وقد اوقفوا ارزاقا ثابتة للمشتغلين بالعلم حتى يتهيأ لهم التفرغ لما اهلوا انفسهم له .

ويقول ايضا : وتسامح الفاطميون مع العلماء الذين لم يعتنقوا مذهبهم ويقول ايضا : ومهما يكن من شيء فقد كانت هذه الحركة العقلية في مصر الفاطمية في نمو مطرد في كل نواحيها وفنونها ، وتعددت مراكزها في مصر ، وكانت حلقات الدرس في المساجد او الدور في القاهرة والفسطاط وفي الاسكندرية وتنيس في الشمال وفي اسوان وقوص في الجنوب ، كما كان امراء الاقاليم يجمعون حولهم العلماء والشعراء وعن مصر الفاطمية اخذ كثير من العلماء في الشرق والغرب .

ويقول الدكتور مصطفى مشرفة : انه كان للمالكية في الازهر الفاطمي خمس عشرة حلقة وللشافعية مثلها ولاصحاب ابي حنيفة ثلاث حلقات ويقول الدكتور محمد كامل حسين عن الحاكم بامر الله بالذات : والحاكم بامر الله لما امر بعمارة دار العلم ونقل اليها الكتب من القصر اسكنها من شيوخ السنة شيخين احدهما ابو بكر الانطاكي وخلع عليهما وقربهما .

الوحدة بعد التجزئة

هذه الصور المشرقة التي جلاها لنا فريق من

الباحثين عن الدولة الفاطمية هي في الحقيقة نقاط من بحر الواقع الذي كانت عليه تلك الدولة ، وما بلغته في الميادين النضالية والفكرية والعلمية ، وسنحاول هنا عرض ما يسمح به مقال محدود السطور مقيد المكان .

كلمة الدكتور حسن ابراهيم حسن تشير اشارة خاطفة الى امور خطيرة في حياة هذه الدولة منها انها كانت ضرورة من ضرورات العالم الاسلامي في ذلك الحين الذي تمزقت فيه قوى المسلمين وتفرقت كلمتهم وتلاشت دولتهم واصبحوا يتطلعون الى الحمى الذي يمكن ان يلجأوا اليه من الخطر الداهم المهدد لوجودهم بتزايد قوى الروم واصرارهم على غزو الاسلام في دياره واسترداد ما اخذه منهم والثأر للماضي البعيد حتى ان نقفور فوقاس لم يكن يخفي مطامعه الهوجاء في الزحف الى الحجاز نفسه والوصول الى مكة والمدينة .

في هذا البحران الرهيب كان المنقذ منه نشوء دولة فتية وزعامة قوية تجمع حولها ما تشتت من القوى وتوحد ما تفرق من البلاد فكانت الدولة الفاطمية هي المنقذ فجمعت الشمال الافريقي في كيان واحد وقيادة واحدة وقضت على التجزئة في وحدة متماسكة جعلته دولة بعدما كان عدة دول متطاحنة متقاتلة .

وليس الشمال الافريقي هينا حين تتجمع قواه وتتوحد كلمته وليست موارده قليلة حين يقدر لها قيادة حكيمة حازمة .

في مواجهة الاخطــار

وهكذا رأينا تلك الدولة الفتيـــة ترتفع من بين الزعازع، وتقوم شديدة لتواجه الخطر الداهم بعد ان اخذت اطــراف البــلاد الاسلامية تنتقص واحدة بعد الاخرى مما عبـــر عنه شاعر ذاك العصر ابن هاني الاندلسي عند قوله :

فمدينة مـــن بعد اخـــرى تستبـــى
وطريقة من بعـــد اخرى تقتفـــى
حتـــى لقـــد رجفت ديـــار ربيعـــة
وتزلزلت ارض العراق تخوفـــــا
والشام قد اودى واودى اهلـــه
الا قليـــلا والحجـــاز علـــى شفا

وقد كان تعبير هذا الشاعر تعبيرا واضحا يعطـــي الصورة الحقيقيـــة للوضع الاسلامـــي في تلك الايام ، ويبين بجـــلاء حالة الدنيا العربيـــة وما كانت فيه ، وهو من الشعر الواقعـــي النادر الذي يرسم الحقيقة الوطنيةعلـــى اصدق حـــالتهـــا . . .

الشام قد اودى الا قليلا ، والحجاز على شفا ، اما بقية الاقطار كديار ربيعة والعراق وغيرها فاذا كانت بعيدة عـــن الخطـــر الان ، وهو غير مساور لها مباشرة فقد كانت راجفة متزلزلة حزنا علـــى ما جرى وخوفا مما سيأتي ، وهـــذا لعمـــري من افضل ما يمكـــن ان يعبر عنه شعر الامم في مآسيها ونوازلها .

ثم ينطق الشاعـــر بلسان العالم الاسلامـــي معبـــرا عـــن الامل العظيم بالدولة الجديدة :

لا تيأسوا! فالله منجـز وعــــده
قد آن للظلمــاء ان تتكشفـــا

التصدي للعـــدو

ولنقف قليـــلا لنرى ما هـــي حقيقة الحال الذي يصوره الشــاعــر :

يقول الدكتور محمد جمــال الدين سرور استاذ التاريخ الاسلامـــي في جامعة القاهرة : « اتجهت سياسة الفاطميين بعد ان امتد نفوذهم الـــى مصر في عهد المعز لديـــن اللــــه الفاطمـــي سنـــة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) الـــى استعادة المـــدن التـــي استولـــى عليها البيزنطيـــون في شمال الشام » .

وهكذا نـــرى ان الوحدة لم تقتصر علـــى الشمـــال الافريقـــي وحده بل تعدتـــه الـــى بلاد اخرى ، تعدته الـــى مصر نفسها ثم تعدت مصر الـــى فلسطين وسورية ولبنـــان وكذلك الـــى الجزيرة العربيـــة وحيـــن يلتقـــي الشمـــال الافريقي في وحدة مع مصر والشام وغيرهما وحين تتولى مصر بكل امكانياتها وكفاءاتها زمام هذه الوحدة الكبرى يكون الامـــر بعثا اسلاميا شاملا ووثوبا عربيا كاسحا ، وهكذا اصبحـــت الدولة الجديدة ذات كيـــان خطير قضـــى علـــى الدويلات وجمع الشمل في اطار يشدها شدا لتواجه الاحداث الرهيبة ، وكان في اولها حفظ بلاد الشام واسترداد ما تساقط منها في ايدي الروم الذين وصلوا في احدى نوباتهم في عهد الامبراطور حنـــا زيمسكيس سنة ٩٧٥ الـــى حمص وبعلبك واضطرت دمشق نفسها الـــى التسليم ودفع الجزية لهم ثم ســـــاروا

فاستولوا علـــى بعض مدن الساحل مثل صيدا وبيروت .
(فالشام قد اودى الا قليلا) كما قال الشاعر .
وظل الروم يتقدمون وظلت الاستعدادات الفاطميـــــة تتوالـــى لانقاذ الشام حتـــى اصطدمت بالروم في طرابـــلس الشـــام برا وبحرا فاوقعت الهزيمة بهم فارتدت قواهم الـــى انطاكيـــــة ..

الاسطول العظيـــم

وقد كان للاسطول الفاطمـــي الشأن العظيـــم في دفع عادية الروم والافرنج ولقد كان الفاطميـــون بعيدي النظـــر حيـــن ادركـــوا ان الجيوش البرية وحدها لا تكفـــي لحماية العالم الاسلامـــي وانقاذ الوطـــن العربي فأنشأوا اسطولا ضخـــما حمـــى البلاد من الهجمـــات البيزنطيـــة ثم دافـــع عنهـــا بعد ذلك في الحروب الصليبيـــة .
وفي هذا الاسطول يقول بعض المؤرخيـــن : « بلغ عدد ربـــابنـــة اسطول الفاطميين خلال القـــرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) خمسة الاف ربان وعدد ســـفنه مائتـــي سفينة واضطـــر الافرنج الى الانحياز بمراكبهم الـــى الجانب الشـــمالـــي الشرقـــي من البحـــر المتوسط لا يبرحونه لان هذا البحـــر يسيطـــر عليـــه الاسطول الفاطمـــي من مضيق جبل طارق حتـــى بيروت » .

ظلم ذوي القـــربـــى

ولقد كان من افجع ما عاناه الفاطميـــون ان غيرهم

كان يستعين عليهم بالاجنبي الفاتح فبينما كانوا يناضلون لحماية البلاد ورد الافرنج والروم عنها كان حكام الاندلس يحرضون عليهم الروم ويستعينون عليهم بهم ، وكان امير حلب يستنجد بباسيل الثاني امبراطور الروم سنة ٣٨١ ولكن القوات الفاطمية تصمد للروم وتلتقي بهم على نهر العاصي فتهزمهم ، وكذلك يثير عليهم (علاّقة)ثورة في صور ثم تكون فاتحة اعماله الاستنجاد بالروم وبالامبراطور باسيل الثاني ، ولكن الحركة تنتهي بهزيمة البيزنطيين وحليفهم علاقة .

والامير حسان بن مفرج بن الجراح الطائي صاحب الرملة في فلسطين يستنصر بالبيزنطيين ويستعديهم على اهله هو الآخر .

بل ان فقيها من الفقهاء وحافظا من الحفاظ يبدو انه من الرملةنفسها هو الحافظ محمد بن احمد بن سهل الرملي(١) يقول : « لو كان معي عشرة اسهم لرميت الروم بسهم ورميت المغاربة(٢) بتسعة » وقد عمل اميره حسان بن مفرج بهذه الفتوى فاستنجد بالروم ولكنه زاد على الفتوى فالقى بسهامه العشرة كلها على الفاطميين ولم يلق ولا بسهم واحد على الروم بل اضاف سهامه الى سهامهم فسلطوها مجتمعة على (افامية) فغنموا منها مغانم كثيرة واستولوا على قلعتها واسروا كثيرا من اهلها .

١ — يسميه بعض المؤرخين باسم آخر .
٢ — اي الفاطميين .

الجبهـــة الغـــربيـــة

وقد كان الفاطميون مضطرين لان يحاربوا علــى ثلاث جبهات هـــي الجبهـــة الشرقيـــة جبهة بلاد الشام لدفع الروم عنها والجبهة الداخلية ليتقوا دسائس بنـــي جنسهـــــم ، والجبهة الغربيـــة جبهة اوروبا التي كانت قد استغلت ضعف القوى الاسلاميـــة وتمزقها الـــى دويلات فاخذت تهاجم البلاد بلدا بعد بلد فراحت هذه البلاد تستنجد بالفاطميين كمـــــا رأينا فيـــما فعلتـــه جزيرة كـــريت .

وكانت اوربا تحاول ضرب الدولة الجديدة قبل ان يستد ساعدها ويعلو امرها فهاجمتها في مواقعها الاوروبية لتقضي عليـــها فيهـــا ولكـــن الفاطميين صمدوا لاوروبا في بلادهـــا كمـــا صمدوا لها في بلاد الشام وغير بلاد الشام ويحدثنـــا ابـــن الاثير عـــن واحدة من المعارك الرهيبة التـــي خاضها الفاطميـــون في سبيل صون الوطن الاسلامـــي سنة ٣٥٤ وذلك قبل امتداد دولتهم الـــى مصر ، ولما كانت هذه المعركة من اروع الصفحات في تاريخنـــا العسكري فأننا ننقل وصفها بنصه من ابـــن الاثير :

« ... ذلك ان احمـــد بـــن الحسن والـــي المعـــز علـــى صقليـــة ارسل يستمـــده فبعث اليه المعز المـــدد بالعساكـــر والاموال مع ابيه الحسن وجاء مدد الـــروم فنزلوا عبـــر سهل (مسينـــي) وزحفوا الـــى رمطة ومقدم الجيش الفاطمـــي الحســـن بـــن عمار وابـــن اخـــي الحســـن بـــن علـــي .

فاحاط الروم بهم وعظم الامر علـــى المسلميـــن

فاستماتوا وحملوا على الروم وعقروا فرس قائدهم منويل فسقط عن فرسه فقتل هو وجماعة من البطارقة معه وانهزم الروم وتتبعهم المسلمون بالقتل وامتلأت ايديهم بالغنائم والاسرى ، ثم فتحوا مدينة رمطة عنوة وغنموا ما فيها وركب فل الروم من صقلية وجزيرة (ريو) في الاساطيل ناجين بانفسهم فاتبعهم الامير احمد واصحابه في الماء واحرقوا كثيرا من المراكب التي للروم فغرقت وكثر القتل في الروم فانهزموا لا يلوي احد على احد) .

وكما كانت هذه الواقعة صفحة رائعة في تاريخنا الحربي ونضالنا في البر والبحر فكذلك كانت في تاريخنا الادبي حيث خلدها الشاعر محمد بن هاني الاندلسي بقصيدة فريدة يخاطب بها الخليفة الفاطمي المعز لدين الله تعد من اسمى ما في تراثنا الشعري من روائع الكفاح البطولي يقول ابن هاني في مطلعها :

يوم عريض في الفخار طويل
لا تنقضي غرر له وحجول

وكانت لهذه المعركة نتائجها الحاسمة لاعلى الجبهة الغربية وحدها بل حتى على الجبهة الشرقية نفسها والى ذلك يشير الشاعر :

مسحت ثغور الشام ادمعها به
ولقد تبل الترب وهي همول

وتبدو حماسة العالم الاسلامي لنتائج هذه المعركة واعتزازه بها واطمئنانه بعدها مصورا بقلم الشاعر :

وجلا ظلام الديـــن والدنيا بـــه
ملك لما قال الكـــرام فعـــول
متكشف عـــن عزمـــه علويـــة
للكفـــر منها رنـــة وعويـــل
فلو ان سفنـــا لم تحمل جيشـــه
حملت عزائمه صبـــا وقبـــول
يجلو البشير ضياء بشر خليفـــة
ماء الهدى في صفحتيه يجـــول
لله عينـــا من رأى اخباتـــه
لما اتـــاه بريدهـــا الاجفيـــل
وسجوده حتـــى التقـــى عفر الثرى
وجبيـــنه والنظـــم والاكليـــل
لو ابصرنـــك الروم يومئذ درت
ان الالهبمـــاتشـــاء كفيـــل
ان التـــي رام (الدمستق) حربها
لله فيـــهاصـــارم مسلـــول
نامت ملوك في الحشايا وانثنت
كسلـــى وطرفك بالسهاد كحيـــل
تلهيـــك صلصلة العوالي كلمـــا
الهت اولـــئك قيـــنة وشمـــول

الفاطمـــيون والعلـــم

وفيمـــا قاله الدكتور محمـــد كامل حسين يتضح لنا الجانب الاخر من الصورة الفاطميـــة ، فاذا كان الفاطميون

قد اقاموا الوحدة بعد التجزئة وانشأوا الجيش الضخم والاسطول الفخم فحموا بذلك العالم الاسلامي من اكبر كارثة كانت ستحل به ، فانهم الى جانب ذلك قد وضعوا منذ الساعة الاولى لحكمهم خطة هي ان يقوم هذا الحكم على قواعد ثابتة من العلم والمعرفة ، وخططوا كما نقول اليوم لسياسة تعليمية شاملة ترتكز على انشاء جامعة كبرى ثم على تفريغ العلماء للعلم وحده فلا يشغلهم شاغل العيش عن الانصراف الى العلم ولا يليهم الفقر عن التوسع في البحث والدرس فجعلوا لهم موارد من الرزق تضمن لهم العيش الكريم ثم ارسلوا يستدعون العلماء من الخارج . وقد اشتد هذا المنهج واتسع وقوي بعد اقامة الوحدة بضم البلاد الاخرى الى مصر وانشاء القاهرة واقامة الازهر وقد تم ذلك على الشكل الاتي :

١ ــ خصصوا لكل مذهب من المذاهب الاسلامية في جامعتهم الكبرى الازهر كرسيا لتدريس ذلك المذهب وقد كان عدد الطلاب يتفق مع انتشار ذلك المذهب في مصر والبلاد القريبة منها ، وقد عرفنا من عدد الحلقات التي كان ينضم اليها الطلاب مقدار انتشار كل مذهب من تلك المذاهب وعندما يكون عدد حلقات المالكية خمس عشرة حلقة ومثلها عدد حلقات الشافعية ، وعندما تكون الحلقات الحنفية لا تتجاوز الثلاث ، وعندما نفتقد الحلقات الحنبلية فمعنى ذلك انه كان للمذهبين المالكي والشافعي الاغلبية يليهما بفارق كبير المذهب الحنفي وان المذهب الحنبلي لم يكن له وجود .

وكذلك كان للمذهب الجعفري حلقاته ولكننا لم نستطع معرفة العدد في أقوال المؤرخين .

٢ ـ كان العلماء في البلاد الخارجة عن النفوذ الفاطمي يعانون محنة الفقر وكانت حياتهم مأساة مفجعة فارسل الفاطميون يستدعونهم اليهم ويضمنون لهم العيش الكريم ، وكأمثلة لما كان يجري نورد اسماء محدودة من كل عصر اذ ليس من المستطاع الالمام باسماء الجميع . والذي يدعو الى الاعجاب بالفاطميين ان جميع العلماء الذين استدعوهم او وفدوا اليهم ووفروا لهم التفرغ للعلم كانوا على غير مذهب الفاطميين .

فمن تلك الاسماء اسم عبد السلام القزويني شيخ المعتزلة الذي وفد الى مصر فاقام فيها اربعين سنة يلقي تعاليم مذهبه . ومنها اسم القاضي ابو الفضل محمد البغدادي امام الشافعية الذي وفد هو الاخر الى مصر واخذ يملي من مذهبه ما شاء الله ان يملي حتى مات سنة ٤٤١ .

وكذلك ابو الفتح سلطان بن ابراهيم الفلسطيني (٥١٨) وابو الحجاج يوسف الميروقي (٥٢٣) ومجلي بن جميع المخزومي (٥٥٠) والقاضي علي الموصلي الخلعي (٤٤٨) وابو محمد عبدالله السعدي (٥٦١) . وهؤلاء كانوا ممن ولي القضاء للفاطميين على أنهم شافعيو المذهب . ومن فقهاء المالكية عرفت مصر الفاطمية امثال محمد بن سليمان المعروف بابي بكر النعال الذي كانت اليه الرحلة في مصر ،

وكانت حلقته في الازهر تدور على سبعة عشر عمودا لكثــرة الطــلاب الذيــن كانوا يقصدونه .

وهناك قصة الفقيــه المالكي عبد الوهاب بن علي احد الائمة المجتهدين في المذهب ، والذي وصفه الخطيب في تاريخ بغداد بانه لم ير في المالكية افقه منه لقد ضاقت به دنيا العرب والاسلام فكاد يموت من الجوع في بغداد فلم يجد الا مصر الفاطمية يحتمــي بها فلما جاءها تدفق عليــه المال وامروه بالانصراف الى علمه وبحثه ولكن الامر لم يطل فاصيب بالفالج فقال : « لا اله الا الله ، عندما عشنا متنا ، (٤٢٢) وعبد الجليل مخلوف الصقلي (٥٤٩) وابو بكر الطرطوشي (٥٢٥) وغــــيرهـــم .

وقد حرصنا على ان نختار واحدا من كل فترة تاريخية لنبيــن ان الامر قد استمر ولم ينقطع .

ومن اشهر العلماء الذين لجأوا الى مصر في عهد الحاكم بأمر الله ابو الفضل جعفــر وكان مكفوفا فاعجب به الحاكم وخلع عليــه ولقبه عالم العلماء .

علــى اننا ونحــن نشير الــى بعض العلماء الذيـــن احتضنتهم مصر الفاطمية فان اشهر واحد منهم هو ابن الهيثم الذي استدعاه الحاكم بامر الله وخرج لاستقباله بنفسه .

وكان الحاكم يأمر باحضار جماعة من المتخصصين في كل علم بعضهم من اهل الحساب والمنطق ، والفقهـــاء والاطبــاء للمذاكرة بيــن يديه ، فكانت تحضر كل طائفة على انفراد ثم يخــلع الحاكـــم على الجميع ويصلـــهم

ومن ابلغ ما قيل في هذا الشأن ما قاله ابــن ابــي اصيبعه : « انه لما وصل المهذب ــ وكان فاضلا في صناعــة الطب ــ الــى الشام من بغداد اقام بدمشق مدة ولم يحصل له بها ما يقوم بكفايته وسمع بالديار المصرية وانعــام الخلفاء فيها وكرمهم واحسانهم الــى من يقصدهم ولا سيمــا ارباب العلم والفضل فتوجه الــى مصر فوهبت له الاموال واقام فيهــا مكــرمــا ».

المكتبـــــات

لقد تفرد الفاطميــون بانشاء دور الكتب الكبرى في الاسلام وبلغت تلك الدور حدا عجيبا واجتمع فيها مــا يثير اليوم دهشتنا . ويكفــي ان مكتبة القصر مثلا كانت تضم ستمــائة الف والف وكتاب (٦٠١٠٠٠) ولتسهيل المطالعــة علــى المراجعيــن كانوا يقتنون من امهات الكتب الكبــرى التــي تكثر حاجة الناس اليهــا كانوا يقتنعون منها عشرات النسخ ، فقد كان يوجد من تاريخ الطبــري وحده الــف ومائتا نسخــة منها نسخة بخط ابــن جرير نفسه ومــن كتاب العيــن نيفا وثلاثيــن نسخة منها نسخة بخط الخليل الــى غير ذلك من هذا واشباهه .

وقد توسع الحاكم بامر الله بشأن دور الكتب العامة وحرص علــى تسهيل وصول جميــع طبقات الشعب اليها ، فقد قال المسبحــي وهو يتحدث عــن مكتبات القصر ان بعضها كان في خزائن القصر (البرانية) ، ويرى الدكتور محمد كامل حسيــن ان هذه الخزائن (البرانية) هــي التــي

انشأها الحاكم سنة ٣٩٥ وسماها دار العلم وحمل اليها من خزائن القصر من سائر العلوم والاداب ما لم ير مثله قط مجتمعا لاحد من الملوك وقد اباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم .

اشرف خاتمة

ادرك الدولة الفاطمية ما يدرك غيرها من الدول في ايامها الاخيرة فشاخت وضعفت واستنفدت معظم قواها في مقارعة الصليبيين برا وبحرا وفي اخماد الفتن .

وفي العام ٥٦٤ بدا ان تهديدا صليبيا ربما وصل الى مصر نفسها وذلك في عهد الخليفة العاضد آخر الخلفاء . وقد ايقن العاضد ان لا قبل له بمقاومة الصليبيين وان جيوشه في وضع قد لا تستطيع معه الصمود في وجه الزحف الفرنجي ، فلم يتردد لحظة واحدة في ان يضع خلافته وملكه وكل بلاده في ايد غير فاطمية يعرف مطامعها به ويدرك ما تضمره لما يعتقد ويرتأي ولم يتوان عن ان يسلمها كل شيء ما دامت تستطيع المعاونة على دفع الصليبيين عن مصر واقدم على تضحية ليس لها شبيه ولا نظير .

لقد ارسل يستدعي نور الدين محمود ، وهو يعلم ما فعل نور الدين في حلب وغير حلب ، ارسل يستدعيه ليحتل بلاده بمن شاء من قواده وقص شعور نسائه وارسلها مع كتب الاستنجاد قائلا لنور الدين : « هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج » .

وكانت خاتمة الدولة الفاطمية وهي اشرف خاتمة تصنعها دولة من الدول لنفسها بيديها .

ابن هاني الاندلسي

اذا كان المدح قد فرض على الشعر العربي فأصبح الشاعر ولا حيلة له الا صوغ المدائح ليستطيع العيش فقد كانت حظوظ الشعراء في هذا السبيل مختلفة ، مختلفة لان شاعرا قد يوفق لممدوح لا يخجله مدحه لبطولة فيه او سجايا حميدة ، ومما لا يبدو معه الشاعر بادي الكذب ظاهر الدجل واضح الاستجداء ..

كما قد لا يوفق شاعر آخر لمثل هذا الممدوح ، وقد يكون في مجموعه اولى بالذم والتجريح منه بالثناء والمديح . ومع ذلك فالشاعر مسوق الى مدحه مدفوع الى الاشادة به لان الرزق في يديه ، والمال رهن كلمته .

سيف الدولة وكافور وعضد الدولة

على ان حظ الشاعر الواحد قد يختلف بين ممدوح وآخر ، فحظ المتنبي وهو عند سيف الدولة غير حظه وهو عند كافور . واذا كانت قصائد المتنبي في سيف الدولة هي في اصلها مدحا ، فأنها ايضا اعجاب ببطولة البطل العربي الصامد في وجه الغزو الاجنبي ، المكافح عن الحمى الوطني . والمعارك التي شهدها المتنبي مع سيف الدولة جديرة بأن توحي اليه بمثل ما اوحت حتى

ولو لم يكـن المتنبـي يقصد المدح او لو لم يكـن الكسب من غـاياتـه .

والامر مع المتنبـي يجري علـى هذا القياس حتـى وهو يمدح غير كافور ممن لم يكن يزري مدحهم في ذلـك العصر مثلما كان يزري مدح كافور . فالمتنبي وهو يمـدح عضد الدولة كان في موقفغير موقفهوهو يمدح سيف الدولة واذا كان عضد الدولة من الملوك الذيـن لا مغمز فيهم ، وله من المآتـي ما يصح معه ان يكون ممدحا . فهو علـى كل حال ليس في وضع يشبه وضع سيف الدولة وهو لم يكـن الجندي المقاتل للعدو الخارجـي ، ولا وضعته الاحـداث في لهـوات الحرب الوطنية فـما يمكن ان يوحـي به لشاعـر كالمتنبـي يستطيـع اي امير ان يوحـي بمثلـه.

ومن هنا تراجعت قصائد المتنبـي في مدح عضد الدولة عن قصائده في مدح سيـف الدولة وقد كان هذا التراجـع واضحا لكـل ذي حس شعري ، واعترف به المتنبـي نفسـه .

والواقع ان ما كان يهز المتنبـي وهو يشهد معركـة الحدث مثلا مع سيف الدولة فينطقه بهذا القول :

هل الحدث الحمـراء تعرف لونها
وتعرف اي الساقييـن الغمائـم
سقتهـا الغمـام الغر قبل نزوله
فلمـا دنـا منهـا سقتهـا الجماجم
بناها فأعلـى والقنـا يقرع القنـا
وجيـش المنايا حـوله متـلاطـم

وقفت وما في الموت شك لواقف
كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الابطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاح وثغرك باسم
ومن طلب الفتح الجليل فأنما
مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

لم يكن عند عضد الدولة مثله ليهتز له المتنبي ، وبالعكس من ذلك ، عندما مست قلب المتنبي عاطفة جياشة فرأى جمال الطبيعة في شعب بوان ، ثم لم يسمع في تلك المغاني لسانه العربي ، عاد متأثرا لما يرى ويسمع، ففاض الشعر من حنايا نفسه فأبدع ما ابدع .

متنبي المغرب

ومن الشعراء الذين وفقوا لممدوح جدير بمدحهم الشاعر محمد بن هاني الاندلسي شاعر المعز لدين الله الفاطمي الذي اطلق عليه معاصروه لقب (متنبي المغرب) .

وربما كان ما يجعل ابن هاني جديرا بهذا اللقب هو ان مواضيع مدح ابن هاني للمعز ، هي عين مواضيع مدح المتنبي لسيف الدولة . فقد كانت ظروف كلا الممدوحين متشابهة ، وكان كلاهما مندفعا لمقاومة الخطر الخارجي المهدد للبلاد الاسلامية يومذاك بل ان مسؤولية المعز كانت اكبر ، فهو مسؤول عن جبهة طويلة ممتدة على مدى شواطىء افريقيا الشمالية كلها ، ثم هو مسؤول عن

الجزر الاسلامية المهددة وفي طليعتها جزيرة صقلية .

ولم يكن الوضع الاسلامي والوضع العربي يومذاك مما يقوى العزائم ويشحذ الهمم ، بل كان شمل العرب والمسلمين ممزقا واختلافاتهم مشتدة ، لا الهدف يجمعهم ولا الخطر يوحدهم .

وكان الاجنبي الطامع يعرف ذلك كله ، وكانت نار الانتقام متأججة في نفوس البيزنطيين (الروم) الذين لم ينسهم تطاول الايام ذكريات هزائمهم الماضية، وجلائهم عن بلاد الشام وغيرها ، وكانوا يجنون للعودة اليها من جديد ٠ بل ان نقفور فوقاس الثاني كان يهدد بالاستيلاء حتى على المدينة ومكة واستطاع تحقيق الكثير من امانيه وفي ذلك يقول ابن هاني :

اسفي على الاحرار قل حفاظهم
لو كان يجدي الحر ان يتأسفا
يا ويلكم افما لكم من صارخ
الا بثغر ضاع او دين عفا
حتى لقد رجفت ديار ربيعة
وتزلزلت ارض العراق تخوفا
فمدينة من بعد أخرى تستبى
وطريقة من بعد أخرى تقتفى
والشام قد اودى واودى اهله
الا قليلا والحجاز على شفا

وطني مناضل

هذه صرخة وطني مناضل يرى بلاده تتساقط

امام ضربات الاعداء ، ويرى قومه متخاذليـــن ، هذه صرخة وطنـــي مناضل اكثر منها نغمة شاعر مداح .

والواقـــع ان المعز لديـــن الله الفاطمـــي كان في ذلك العهـــد امل العرب والمسلميـــن وكانوا يتطلعون اليه من كل مكان ، حتـــى من الارض البعيدة عنـــه غير الخاضعـــة لسلطانه . فعندما شعرت مثلا جزيرة (كريت) بالخطر الداهم ، ولاحت لها طلائع الغزو مطلة من بعيـــد كان همها ان توصل نداءها الـــى الرجـــل المأمول ، ويحدثنا الدكتور حسن ابراهيم حسن وهـــو يتحدث عـــن كتاب (المجالس والمسايرات) للنعمـــان فيقول : « وعرض النعـــمان غير مرة لعلاقة المعـــز بالدولة البيزنطية فأوضح اعتماد حاكم الاندلس عبد الرحمـــن الناصر الاموي علـــى الروم في صراعه مـــع الفاطميين ، وصور ما حل بالروم وحلفائهمامام اساطيل المعز تصويرا رائعا ،وذكر الرسائل التيبعث بها اباطرة الدولة البيزنطيـــة لاستدرار عطف المعز ومهادنته . ولاول مرة نسمع ان مسلمـــي جزيرة قريطش (كريت) الذي كانوا تحت الحكم العباســـي يطلبون النجـــدة من المعز لحرب الروم . ومن دراستنا للوثائق التـــي تبولدت بيـــن اهل قريطش وبيـــن المعز لديـــن الله نرى ما وصلت اليه الدولة الفاطمية من قوة ونفوذ » .

وابن هاني يدرك ذلك ويدرك ان ممدوحه اهـــل لما علـــق عليه من آمال فيقول :

لا تيأسوا فالله منجـز وعـــده
قـــد آن للظلمـــاء أن تتكشفـــــا

الاسطول العربـــي

لقد كان المعز جديرا بالظرف الحرج الذي وضعته فيه الايام ، فلم يدع الوقت يذهب عبثا وادرك للوهلة الاولـــى انه امام خطـــر بري وآخر بحري قد يكون هو الاشد . لذلك صرف جهده اول ما صرفه الـــى انشاء اسطول ضخم يتناسب مع المهمـــة الثقيلـــة التـــي تنتظـــره وهي حماية الشواطىء الافريقيـــة الشمـــالية من اي غزو متوقع ، وبذل لهـــذا الاسطول اقصـــى ما يستطيـــع بذله حتـــى اصبح اسطوله سيد البحـــر المتوسط ، وحتـــى صار مهددا للاعداء بعد ان كان الاعداء مهدديـــن ، وحتـــى صاروا يخشونه بعد ان كانت البـــلاد تخشاهم .

وقد كان هذا الاسطول اعظم ما يمكن ان يصل اليـــه اسطول في ذلك العصر مجهزا بأحدث الالات الحربية والادوات النارية . فأثار هذا الاسطول حماسة الشاعر ورأى فيـــه المخرج من الاخطار والحماية من النوازل ، وهاج فيه اعتزازه وحميته ، فأنطقه ذلك بقصيدة هـــي بحق مـــن فـــرائـــد الشعـــر العربـــي :

لك البـــر والبحـــر العظيم عبابـــه
فسيان اغـــمار تخاض وبيـــــد
ومـــا راع ملـــك الروم الا اطلاعها
تنشر اعـــلام لهـــــا وبنـــــود

عليهـــا غمــــام مكفهـــر صبـيـره
لـــــه بارقـــات جمـــة ورعــــود
مواخـــر في طامي العبـــاب كـــأنه
لعـــزمـــك بأس او لكفـــك جـــود
انافت بهـــا اعـــلامهـــا وسمـالهـــا
بنـــاء علـــى غـــير العــراء مشيــد

مـــن الراسيات الشم لولا انتقالها
فمنهـــا قنـــان شمـــخ وريـــود
مـــن الطير الا انهن جـــوارح
فليس لها الا النفوس مصيـــد
من القادحات النار تضرم للصلـــى
فليـــس لها يوم اللقاء خمـــود

اذا زفرت غيظا تـــرامت بمـــارج
كمـــا شب من نارالجحيم وقـــود
فأنفاسهـــن الحاميات صواعـــق
وافـــواههـــن الزافرات حديـــد
لهـــا شعـــل فـــوق الغمار كأنهـــا
دمـــاء تلقتهـــا مـــلاحف ســـود
تعانق موج البحـــر حتـــى كأنـــه
سليـــط لها فيه الذبـــال عتيـــد

ثم يصف وصول وفود الروم متذللة تطلب الصلـــح مخاطبا المعز مشيرا الـــى ما كان من تغلغل الروم قبـــل ذلك في بـــلاد الشام :

فلا غرو ان اعززت ديـن محمـد
فانت لـه دون الانـام عقيـد
غضبت له ان ثل في الشام عـرشه
وعادك من ذكر العواصـم عيـد
وقلت اناس ذا (الدمستق) شكره
اذا جاءه بالعفـو مـنك بريـد
تناجيـك عنه الكتب وهـي ضراعة
ويأتيـك عنه القـول وهـو سجود
اذا انكرت فيها التراجـم لفظـه
فادمعـه بيـن السطـور شهود
ليالـي تقفو الرسل رسل خواضع
ويأتيـك من بعد الوفـود وفـود

انتصـارات

ويمضـي الاسطول العربـي في اداء رسالته ، وتجوب قطعـه البحـر المتوسط متحدية كل من تحدثه نفسه بالشر ، وتعلـن سفنـه بنفسها عـن نفسها ، ثم تلتقـي علـى غير موعد بسفـن الاعداء فلا تلبث ان تصطدم بها ، ويتهاوى الفـريقان في نار الوغى ويتجالدون اعنف جلاد ، تحفز الروم ثارات متأصلة واوتار دفينة .. وتحفز العرب اخطار منتظرة وشرور مرتقبة ويتطلع العرب بقلوبهم الى الوطـن العربـي العزيز ويتخيلون ماذا سيحل بتلك الارض الطيبة ، اذا هم تزحزحوا عـن موقفهم او تزلزلوا في حربهم فيندفعون مكبرين وينطلقون مهلليـن فتنجلي المعركـة عن نصرهم البحـري

الحاسم في معركة المجاز . ويكون الشاعر معهم بكل شعوره وكل جوارحه ، متلهفا لمعرفة الخبر الاخير ولما يبلغ اذنيه نبأ الفوز ينطلق مزهوا متغنيا بالبطولات :

يوم عريض بالفخار طويل
لا تنقضي غرر له وحجول
مسحت ثغور الشام ادمعها به
ولقد تبل التراب وهي همول
قل الدمستق مورد الجمع الذي
ما اصدرته له قنا ونصول
سل رهط (منويل) وانت غررته
في اي معركة ثوى منويل
منع الجنود من القفول رواجعا
تبا له بالمنديات قفول
وبعثت بالاسطول يحمل عدة
فأثابنا بالعدة الاسطول
ادى الينا ما جمعت موفرا
ثم انثنى باليم وهو جفول
ومضى يخف على الجنائب حمله
ولقد يرى بالجيش وهو ثقيل
لم يتركوا فيها بجعجاع الردى
الا النجيع على النجيع يسيل
نحرت بها العرب الاعاجم انها
رمح أمق ولهذم مصقول

ثم ينثنـــي الى مدبر ذلك كله وقائد النصر ومعـد الاسطول ومهيىء الجيش ، الى المعز :

لا تعـدمنك امــة اغنيتــها
وهديتها تجلـــو العمى وتنيــل

وتتكرر معارك الاسطول العربي وتتكرر انتصاراتـه فيحرص الشاعر علـــى الاشادة بالاسطول :

وسفن اذا ما خاضت اليم زاخرا
جلت عن بياض الصبح وهي غرابيب
تشب لها حمراء قان اوارهـــا
سبوح لها ذيل علـــى الماء مسحـــوب

وتلتقـــي جيوش الروم واساطيلهم بجيوش الفاطميين البرية واساطيلهم اكثر من مرة وتقع المعارك البرية والبحرية في اوقات متقاربة وينتصر الفاطميون وتحمـــى بانتصاراتهم ديار الاسلام والعروبة فيقول ابن هانـــي مشيرا الى انالروم كانوا قبل اليوم سادة البحر المتوسط ، تجول فيه اساطيلهم وتصول بلا رقيب ولا منافس ، والى ان جيوشهم البرية كانت كذلـــك :

لو كان للروم علـــم بالذي لقيــت
ما هنئـــت ام بطريـــق بمولـــود
القى « الدمستق » بالاعلام حين رأى
مـــا انـــزل الله من نصـــر وتأييـــد
فقل له حال من دون الخليـــج قنـــا
سمــــــر واذرع ابطال مناجيـــد

ثم يخاطب المعز :

ذمـوا قنـاك وقد ثارت اسنتهـا
فمـا تـركـن وريدا غـير مورود
حميتـه البر والبحر الفضـاء معا
فمـا يمـر بـاب غير مسـدود
قد كانت الروم محذورا كتائبـها
تدنـي البلاد علـى شحط وتبعيـد
وشاغبـوا اليـم ألفي حجة كملا
وهـم فوارس قاريـاته السـود
فاليـوم قد طمست فيـه مسالكهم
مـن كـل لاحب نهج الفلك مقصـود
هيهـات راعهـم في كل معتـرك
ملـك الملوك وصنديد الصناديـد

مـن الاندلس الـى افريقيـة

ابن هانـي اشبيلـي المولد اندلسي النشأة فقد ولد سنة ٣٢٠ أو ٣٢٦ في قرية سكون من قرى مدينة اشبيليـة وكان صديقا لوالي اشبيلية مقربا اليه . وكان الحكـام في الاندلس لا يحبون الدولة الجديدة التـي أخذت تشب ويقوى ساعدها في افريقيـا فأخذوا يعملون علـى زعزعتها . ولم يتورعوا عـن التحالف مع الاجنبي للقضاء عليها(١).

وكان هوى ابـن هانـي مع الفاطميين وقلبه متجها

---

١ ــ يقول الدكتور حسـن ابراهيم حسن عـن كتاب المجـالس والمسايرات المخطوط : (... فاوضح اعتمـاد حاكم الاندلس عبد الرحمان الناصر الاموي علـى الروم في صراعه مع الفاطميين ...)

اليهم ، وكان كغيره يرى في شباب دولتهم ما يمكن ان يعيد الشباب الى الوطن العربي . ويبدو انه كان لا يتورع عن الجهر بآرائه والدعوة اليها ، مما لم يكن يخفى على الحاكمين ، فدبروا له تهمة الاخذ بالفلسفة ، وهي تهمة كانت هناك في ذلك الوقت كافية لاستحلال الدماء . ويبدو ان صديقه الوالي الاشبيلي قد أحس بما يدبر للشاعر في الخفاء فنصحه بترك اشبيلية فأخذ الشاعر بالنصيحة واتجه الى العدوة الافريقية حيث اتصل في المسيلة بجعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الاندلسية والي المسيلة(٢) فلم يجد جعفر هدية يقدمها لخليفته اثمن من هذا الشاعر ، فاوفده اليه . وكان المعز في امس الحاجة لمثل ابن هاني ليكون لسانه الناطق في تطور دولته

---

٢ – المسيلة :قاعدة المغرب الاوسط ، او ما كان يسمى ببلاد الزاب يطلق عليه الان اسم (الجزائر) . وهذه المدينة هي احدى المدن التي انشاتها الدولة الفاطمية في اول قيامها ، اختطها ولي عهد هذه الدولة محمد بن عبيد الله المهدي . وكان ابوه قد وجهه الى اقليم الزاب ليقربه سلطانه ويقمع بعض الفتن الناشبة فيه حتى اذا فرغ من شأنه وتم له ما اراد ، اختط هذه المدينة لتكون قاعدة هذا الاقليم بدلا من مدينة طبنة ، وعهد الي علي بن حمدون (والد جعفر) الاندلسي ببنائها ، ثم اطلق عليها اسم (المحمدية) نسبة الى ولي علي العهد، الى جانب اسم المسيلة، ذلك الاسم الذي يرجع – فيما نحسب – الى اصل قديم . ولم تلبث هذه المدينة ان نمت وازدهرت وخاصة في عهد اميرها جعفر بن علي بن حمدون ، وقد آلت اليه امارتها بعد ابيه الذي تولى – كما مر – بناءها ، وكان معتزا بها فجعلها مناط همته ووجه اليها طموحه كله حتى استطاع ان يجعل منها مركزا من اول المراكز الادبية في المغرب العربي تحفيا بالادب وتشجيعا للادباء ورعاية لهم واستثارة لمواهبهم . وفيها برزت شاعرية ابن هاني .

وتقدمها ، وليكون وسيلته الاعلامية ، واذاعته القوية ، فاحتفى به وقربه اليه وظل ابن هاني يسجل انتصارات المعز ويعدد وقائعه الى ان خطا المعز خطوته الحاسمة فارسل قائده جوهرا لضم مصر الى خلافته ودخل جوهر الاسكندرية متقدما الى العاصمة فأذاع ابن هاني النبأ بهذا الشكل :

يقول بنو العباس هل فتحت مصر ؟
فقل لبني العباس قد قضي الامر
وقد جاوز الاسكندرية جوهر
تسير به البشرى ويقدمه النصر

نهاية الشاعر

ويتهيأ المعز للذهاب الى مصر وانشاء عاصمته الجديدة (القاهرة) ثم يمضي اليها على ان يلحقه شاعره ليكون هناك كما كان هنا المذيع البليغ . وكان حكام الاندلس متابعين لخطر الشاعر عالمين بما فعله شعره للدولة المتقدمة وما يمكن ان يفعله بعد ان تطورت من حال الى حال . ورأوا في قلمه خطرا لا يقل مضاء عن السيف فقرروا حرمان الدولة الحديثة منه فأرسلوا اليه من اغتاله وهو في الطريق الى مصر عند برقة سنة ٣٦٢ وهكذا انتهى هذا الشاعر الفريد نهاية اليمة غير متجاوز مراحل الشباب. ولا شك انه لو قدر له الوصول الى مصر لترك في احداثها وحياتها وطبيعتها الشيء الكثير الثمين .

حمزة بن عبد المطلب

عم النبـــي ورضيعـــه

حمزة بن عبد المطلب من الابطال الذين اعتز الاســـلام بهم ، ولو قدرت له الحياة المديدة لكان له من الشأن ما يبلـــغ به ارفع منزلة في الكفاح الاسلامي الطويل ، ولكن شاء الله ان يقضـــي في مطالع الدعوة الاسلامية بعد ان ابلـــى فـــي نصرتها ما لم يبل مثله انسان اخر .

رضيـــع النبـــي

وقد كان قريبا من النبـــي حبيبا اليه ، كما كان هـــو متفانيا في الاخلاص لمحمد (ص) تفانيا قل مثيله . وقد نشـــأ هو والنبـــي معا في ســـن واحدة او متقاربة واختلف فـــي تحديد الفارق في السن بينهما ، فقيل انه اسن من النبي (ص) بسنتيـــن وقيل باربع سنيـــن وقيل انهمـــا في سن واحدة .

علـــى ان الثابت ان ثويبة مولاة ابي لهب ارضعتهمـــا بلبـــن ابنها مسروح ، فكانا اخويـــن من الرضاعة . واستدل بعضهم بذلك علـــى تساويهمـــا في الســـن ، ولكن اخريـــن ردوا علـــى هذا بان هذه الاخوة الرضاعية لا تؤدي حتمـــا الـــى هذا الاستنتاج . فقال احدهم انه يمكن ان يكـــون اخاه من الرضاعة بلبـــن مسروح بن ثويبة ويكون مع ذلك

اكبــر منه . ولكن حتــى الذيــن قالوا بذلك اختلفــوا في تحديد الفارق ، اهــو اربع سنيــن ، ام سنتان . فقــال الاخيرون لا يصح ان يكون الفارق اربع سنيــن اذ ما دام ثابتا ان الرضاعة كانت بلبن مسروح فلا بد ان يكون الفارق سنتيــن ، لانه لا رضاع الا في حولين(١) . ولكن المخالفين لذلك ردوا بانه يمكن ان يكون ارضاعها حمزة في اخر سنته في اول ارضاعها لابنها . وارضاعها للنبي (ص) في اول سنته في آخر ارضاعها ابنها فيكون اكبر من النبي باربع سنين(٢) .

وكان بينه وبيــن النبــي (ص) قربــى اخرى ، فأم حمــزة هــي هالة بنت اهيب بــن عبد مناف بن زهرة . وام النبــي (ص) هــي امنة بــن وهب بن عبد مناف فهمــا ابنتا عم .

اخــوته

وكان حمــزة واحدا من ثلاثة عشر ولدا لعبد المطلب . علــى ان بعضهم يقول انهم كانوا عشرة ، وبعض قال احد عشر . وايا كان عددهم ، فقد ادرك الاسلام منهم اربعة شذ واحد منهم عــن الطريق السوي فلم يسلم ، بل قاوم الاسلام ما وسعتــه المقاومة ، ذاك هو ابو لهب . واستقام ثلاثة على الطريــق فاسلموا ، وهم : ابو طالب والحمــزة والعباس . وكان لكل واحد منهم مواقفه في الدفاع عن النبي ونصرته ، فحمــاه ابــو طالب الحمــاية المنيعة ولم ينل النبــي اذى

---

١ ـ ابن عبد البر في الاستيعاب .
٢ ـ اعيــان الشيعة .

الا بعـــد موته ، وناضل دونه الحمزة اي نضال ، وعضده العبـــاس في بيعة العقبة وكان عينه في مكة .

أســــلامــه

كان اسلام حمــزة في السنة الثانية من البعث(١) وقيل بل كان ذلك بعد دخول النبي (ص) دار الارقم في السنـــة السادسة . وكان اسلامه فتحا عظيما اذ قوي به المسلــمون وتباشروا بذلك اي تباشر لما كان يتمتع به حمـــزة من بسالة وحمية واقدام ورأي واخلاص . ومما وصف به انه كان « اعز فتـــى في قريش واشد شكيمة » .

اما السبب المباشر في اسلامه فذلك ان ابا جهل مر بالنبـــي (ص) عند الصفا فآذاه وشتمـــه ونال منه بعض ما يكـــره من العيب لدينه والتضعيف لامره ، فلم يكلمه النبـــي (ص) . ثم انصرف ابو جهل الـــى ناد من قريش عند الكعبـــة فجلس معهم . وكانت مولاة لعبد الله بـــن جدعان في مسكن لها تسمع وترى ما فعل ابو جهل ، فلم تطق صبرا ، ولـــم تستطـــع ان تقف في وجه ابي جهل . فلم يلبث حمزة ان اقبل من قنص له متوشحا قوسه . وكان من عادته اذا عاد مـــن القنص ان يقصد الكعبة فيطوف بها ،وكان اذا فعل ذلك لم يمـــر على ناد من اندية قريش الا وقف وسلم وتحدث معهم.

فلما مر بالمولاة ــ وكان النبـــي قد رجع الى بيته ــ قالت المولاة : يا ابا عمارة لو رايت ما لقـــي ابن اخيك محمد

---

١ ــ الاستيعـــاب .

انفا من ابـي الحكم بـن هشام . وجده ها هنا جالسا فاذاه وسبه وبلـغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد .

فغضب حمـزة ومضـى مسرعا يسعى دون ان يقف علـى احد ، حتـى اذا لقـي ابا جهل اقبل نحوه حتـى اذا قام علـى رأسه رفع القوس فضربه فشجه شجة منكرة ، ثم قال : اتشتمه ؟ فأنا علـى دينه ، اقول ما يقول ، فرد ذلك علـي ان استطعت .

فقامت رجال من بني مخزوم الى حمزة لينصروا ابا جهل فقال ابـو جهل : دعوا ابا عمـارة فانـي والله قد سببت ابـن اخيه سبا قبيحا .

هكذا اعلن حمزة اسلامه ، ويقول ابن اسحاق : (فلما اسلم حمـزة عرفت قريش ان رسول الله (ص) قد عز وامتنع وان حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه) .

شعره عنـد اسلامه

ان لحمزة بعض الشعر في بعض الاحداث . ومما رواه صاحب الدرجات الرفيعة ان حمزة قال حيـن اسلم مـن ابيـات :

حمـدت اللـه حيـن هدى فؤادي
الـى الاسلام والديـن الحنيـف
اذا تليـت رسائلـه علينـا
تحـدر دمـع ذي اللـب الحصيـف
فلا والله نسلمـه لقـوم
ولمـا نقـض منهـم بالسيـوف

اول قــــائد

ومنذ الساعة التـــي اسلم فيها حمزة وقف نفسه على خدمة الاسلام والدفاع عـــن كيانه بكل قوتـــه واصبـــح حصنا حصينا للمسلمين يلوذون به عند الشدائد . وحين اذن النبـــي (ص) بالهجرة هاجر حمـــزة فيمـــن هاجر مـــن المسلمين ، ولما استقر المقام بمحمد (ص) في المدينة وبـــدأ النظام الاسلامـــي يتكامل وتتجمـــع قواه كان من الطبيعـــي ان تكون لحمـــزة المكانة الرفيعة فلم تمض بضعة اشهـــر علـــى النزول في يثرب حتـــى اصبح حمـــزة القائد الاول في الاسلام ، فقد عقد له النبـــي لواء ابيض واسلم اليه امـــر سريـــة من المسلميـــن ليتقدم بهم الى « سيف » البحـــر علـــى طريق القوافل القرشية فكان هذا اللواء اول لـــواء عقـــد في الاسلام وهذه السريـــة اول سرية وهذا القـــائد اول قـــائـــد .

فـــي بـــدر

وفي بدر حيـــن برز عتبة بـــن ربيعة وابنه الوليد واخوه شيبة ودعوا الـــى البراز ، خرج اليهم ثلاثة فتيان مـــن الانصار هم معاذ ومعوذ وعوف بنو الحـــارث ، فـــرفض القرشيون مبارزتهم وقالوا ارجعوا فما لنا بكم من حاجة ، ثم نادى مناديهم : يا محمد اخرج الينا اكفاءنا من قومنا . فقال النبي (ص) لعبيدة بن الحارث بن المطلـــب وحمـــزة بـــن عبد المطلب وعلـــي بن ابي طالب : قوموا فقاتلوا بحقكم اذ

جاءوا بباطلهم ، فمشى هؤلاء الثلاثة الى العدو متمثلة بهم عظمة الاسلام ونخوته وبسالته ، فلما صاروا ازاء القرشيين قال عتبة: تكلموا نعرفكم ، فان كنتم اكفاءنا قاتلناكم . فقال حمزة : انا حمزة بن عبد المطلب اسدالله واسد رسوله . فقال عتبة كفؤ كريم ، وانا اسد الاحلاف ، ومن هذان معك ؟ قال : علي بن ابي طالب وعبيدة بن الحارث بن المطلب .قال: كفؤان كريمان .

اللحظة التاريخية الحاسمة

كانت هذه اللحظة من اللحظات الحاسمة في تاريخ الاسلام ، فها هي قريش عدوة الاسلام بعدتها وعديدها ، وها هو الاسلام بما تجمع لديه من قوة . ها هما يقفان لاول مرة وجها لوجه . وهاهم اكفاء ثلاثة في قريش الجبارة يتقدمون الصفوف متحدين الدعوة الاسلامية وقوتها العسكرية .. فما هو المصير ؟ اتنتصر قريش فتفت في عضد المسلمين وتزلزل معنوياتهم فلا يقوون على الصمود ؟ ام ينتصر المؤمنون فيوهنون عزائم قريش ويكسرون جبروتها فتولى الدبر ؟

ستة رجال في صفين مختلفين ، عليهم يتوقف مجرى التاريخ ، وتطلع الكون كله الى تلك اللحظة الرائعة ، فاما ضربات ثلاث من ها هنا من هذا الصف المؤمن تحط على هذه الرؤوس الشامخة فتحيلها هباء تعلو بعده كلمة الحق وينتشر نور الهدى . واما ضربات ثلاث من الصف الاخرتحيل الفجر المشرق الى ليل دامس .

اول نصر في الاسلام

واسرع علي فأردى الوليد وهما اصغر القوم سنا ولعلي خمس وعشرون سنة . والتقى سيف عبيدة سيف شيبة وهما اسن القوم ولعبيدة سبعون سنة ، فهوى السيفان كل على هدفه ، فاصاب سيف عبيدة رأس شيبة ففلق هامته ، واصاب سيف شيبة ساق عبيدة فقطعها وسقطا جميعا . وغالب حمزة عتبة وهما اوسط القوم ، ولحمزة سبع وخمسون سنة ، فصمد عتبة وجالد طويلا ثم سقط .

ثم حمل حمزة وعلي عبيدة فوضعاه بين يدي النبي (ص) فقال عبيدة : لو كان ابو طالب حيا لعلم اني اقررت عينه حين قال :

كذبتم وبيت الله نخلي محمدا
ولما نطاعن دونه ونناضل
وننصره حتى نصرع حوله
ونذهل عن ابنائنا والحلائل

ثم حمل عبيدة فمات في طريق العودة الى المدينة .

في احد

يصف ابن الاثير خروج النبي الى احد وصفا يرينا ان امر الجيش الاسلامي كان الى حمزة وانه كان قائده الفعلي باشراف النبي (ص) ، فقد قال ابن الاثير :

ان رسول الله (ص) لما خرج الى احد خرج حمزة بالجيش بين يديه .

وكانت نار الثأر تغلـــي في صدر هند بنت عتبة زوجة ابــي سـفيـــان فاستعظمت مقتل ابيها وعمها واخيها بايدي الهاشميين مضافا الـــى قتل ولدها حنظلة خلال المعركـــــة بيـــد علـــي بـــن ابي طالب ، فدبرت مع (وحشـــي) ان يقتل اما محمـــدا او حمـــزة او عليا ، وجعلت له علـــى ذلك جعـــلا ، ويبدو ان اكثر من موتور واحد قد ساهموا في اغراء وحشـــي بقتل واحد من هؤلاء الثلاثة .

فاجاب وحشـــي : اما محمـــد فقد علمت اني لا اقدر عليـــه لان اصحابه لن يسلموه ، واما حمزة فوالله لو وجدته نائما ما ايقظته من هيبته ، واما علـــي فألتمسه . قـــال وحشـــي : « فكنت يوم احد التمسه . فبينا انا في طلبه طلع علـــي رجل حذر كثير الالتفات ، فقلت ما هذا بصاحبـــي الذي التمس ، اذ رأيت حمزة يفرى الناس فريا ، فكمنت له الـــى صخرة . ثم اقبل علـــي مكبا حيـــن رآنـــي ، فلما بلغ المسيل ، وطـــىء علـــى جرف فزلت قدمه . فهززت حربتي حتـــى رضيت منها فاضرب بها في خاصرته حتـــى خرجت من مثانته . وكر عليـــه طائفة من اصحابه فاسمعهم يقولون : ابا عمارة ، فلا يجيب ، فقلت قد والله مات الرجل ، وذكرت هندا وما لقيـــت على ابيها واخيها .. وانكشف عنه اصحابه حيـــن ايقنـــوا بموته ولا يرونني » .

واقبل وحشـــي علـــى هند يخبرها بما فعل فنـــزعت ثيابها وحليهـــا فاعطتها وحشيـــا ، ثم قالت له ارني مصرعه، فاراها مصرعه فجدعت انفه وقطعت اذنيه ثم جعلت ذلـــك مسكتيـــن ومعضديـــن وخدمتيـــن حتى قدمت بذلك مكة ،

وكانت قد اخذت قطعة من كبد حمـــزة فمضغتها فلم تستطع أن تسيغها فأعظتها .

رثاء النبـــي لحمـــزة

ووجد حمزة بعد المعركة ببطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده ومثل به ، فحين رآه النبي (النبي) بكى بكاء شديدا وقال : لـــن أصاب بمثلك ، ما وقفت موقفا قط اغيظ علي من هذا الموقف .وكان من رثائه له قوله : يا عم رسول الله واسد الله واسد رسوله ، يا حمـــزة يا فاعل الخيرات يا كاشف الكربات ، يا حمـــزة يا ذاب يا مانع عـــن وجه رسول الله .

فـــي المدينـــة

ولما رجع النبـــي (ص) والمسلمون الى المدينة مر بدار من دور الانصار فسمع البكاء والنوائح علـــى القتلـــى ، فتذكـــر النبـــي انه هو وحمـــزة وبنـــي هاشم غربـــاء الدار ، وان الهاشميات بعيدات المنازل هناك في مكة ، قد حيل بينهـــن وبيـــن رجالهـــن ، وان قريشا العاتية قـــد مزقت شمل هذه الاسرة الكريمة ، وان حمـــزة النازح الغريب لا اهل له هنـــا في هذا البلد الطيب .

فعاد النبـــي (ص) انسانا بكل ما فـــي الانسان مـــن رقة وحنـــان وعاطفـــة ، وثارت شجونه كأكرم ما تثـــور شجون الرجل النائي عـــن دياره المفجوع باحبائه ، فذرفت عينـــاه بالبكـــاء ، وقال مضمنا كلمته كل مـــا يمكـــن ان تتضمنه الكلمات من معانـــي الحزن المشوب بالتحسر علـــى

امـــة تقاتل رجلا جاء يدعوها الـــى فلاحها وعزتها ، ثـــم تفجعه باحب الناس اليه واكرمهم عليه . قال : (اما حمزة فلا بواكـــي له) .

وفهم بعض السامعيـــن الكلمة علـــى معناها القريب، ولم يدركوا ما كان يرمي اليه النبي (ص) من هذا القول ، وحسبوا ان محمدا (ص) يحب فعلا ان يسمع نوح النائحات علـــى عمـــه الحبيب ، فرجع سعد بـــن معاذ الـــى دار بني عبد الاشهل، فأمر نساءهم ان يذهبن فيبكين على حمزة في داره . فلما علم النبـــي (ص) بذلك امر بردهن ، مقدرا العاطفـــة التـــي حملتهـــن وحملت رجالهـــن علـــى ان فعلـــن ذلـــك، فقال : رضـــي الله عنكـــن وعـــن اولادكـــن .

فاطمة تبكـــي عمها

واذا كانت الهاشميات بمجموعهـــن بعيدات عن هـــذا المأتم النبوي العظيم ، فقد كانت هناك هاشمية واحدة قامت مقامهـــن وبكـــت عنهـــن ما اسعفها الدمع ، تلك هي فاطمة بنت محمـــد التـــي قدر لها ان تحمل وخدها منذ طفولتها عبء مشاركة ابيها همومه وأساه ، وان تكون في الشدائد الـــى جانبه مواسيـــة مقاسمة حتـــى لقبها النبـــي (ص) ام ابيها .

ولما بلغها ما حدث خرجت تستقبل اباها وملء عينيها الدمع بكـــاء علـــى عمها العظيم . وروى ابن سعـــــد في الطبقات انها كانت بعد ذلك تأتـــي قبر حمـــزة فترممـــه وتصلحـــه .

مـــراثيـــه

كانت فاجعــة الاسلام بحمــزة مبعث شعر كثـــير ساهمت فيه شقيقته صفية بنت عبد المطلب فقالت تــرثيــه مـــن قصيــدة :

وقـــال الخبيران : حمـــزة قد ثوى
وزيـــر رســول الله خـــير وزيـــر
فيا ليت شلوي عند ذاك واعظمـــى
لـــدى أضبع تعتـــادنـــي ونســـور
اقول وقد اعلى النعي عشيرتـــــي
جزى الله خـــيرا من أخ ونصـــــير
فوالله ما انساك ما هبت الصبـــــا
بكـــاء وحزنـــا محضري ومســـيري
علـــى أســـد الله الذي كان مدرها
يـــذود عن الاسلام كـــل كفـــــور

وقال عبد الله بن رواحة من قصيدة مشيـــرا الـــى شماتة هنـــد :

أبـــا يعلـــى لـــك الاركان هـــدت
وأنت الماجـــد البـــــر الوصـــول
عليـــك سلام ربـــك في جنـــــان
مخالطهـــــا نعيـــــم لا يـــزول
الا يا هاشم الاخيـــار صبـــرا
فكـــل فعالكـــم حســـن جميـــل
الا مـــــن مبلـــغ عنـــي لؤيـــــا
فبعـــد اليـــوم دائلـــــة تـــدول

نسيتم ضربنـــــا بقليب بـــدر
غـــداة اتـــاكـم المـــوت العجيل
وعتبـــة وابنـــه خـــرا جميـــعا
وشيبـــة عضـــه السيـــف الصقيل

وهام بنـــي ربيعة سائلوهـــا
ففـــــي اسيافنـــا منهـــا فلـــول
الا يا هنـــد لا تـــبـــدي شماتـــا
بحمــــــزة ان عزكـــم ذليـــل

ورثاه حسان بن ثابت باكثر من قصيدة قال في واحدة منـــهـــا :

قـــرم تمكـــن من ذؤابـــة هاشـــم
حيث النبـــوة والنـــدى والسؤدد
العاقـــر الكوم الجلاد اذا غـــدت
ريـــح يكاد المـــاء فيـــها يجمـد
والتارك القرن الكمـــي مجـــدلا
يـــوم الكريهة والقـــنا يتقصـــد

وتـــراه يرفل في الحديد كأنـــه
في لبـــدة شثـــن البـــرائن اربـــد
عـــم النبـــي محمـــد وصفيـــه
ورد الحمـــام فطاب ذاك المـــورد
ولقد اخال بذاك هندا بشـــرت
لتميت داخـــــل غصـــة لا تبـــرد

معركة شعرية

قوبل استشهاد حمزة بين القرشيين بسرور يعادل ما استقبل به من حزن بين المسلمين ، واكبر السرور كان عند هند بنت عتبة ، فكان ان علت فوق صخرة مشرفة عندما بلغها قتله وصرخت باعلى صوتها :(١)

نحن جزيناكم بيوم بدر
والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان عن عتبة لي من صبر
ولا اخي وعمه وبكري
شفيت نفسي وقضية نذري
شفيت (وحشي) غليل صدري
فشكر (وحشي) علي عمري
حتى ترم اعظمي في قبري

فأثار هذا الشعر شاعرة مسلمة هي هند بنت اثالة فردت عليها قائلة :

خزيت في بدر وغير بدر
يا بنت غدار عظيم الكفر
افحمك الله غداة الفخر
بالهاشميين الطوال الزهر
بكل قطاع حسام يفري
حمزة ليثي وعلي صقري

---

١ ـ محمد بن اسحاق .

اذ رام « شيب » وابوك قهري
فخضبا منه ضواحي النحر

شعر حمزة

لم تشغل الاحداث حمزة عن نظم الشعر ، بل يبدو ان الاحداث نفسها كانت هي التي تهزه الى نظم الشعر فقد رأينا ما نظمه عند اسلامه ، وهو اعظم حدث في حياته . ولما تتابعت الاحداث تتابع شعره فيها ، فمن ذلك ما نظمه عندما عقد له النبي (ص) اللواء الاول في الاسلام وبعثه الى سيف البحر ، فقد التقى هناك بابي جهل فقال من قصيدة :

الا يا لقومي للتحلم والجهل
وللنقض من رأى الرجال وللعقل
وللمعجلينا بالمظالم لم نطأ
لهم حرمات من سوام ولا اهل
كأنا نبلناهم ولا نبل عندنا
لهم غير امر بالعفاف وبالعدل

فما برحوا حتى انتدبت لغارة
لهم حيث حلوا ابتغي راحة الفضل
بأمر رسول الله اول خافق
عليه لواء لم يكن لاح من قبلي
عشية ساروا حاشدين وكلنا
مراجله من غيظ اصحابه تغلي

فقلنــا لهم حبل الالــه نصــيرنا
وما لكم الا الضلالة من حبــل
فثار « ابو جهل » هنالك باغيــا
فخاب ورد الله كيد ابــي جهــل

فرد عليــه ابو جهل بقصيدة جــاء فيها :

عجبت لاسباب الحفيظة والجهــل
وللشاغبينــا بالخــلاف وبالبطــل
اتونـــا بأفك كــي يضلوا عقولنـــا
وليس مضلا افكهم عقل ذي عقــل
فـــان تبقنـــي الايام ارجع عليــهم
ببيض رقاق الحــد محدثة الصقــل

وقد ابقت الايام ابا جهل كمـــا تمنـــى ولقيهم بالبيض الرقاق في بدر ، ولكن البيض الرقاق لم تغـــن عنه شيئا ، ذلك ان بيضهم الرقاق قضت عليـــه .

جعفر بن أبي طالب

الرواد المسلمون الاوائل الذين اقبلوا على الاسلام في ضعفه ، موطنين نفوسهم على البلاء والمحنة ، فكابدوا الشدائد والاهوال ، وتحملوا التشريد والترويع ، ثم وقفوا نفوسهم على حمايته ونشره ، ولم يطمعوا بمغنم ولا فازوا بسلطان ، بل كان نصيبهم الاستشهاد ، او الكفاح من جديد لحماية الاسلام من بعض المسلمين .. هؤلاء الرواد الاوائل جديرون بالعناية والدرس ، ليكونوا القدوة والمثل ، لتظل سيرهم امام العيون وملء القلوب ، تلهم الناس الايمان والصبر والتجرد والتضحية ، ومغالبة الظلم ومصارعة الباطل .

ومن اوائل هؤلاء الرواد ، الشهيد جعفر بن ابي طالب ..

ابوه وامه واخوته

كان لابي طالب ستة اولاد : اربعة ذكور وابنتان . والذكور اكبرهم طالب واصغرهم علي ، وبينهما عقيل وجعفر ، وكان كل واحد من هؤلاء يكبر اخاه بعشر سنين ، والبنتان هما جمانة وام هاني ، امهم جميعا فاطمة بنت اسد . وكانت هذه السيدة للنبي (ص) بمنزلة الام ، حين

كفل زوجها ابو طالب ابـــن اخيه محمدا بعد وفاة جده عبد المطلب ، فاحتضنت محمدا (ص) وعنيت به عنايتها باولادها. وقد حفظ النبـــي (ص) لها هذا الجميل فكان يجلها اجـــلال الولد لامه ، ولما ماتت كفنها في قميصه وصلـــى عليها ونزل في قبرها ، ثم خرج وعيناه تذرفان ، وحثا في قبرها . فقيل له : « رأيناك يا رسول الله فعلت علـــى هذه المرأة شيئا لم تفعله علـــى احد » . فقال : « ان هذه المرأة كانت بمنزلة امـــي التـــي ولدتني »(١) وكانت قد اسلمت وهاجـــرت الـــى المدينـــة وفيها توفيت .

وطالب الولد الاكبر لابي طالب كان ممن اكرهتهم قريش من الهاشميـــين علـــى الخروج الى بدر ، هو وعمه العباس وغيرهمـــا . وبعد بدر اختفى خبره فلم يعلم مصيره . ويبدو ان قريشا لما قتل زعمـــاؤها الثلاثة : عتبة وشيبة والوليد بايدي الهاشميين ، حاولت الفتك بمـــن اخرجتهم معها مـــن الهاشميين فاغتالت طالبا . فلما احس العباس وغيره بما يجـــري لجأوا الـــى صفوف المسلمين ، فاعتبرهم المسلمون اسرى واعتبرهم النبـــي (ص) كذلك ، واجبرهم علـــى دفع الفـــداء .

اســـلام جعفـــر

اسلم جعفـــر بعد اسلام اخيه علـــي بقليل ، بيوم او

---

١ ــ الحاكم في المستدرك .

نحوه ، وذلك ان ابا طالب ، وكان معه ولده جعفر ، رأى النبي (ص) وعليا يصليان ، وعلي قائم على يمين النبي (ص) فقال لابنه جعفر : « صل جناح ابن عمك وصلّ على يساره »(٢) فكانت هذه الجماعة اول جماعة اقيمت في الاسلام(٣) .

ومنذ اسلم جعفر حمل عبء الدعوة مع غيره من الابطال ولما اشتد الاذى بالمسلمين ورأى النبي ان يهاجروا من ديارهم ، اختار جعفرا لقيادة قافلة المهاجرين ، وكانوا خمسة وسبعين رجلا واثنتي عشر امراة ، وذلك في السنة الرابعة او الخامسة من النبوة ، وقد خرج جعفر ومعه امرأته اسماء بنت عميس ، فولدت له هناك اولاده عبدالله وعونا ومحمدا(٤) . وكانت هذه الهجرة في حياة ابي طالب ، فنظم ابو طالب ابياتا من الشعر ارسلها الى النجاشي قال فيها :

ليعلم خيار الناس ان محمدا
نظير لموسى والمسيح بن مريم

وانك ما تأتيك منا عصابة
بفضلك الا ارجعوا بالتكرم(٥)

---

٢ ــ اسد الغابة .
٣ ــ امالي محمد بن بابويه .
٤ ــ طبقات ابن سعد .
٥ ــ الحاكم في المستدرك .

المناظــرة امام النجاشـــي

ورأت قريش في هذه الهجرة حماية للمسلمين فعملت علـــى استرداد المهاجريـــن ، وارسلت لذلك وفدا مؤلفا من عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بن المغيرة (اخي خالد بن الوليد) ليفاوضا النجاشـــي في تسليم جعفر وجمـــاعته . فجرت في مجلس النجاشـــي مناظرة طريفة بيـــن زعيمـــي الفريقيـــن اللذيـــن جمع بينهمـــا النجاشـــي ليسمع من كل منهمـــا ما يقول قبل ان يقرر امرا بشأنهما . وفيـــما يروي ابـــن عساكر كمـــا يقول ابـــن كثير ، ان وفد قريش كان يتكلّم باسم زعيمها ابـــي سفيان ، وان ابا سفيـــان ارسل مع الوفد هدية للنجاشـــي وبطارقته .

وسأل النجاشـــي عمرا عما يقول ، فاجاب عمرو : انه قـــد صار اليـــك ناس من سفلتنا وسفهائنا ، فارقـــوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعـــــوه ، فادفعهم اليـــنا ..

ويبدو النجاشـــي في هذا الموقف دقيقا وحكيما ، ويظهر وكأنه حاكم من حكام هذا العصر يدقق في طلب تسليم لاجـــىء من اللاجئيـــن . فهو لم يرفض رأسا ، ولم يوافق رأسا . بل درس الطلب ثم استجوب زعيـــم المطلوبيـــن ، ثم اصـــدر قراره برد طلب التسليم . فكان بذلك سباقا لمن وضعوا في عهودنا الحديثة اصول تسليم اللاجئيـــن بين بلديـــن مختلفيـــن . بل يمكـــن ان نقول انه اول من ميز بيـــن المجرم العادي الذي يجوز تسليمه ، وبيـــن المجرم السياسي ــ كمـــا نقول في اصطلاحنا اليوم ــ الذي لا يجوز تسليمه،

كمـــا سنـــرى بعد قليـــل .

شرح مبادىء الاسلام

وقد كان عمرو بن العاص بارعا حين اثار امام النجاشي وبطارقته امر اعتناق ديـــن جديد . وادرك جعفر ما رمى اليـــه عمرو ، فركز جوابه علـــى تفصيل امر الديـــن الجديد وما يدعو اليه من خير وما ينهى عنه من شر ، فقال مـــا خلاصته : ايها الملك ، كنا قوما اهل جاهلية ، نعبد الاصنام ونأتـــي الفواحش ويأكل القوي منا الضعيف ، حتـــى بعـــث الله الينا رسولا منا نعرف صدقه وامانته وعفافه ، دعانـــا الـــى الله لنوحده ونعبده ونخلـــع ما كنا نعبـــد نحـــن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان ، وامرنا بالمعروف ونهانا عـــن المنكـــر ، وامرنا بصدق الحديث واداء الامانـــة وصلة الرحم وحســـن الجوار والكف عـــن المحارم والدماء، ونهانا عـــن الفواحش وقول الزور واكل مال اليتيـــم وقذف المحصنـــة وكل ما يعرف من السيئات . وامرنا ان نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا ، وامرنا بالصلاة والزكاة والصيام والصدقة وكل ما يعرف من الاخلاق الحسنة . فصدقنـــاه وآمنا به واتبعناه . فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عـــن ديننا ليردونا الـــى عبادة الاوثان ، وان نستحل ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالـــوا بيننا وبيـــن ديننا خرجنا الـــى بـــلادك .

وكان هذا الدفاع الذي القاه جعفـــر عرضا موجزا لاهم مبادىء الاسلام . وقبل ذلك سأل النجاشـــي عمرا :

اهؤلاء عبيد لكم ؟ فقال عمرو : لا ، فقال النجاشي : فلكم عليهم دين ؟ قال عمرو : لا .

اذن فاللاجئون ليسوا مجرمين عاديين : فلا هم عبيد آبقون ولا هم مدينون فارون بحقوق الناس ، بل هم (لاجئون سياسيون) ذوو مبادىء معينة اوضحها قائدهم ، وهي مبادىء لا يستطيع اي منصف ان يجعلها سببا في تسليم اصحابها لمن يناقضونها بوثنيتهم . واذا كانت دينا جديدا فليس فيه ما يؤخذ على اصحابه .

وهكذا صدر قرار النجاشي برد طلب الاسترداد . فبرهن بذلك عنى انه على اعلى مستويات الانسانية.

دعوة جديد

ولم يكن عمرو بن العاص ممن يهزمون بسهولة ، فتفتق ذهنه عن داهية رأى انها خير ما يرمي به جعفر واصحابه . فعاد يقول للنجاشي : « ان لهؤلاء رأيا في عيسى يخالف ما انت عليه » ، فدعاهم النجاشي من جديد ، فكان وقع هذه الدعوة اليما في نفوسهم ، اذ حسبوا انه قد بدا للنجاشي ما غير رأيه فيهم . وكان جعفر حين تلقى الدعوة الاولى قد عقد مؤتمرا من اصحابه ذاكرهم فيه بما يجب ان يكون عليه جوابهم للنجاشي . وبعد المداولة اقروا كلهم رأي جعفر حين قال لهم : « يجب ان نقول ما علمنا وما أمرنا به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن .. » لذلك رأيناه حين دخل على النجاشي يسلم عليه تسليما بسيطا ويأبى السجود بين يديه على عادة

جميـــع الداخليـــن عليه ، مع انه كان من المحتمل ان يثيره هذا التصرف ويغضبه ويســـيء لمصلحتهم . ولكـــن جعفـــرا ابـــى ان يتصرف الا علـــى اساس اسلامـــي بحت ، وان لا يتنازل قيـــد شعرة عـــن مبادئه التـــي لا تجيز السجود لغير الله . ولم يمض هذا التصرف بلا مناقشة ، فقد تساءل النجاشـــي عـــن تصرفهم الذي خالفوا فيه قواعد الدخول علـــى الملوك . فقال جعفـــر ما مفهومه ان نبينا حدد لنا قواعد السلام بيـــن الناس دون تمييز بينهم وامرنا بذلـــك فحييناك بالذي يحبي به بعضنا بعضا .. وكذلك رأيناه ايضا في جوابه الاول غير مجمجم ولا موارب ، كمـــا كان حيـــن اجاب عـــن رأي نبيهم في عيسى : هو عبدالله ورسولـــه وروحه وكلمته القاها الـــى مريم البتول العذراء ...

فلم يجد النجاشـــي في هذا الراي ما يمكن ان يؤاخذ به اللاجئون ، فانهم اذا كانوا لا يرون رأي النجاشي فـــي عيسى فانهم لا يقلون عنه احتراما له ولامه ، لذلك ايد قراره الاول بقرار جديد ، ورفض تسليم اللاجئيـــن .

مكـــة العاصمة

ويظهـــر مما قاله ابـــن اسحاق فيما حكاه ابن هشام في سيرته ، ان الامر في مكة كان يدل علـــى ان سلطتيـــن تتنازعان امر مكة ، وان اللاجئين كانوا يمثلون سلطـــــة ، وعمرو بن العاص كان يمثل اخرى ، وان الطلب لـــم يكـــن فرديـــا او شخصيا . فعمرو بـــن العاص حمل معـــه هدايا للنجاشـــي وبطارقته وقدمها باسم ابـــي سفيـــان

ممثل السلطة الفعلية . ورأينا ان ابا طالب ارسل للنجاشي شعرا يشرح له وجهة نظر الفريق الاخر في طلب الحماية للاجئين .

وهنا ايضا عندما علم ابو طالب بما كان من امر ارسال الوفد الى النجاشي عاد فارسل اليه شعرا جديدا ضمنه الحنين الى ولده جعفر ، ثم الثناء على النجاشي والاعتماد عليه في حفظ حق اللاجئين في « لجوئهم السياسي » .. ولعل في كل هذا ما يدلنا على طبيعة العلاقات بين مكة وغيرها من العواصم قبل الاسلام وخلال الدعوة الاسلامية ، وعلى ان مكة كان معترفا بها كعاصمة تفاوض وتطالب ، وان قريشا كان مسلما لها بالسلطة في مكة ، وان وفدها كان وفدا (رسميا) معترفا به .

كما قد يدلنا الشعر الذي ارسله ابو طالب مرتين على انه كان للغة العربية ولشعرها وادبها جذور خارج الجزيرة العربية ، والا فلماذا استعمل ابو طالب الشعر ، وكذلك فان ابن اسحق وغيره يرون ان النجاشي طلب من جعفر ان يقرأ له شيئا مما جاء به النبي (ص) فقرأ له صدرا من (كهيعص) وان النجاشي ومن في مجلسه تأثروا بما سمعوا من القرآن .

محاولة انقلاب على النجاشي

ويروي ابن اسحاق عن بعض المسلمين اللاجئين ان محاولة انقلاب جرت بعد هذه الاحداث كانت تستهدف

النجاشـــي نفسه ، ولا يحدثنا الراوي عـــن اسباب هـــذه المحاولة وعمـــا تذرع به الانقلابيون ، بل يكتفـــي بان يصف شعور اللاجئيـــن حيـــن سمعوا بالاخبار ، فيقول بهذا النص وهو يتحدث عـــن حســـن صنيع النجاشـــي : « فوالله انا لعلـــى ذلك اذ نزل به ـــ اي النجاشي . رجل من الحبشـــة ينازعه في ملكه فوالله ما حزنا قط حزنا كان اشد من حـــزن حزناه عنـــد ذلك تخوفا من ان يظهر ذلك الرجـــل علـــى النجاشـــي » .

وبالرغم من ان هذا الراوي لا يتحدث عن التفاصيل والاسباب ، فان من غير البعيـــد ان يكـــون المنازع للنجاشي قد استغـــل حماية النجاشـــي لاصحاب الديـــن الجديـــد وجعلها من عوامل ثورته وتحريض الناس عليه . لذلك حزن اللاجئون أولا ثم فرحوا ثانيا . ويدل علـــى ذلك ان بعـــض اعوان النجاشـــي ممن حضر مجلس المناظـــرة لم يكونـــوا راضيـــن عـــن الرعاية التـــي ظفـــر بها اللاجئون مـــــن النجـــاشـــي .

الرجـــوع مـــن الحبشـــة

ثم مضت الحياة سليمة علـــى جعفـــر واصحابـــه وكانوا يتنسمون اخبار الحجاز ، فعلموا بهجرة النبي (ص) وصحبه الـــى المدينة ، ثم تتابعت انباء الانتصارات الاسلامية فمضت ايام بدر واحد وبني النضير والخندق وبني قريضة واستقـــر امر الاسلام واصبح قوة تحمـــي نفسها واصحابها ثم جاء يوم خيبر ، فاذا بجعفر واصحابه يصلون المدينة يوم

النصر ، فيقول النبي : « لا ادري بايهما انا اشد فرحا : بفتح خيبر ، امبقدوم جعفر » .

قتل رسول النبي

الخطة التي ارادها النبي (ص) لنشر الاسلام لم تكن خطة الفتح والغزو على عكس ما يعتقد الناس وما جرى عليه الحال بعد النبي (ص) . بل كانت الخطة ارسال الرسل والدعاة مزودين بالاسلام بكل ما في مبادئه من حرية وعدالة اجتماعية واخوة ومحبة . وقد رأينا نجاح هذه الخطة في البحرين واليمن مثلا . وفي يقيني انه او امتدت الحياة بالنبي (ص) لما سلك غير هذا السبيل ولما لجأ الى القتال الا اذا الجيء اليه كما حدث حين ارسل في السنة الثامنة للهجرة رسوله الحارث ابن عمير الازدى داعية الى بلاد الشام فقتله شرحبيل بن عمرو الغساني احد حكام العرب العاملين تحت سلطة الروم في بلاد الشام . ومن الطبيعي ان لا يسكت النبي لقتل رسوله المسالم .

غزوة مؤتة

لذلك اعد جيشا عدته ثلاثة الاف لتأديب المجرمين ، ووجهه الى البلقاء حيث كان قد وقع الاعتداء ، وجعل للجيش ثلاثة قواد يتناوبون القيادة في حال استشهاد احدهم ، هم جعفر ابن ابي طالب ، وزيد بن حارثة ، وعبد الله بن رواحة . فاجتمع لحربهم جيش مكون من مائتي الف نصفهم

من العرب ونصفهم من الروم ، فابوا ان يرتدوا وفي ذلك يقول عبدالله بن رواحة :

فرحنا والجياد مسومات
تنفس في مناخرها السموم
اقامت ليلتين على (معان)
فاعقب بعد فرقتها جموم

فلا وابي مآب لنأتينها
ولو كانت بها عرب وروم
بذي لجب كأن البيض فيه
اذا برزت قوانسها النجوم

والتقت القوتان غير المتكافئتين واستشهد القواد الثلاثة . وعرف عن جعفر انه اخذ الراية بيمينه فقطعت يمينه فأخذ الراية بيساره فقطعت يساره ، وحاول ان يضم الراية الى صدره بساعديه المبتورين حتى قتل . واجمع المؤرخون على انه وجد في جسده عشرات الجروح ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح . وانتهت الحرب بانسحاب المسلمين .

صدى الاستشهاد

وبلغ النبي الخبر فمضى الى منزل جعفر وسال زوجته اسماء : اين بنو جعفر ، فجاءته بهم — وهم اطفال — فضمهم وقبلهم ثم ذرفت عيناه فبكى، فقالت اسماء :

يا رسول الله لعله بلغك عن جعفر شيء . قال : نعم انـــــه قتل . ثم قال علـــى مثل جعفـــر فلتبك البواكي .

مـــــراثيـــــه

قال كعب بن مالك الانصاري يرثيه من قصيدة :

صبـــروا بمؤتـــة للاله نفـــوسهم
عنـــد الحمـــام حفيظة ان ينكلــــوا
ساروا امام المسلميـــن كأنــــهم
طود يقـــودهـــم الهزبر المشبـــل
اذ يهـــتـــدون بجعفـــر ولوائـــــه
قدام اولـــهم ونعـــم الاول
حتـــى تقوضت الصفوف وجعفـــر
حيـــث التقـــى جمع الغواة مجدل .

وقال حسان بـــن ثابت من قصيدة :

غداة غدوا بالمؤمنيـــن يقـــودهـــم
الـــى المـــوت ميمون النقيبـــة ازهر
اغـــر كضوء البدر من آل هاشـــم
ابـــي اذا سيـــم الظـــلامة اصعـــر
فطاعـــن حتى مـــال غير مـــوسد
بمعترك فيـــه القنـــــا متكســـــر .

الزنوج في معركة الاسلام

كرم محمد بن عبد الله (ص) الانسانية كلها فألغى الاضطهاد العنصري الغاء عمليا حين اختار لاقدس مهمة زنجيا اسود اللون ، وجعل منه مؤذنه الذي ينادي المؤمنين للصلوات في اوقاتها الخمس .

هذا الاسود هو بلال الحبشي الذي كان عبدا من عبيد قريش فلم تكد تبلغه الدعوة الاسلامية حتى كان اول الملبين لها ، وتعلم به قريش ، ويعلم به سيده (امية بن خلف) فينصحونه بالعدول عن الطريق الذي مشى فيه فلا يقبل النصيحة ويستمر مسلما مخلصا فيأخذون في تعذيبه العذاب الاليم ، ولكنه لا يزداد الا ايمانا ، ثم يفر بنفسه الى المدينة مع من هاجر اليها ، وهناك صار مؤذن الرسول . ولقد كانت في صوته لكنة فلا يستطيع ان يلفظ الشين لفظا صحيحا ، بل تخرج من فمه وكأنها سين ، فيقول الرسول (ص) ان سينه عند الله شين ..

وعلى صوت بلال الحبشي كان يهرع شيوخ المسلمين وشبانهم الى المسجد ملبين نداء الله يبعثه هذا الانسان الاسود اللون . ولم يكن تكريم لعنصر بلال اعظم من هذا التكريم الذي خصه به رسول الله ، ولذلك فانه لما مات النبي انقطع الى اهل البيت مخلصا لهم ، وفيا لذكرى ابيهم الرسول .

بيـــن الجحود والــوفاء

وتدور الايام ويلقـــى اهل البيت محنا وارزاء ، ويبرز الاوفياء ملتفيـــن حول الاسرة النبوية عازميـــن علـــى الموت دونها اخلاصا لمحمـــد ورسالته . ويقف الحسين في كربـــلاء في اقل من مائة من الرجال كانوا يمثلون في تلك الساعـــــة انبـــل ما في الكون من سجايا ، وهل في الكون انبل من ان يبذل الانساء دمه طواعية وفاء لرجل وثباتا علـــى مبـــــدأ واخلاصا لعقيـــدة .

وتبارى الرجال في التضحيـــة ومضوا يسقطون واحدا بعـــد الاخر . وكان في الركب الحسينـــي رجل بسيط ، لا يحسب اذا حسبت البطولات ، ولا يذكر اذا ذكرت التضحيات، لا يؤبه لرأيه ولا يعد لمهمة من مهمـــات الامور .

كان يؤمر فيلبي الامر ، ويستخدم فيخدم مسرعا ، كان اقصـــى ما يعرفه الرفاق عنه انه خادم امين وتابع مخلص . وما فوق ذلك فليس مما يرد اسمه علـــى البال .

كان رقيقا من اولئك الارقاء السود الذين امتـــلأت بهم قصور العتاة وبيوت الطغاة ، وكانت اية حشرة تلقى عناية اكثر مما يلقاه اي واحد منهم . وكان نصيبه ان وصل الـــى يـــد أبـــي ذر الغفارى صاحب محمد المخلص ، وسمع ابـــو ذر النبـــي (ص) يوصي بالارقاء خيرا ويحض الناس علـــى تحريرهم، ومن اولـــى من ابـــي ذر بتنفيذ وصايا النبـــي فاعتق ابو ذر العبد (جون) وارسله حـــرا .

واصابت المحنة ابا ذر وطورد واضطهد ومات منفيـــا في الربذة ، وظل جون فقيرا معدما ، فتلقاه اهل البيت بالحنان

والعطف ، فقد كانت فيه ذكريات من صاحب جدهم رأوها جديرة بالوفاء فاحتضنوه والحقوه بشؤونهم يقوم علـــى رعاية بيتهم والعناية باطفالهم وقضاء حاجات رجالهم .

جــون في كــربــلاء

ومشــــى الحسيـــن الـــى كربلاء ، وهذه حال جون ، لا شأن له اكثر من هذا الشأن ، ولا من يفكر بان يكون لجون دور فوق هذا الدور . وكان في حسبان الجميـــع انـــــه سيغتنم اول فرصة للسلامة فينجو بنفسه وينشد الخدمـــة من جديد في بيت جديد .

ولكـــن جون بقـــي في ركب الحسيـــن لم يفارقه مع المفارقيـــن ، وثبت مع الرجال المائة الذيـــن ثبتوا حتـــى وصلوا الـــى كربلاء وظـــن الناس ان (جون) سينتظـــــر الساعة الحاسمة ، ثم ينطلق بعدها في طريق النجاة ، ولكن الايام مضت وجون في مكانه لم يبرحه ، وجاء اليـــــوم التاسع من المحرم وجون قائم علـــى خدمة الحسين ، فها هو يصلح له سيفه والحسين يردد تلك الابيات الشهيرة التـــي لم تستطع معها اخته زينب الا ان تذرف دموعها .

اما جون فلم يذكر احد انه انفعل او تأثر او بكـــى ، أتراه لم يفهم ما كانت تعنيه تلك الابيات ؟ اتراه صلب العاطفة متحجـــر القلب الى حد لا يهزه صوت الحسين ينعى نفسه ؟ اتراه في تلك الساعة في شاغل عـــن كل شـــيء الا عن نفسه يفكـــر كيف يدبر وسيلة الخلاص عصر اليوم او صباح الغد ؟

معالم الوفاء

الحقيقة كانت فوق كل تصور .. لم يبث جون ولـم ينفعل ولم يتأثر ، لان ما كان فيه كان فوق البكاء والانفعال والتأثر . كان جون وهو يصلح سيف الحسيـن ، والحسين ينشد ابياته ، كان جون يستعرض في ذهنه كل ذلك الماضي الحافل ، كان يتذكر النبـي محمدا (ص) وهو يرفع الانسان الاسـود الـى اعلـى مراتب الكرامة حيـن عهد الـى واحد منهم بوظيفة مؤذنه الخاص وكان يتذكر تلـك الالوف من السود التـي انطلقت حرة تنفيذا لوصايا محمد . كان كل ذلـك يجول في ذهـن (جون) مولـى ابي ذر الغفاري .

مـع سيـف الحسيـن

وها هو سيف الحسيـن الان في يده لآخر مرة يصلحه له ليقف به الحسيـن غدا علـى اعلـى قمة في التاريـخ فيهز الدنيـا كلها لتشهـد كيف تكون حماية الهدى والحـق والخير ، وكيف تكون البطولات التـي لا تبغـي الا الاستشهاد ذودا عمـا تؤمن به وتعتنقه ، وكيف يرفض الاباة الحيـاة اذا لم تكـن كمـا يريدون حياة الحرية والسعادة للامة ، وحيـاة الكرامة والحق لهم .

غدا سيلمـع هذا السيـف الحديدي في كف الحسيـن ثم ينثلم الـى الابد ، ولكن سيف الحق الذي جرده الحسيـن سيلمـع الـى الابد دون ان ينثلم ، وغدا سيعلو صـوت الحسيـن بنداء الحرية ثم يصمت الـى الابد ، ولكن صوت الحرية الذي انطلق من فم الحسين سيظل مدويا الى الابد .

سكون جـــون

كان جون يلجأ الـــى صمت رهيب ، وظل صامتا حتى دنا الليل ، واصغـــى بكل جوارحه الـــى الحوار البطولـــي الخـــارق الذي جرى بين الحسيـــن وانصاره ، وهو يحرضهم علـــى تـــركـــه وحده والانطلاق في سواد الليـــل ، وهـــم يردون عليـــه واحدا بعد واحد رافضيـــن لاول مرة فيحياتهم اوامره ، ويصرون علـــى ان يلقوا نفس المصير الذي سيلاقيه هـــــو .

كان جون في تلك الساعه يجلس في زاوية دون ان يأبـــه له احد ، وكان يود من كل قلبه لو كان لصوت الزنـــوج صوت بيـــن هذه الاصوات ، ولكنه فضل الصمت المطبق .

جـــون البطـــل

وفي الصباح عندما تبارى الابطال المائة متسابقيـــن الى الموت ، ومشـــى كل منهم يستأذن الحسيـــن ويودعه ماضيا الـــى مصيره ، تقدم (جون) ، وهو في كل خطوة من خطواته لا ينفك مصغيـــا الـــى صوت زميله بلال الحبشـــي متعاليا فوق كل اصوات البيض تكريمـــا من محمـــد واعزازا ٠ وربما خطـــر له في تلك اللحظات منظـــر بلال وهو واقف علـــى اشرف مكان واقدس بقعـــة ، علـــى ظهـــر الكعبة حيـــن امـــره محمـــد ساعة فتح مكة ان يصعد فينادي بالاذان . الاسود الذي كان عبدا ذليلا قبل رسالة محمـــد يصعـــد علـــى الكعبة ، وهو في نظر الناس اعز انسان .

دنت ساعة الوفاء لمحمـــد ، دنت الساعة التـــي يرد

فيها هذا الزنجي (جون) بعض الجميل لمحمد ، وهل اعظم في الوفاء لمحمد من ان يموت ذودا عن ابنائه ونسائه وتعاليمه ، وتقدم جون من الحسين وقد انقلب بطلا مغوارا ، وقد تجمعت فيه كل فضائل بني جنسه ، تقدم يستأذن الحسين في ان يكون كغيره من رفاق الحسين .

الكريم الحسب

والتفت الحسين اليه وقد اخذته الرقة له والحنان عليه ، ولم يشأ ان يورطه فيما لا شأن له به ، فقال له : انت انما تبعتنا للعافية فلا تبتل بطريقتنا .

ولكن جون البطل اجاب الحسين : انا في الرخاء على قصاعكم وفي الشدة اخذلكم ؟! ثم اردف هذا الجواب بكلمات لم يقصد بها الحسين ، بل اراد ان يوجهها للاجيال الماضية والاجيال الحاضرة والاجيال الاتية ، تلك الاجيال التي لم تر للزنوج الكرامة التي لهم ، فقال : ان ريحي لنتن ، وان حسبي للئيم ، وان لوني لاسود ، افتنفس علي بالجنة فيطيب ريحي ويشرف حسبي ويبيض وجهي ؟ لا والله لا افارقكم حتى يختلط هذا الدم الاسود بدمائكم .

لقد كان جون يعلم انه اكرم على الحسين من الوف البيض ، وان الحسين اكرم من ان يراه لئيم الحسب نتن الريح . .لم يكن جون في الواقع يخاطب الحسين سبط محمد مكرم الزنوج ، بل كان يقف على ذروة من ذروات التاريخ ليقول للادعياء المفاخرين بالوانهم واطيابهم ، اليكم

هذا الذي ترونه في نظركم لئيم الحسب نتـن الريح ، اليكم به اليـوم يطاولكـم شرفا وحميـة وشجاعة ووفاء فلا تصلون الـى اخمص قدميه . منكم يزيد الابيض اللون ، المتحدر من عبد مناف ، المضمخ بالاطياب ، ومنكم عبيد الله بن زيـاد ومنكم شمر ابن ذي الجوشن وحجار بـن ابجـر وقيـس ابن الاشعث وعمـرو بـن الحجـاج ، منكم قبـل هـؤلاء وبعد هؤلاء كثيرون ، وكلهم يشع بياضا ويعبق طيبا ، وكلهم يجـر وراءه حلقات آباء واجداد .

اولئك غدروا بمحمد الذي اخرجهم من الظلمـات ، فداسوا تعاليمه وحشدوا الحشود علـى بنيه ، اولئك يتهيئون الان ليرفعوا رؤوس ابناء محمد علـى رماحهم . وهـذا الزنجـي وفى لمحمد الذي حرره واكرم جنسه ، فتقـدم ليذودكم عـن بنيه وبناته وتعاليمه ، وهو يتهيأ الان ليسفك دمه دون ذلك ، فأيكم اللئيم الحسب ، النتن الريح ، الاسود الوجه ؟ أانتم أم هـو ؟

جـون يحقق امله

وحقق الحسيـن رجاء جون فأذن له ، ومشـى(جون) مزهوا ببطولته معتزا بوفائه يود لو ان عيني بلال الحبشـي تـراه في خطواته هذه ، وان زنوج الدنيا يطلون عليـه ليروا كيف مثلهم في موكب البطولات وتكلم باسمهم علـى منـبر التضحيـات ، وكيف شرفهم ساعة لا شرف الا للنفـوس العظيمـة .

لقد ضارب جون الحر اولئك العبيـد باعمالهم ، السود

بقلوبهم ، وكان له ما اراد . فامتزج دمه الاسود مع اشــرف دم : مع دم الحسيــن سبط محمد ومع دماء اهل بيته .

ووفـــى الزنوج لمحمـــد الذي رفع من شأنهم واعلـــى امرهم ، وتحقق ما اراده جون . فلم ينفس عليـــه الحسين بالجنـــة ، ولم يبخل عليه بان يثبت بانه كريم الحسب طيب الـــريـــــح .

زين العابدين علي بن الحسين

للحسين بن علي ولدان كل منهما يسمى عليا : هما علي الاكبر وعلي الاصغر . والمشهور ان شهيد كربلاء هو علي الاكبر . ولكن هذه الشهرة موضع مناقشة فقد قيل ان الاكبر هو علي زين العابدين ، ويبدو ان هذا القول هو الصواب ، لان من الثابت ان الامام محمد الباقر ابن الامام زين العابدين ادرك جده الحسين وانه عاش معه ثلاث سنين او اربع سنين . في حين لم يرد ان شهيد كربلاء كان عند استشهاده متزوجا . ومن غير المتعارف ان يتزوج الولد الاصغر قبل الاكبر .

ولكن الشهرة طاغية ، فما من احد يذكر الشهيد في الخطابة او الكتابة الا ويقرن اسمه بلفظ (الاكبر) . وقد علل الشيخ المفيد في كتابه (الارشاد) هذه الشهرة بانه كان للحسين ولد ثالث هو اصغر الاخوة الثلاثة وان الشهيد هو الاوسط ولكنه اكبر بالنسبة الى الاصغر .

مولده ووفاته

ولد في المدينة ، وفي يوم ولادته وشهرها وسنتها بعض الاختلاف ، فمن قائل انه ولد لتسع او خمس او سبع خلون من شعبان . ومن قائل انه ولد في منتصف جمادى الاخرة .

وكذلك قيل انه ولد سنة ٣٨ او ٣٧ او ٣٦ من الهجرة .
وتوفي في المدينة في المحرم سنة ٩٤ او ٩٥ .

نشأته

عاش مع جده علي بن ابي طالب سنتين او اكثر ، ومع عمه الحسن اثنتي عشرة سنة او عشر سنين ومع ابيه الحسين ٢٣ او ٢٤ سنة ، وعاش بعد ابيه الحسين ٣٤ او ٣٣ او ٣٥ سنة .

في كربلاء

لم يسلم احد من اهل البيت في كربلاء فقتل حتى الاطفال ، فان الحسين حين طلب من اخته زينب ان تريه طفله الصغير عبدالله ليودعه ، واخذه في يديه واومأ اليه ليقبله رماه حرملة بن كاهل الاسدي بسهم فوقع في نحره فذبحه . وكذلك لما رأى عبدالله بن الحسن وحدة عمه الحسين لم يستطع — وهو غلام لم يراهق — ان يصبر فانسل من خيمة النساء وانطلق الى عمه فلحقته زينب بنت علي لترده . فقال لها الحسين : احبسيه . فامتنع الغلام امتناعا شديدا وجاء يشتد الى عمه الحسين حتى وقف الى جنبه وقال : لا افارق عمي .

كان هذا المشهد الانساني الرائع تتدفق احداثه متتابعة بكل ما فيها من رهبة وعاطفة وجلال : زينب تحاول رد الغلام ، والحسين يحاول اقناعه بالرجوع ، زينب بكل ما فيها من رقة نسوية انسانية وبكل ما اشتملت عليه

جوانحها من حنان القربى تجر الطفل الى الخيمة ، والحسين بكل ما احتواه قلبه الكبير من اشفاق ورحمة يبعد الغلام عنه ، والغلام بكل ما غذي به في بيت النبوة من سمو ورجولة وشمم ، وبكل ما ورثه عن علي وفاطمة من بر ووفاء ونخوة وشجاعة يتملص منهما ويرد عليهما صارخا : لا افارق عمي . ثم يقف الى جنب عمه يحاول لو يستطيع حمل سيف او نقل رمح يدافع بهما عن هذا العم العظيم . ولكنه لا يملك الا قلبه العطوف وجسمه الغض فيتقدم ليشارك بهما عمه الحسين بمصيره .

هذا المشهد الانساني الرائع لم يكن له في قلب ابجر بن كعب من اثر الا اثارة همجيته واستفزاز وحشيته فاهوى بسيفه الى الحسين فصاح الغلام ويلك اتقتل عمي ؟ فازدادت وحشية ابجر وتعاظمت همجيته فترك الحسين واندفع بالسيف الى الغلام سبط محمد بن عبد الله (ص)، فاتقى الغلام السيف بيده فأطنها السيف الى الجلد فاذا هي معلقة فنادى الغلام : يا عماه ، فاخذه الحسين اليه فرماه حرملة بن كاهل بسهم اجهز عليه وهو في حجر عمه .

هكذا كان مصير كل من شهد كربلاء من اهل البيت لم يشفع بأحد منهم سن ولا ضعف .

ولكن زين العابدين سلم ، لانه كان مريضا لا يستطيع وقوفا ولا يطيق حركة ولا يتحمل خطوة ، ومع ذلك فان الذين قتلوا اباه واعمامه واخوته كادوا يقتلونه ، ولكن حميد بن مسلم ظل يقنعهم ويداورهم حتى انصرفوا عنه وتركوه لما به ، وهكذا سلم علي بن الحسين زين العابدين فكان منه وحده نسل الحسين ..

بعـــد كـــربـــلاء

علـــى انه تعرض بعد كربلاء لموقف كاد فيه ان يقتـــل، وذلك انه بعد ان سيق نساء البيت النبوي مع زين العابدين الـــى عبيـــد الله بن زياد الـــى الكوفة ، وادخل الجميـــع عليـــه ، تعجب ابن زياد ان يرى بيـــن من ادخلـــن شابـــا سليما . فقال له من انت ؟ قال : انا علـــي بـــن الحسين فقال ابـــن زياد : اليس قد قتل الله علـــي بن الحسين ؟ فقال له علـــي : قد كان لـــي اخ يسمـــى عليا قتله الناس . فقال ابن زياد : بل الله قد قتله . فقال علـــي : الله يتوفـــى الانفس حيـــن موتهـــا .

فغضب ابن زياد وقال : وبك جراة لجوابـــي وفيـــك بقيـــة للرد علـــي ، اذهبوا به فاضربوا عنقه .

فتعلقت به عمته زينب . وقالت يا ابـــن زياد حسبـــك من دمائنا ، واعتنقته وقالت والله لا افارقه فان قتلته فاقتلني معـــه .

وقال له علـــي : ابالقتل تهددني يا ابن زياد ؟ اما علمت ان القتل لنا عادة وكرامتنا الشهادة ؟

في دمشق

ساق ابـــن زياد نساء البيت النبوي ورؤوس رجالـــه الـــى دمشق ، وساق معهم زيـــن العابدين ، فاعرض علي عمـــن رافقوهم من الرجال فلم يكلم احدا منهم بكلمـــة حتـــى بلغوا دمشق .

وفي دمشق اصر زين العابدين علـــى يزيد بان يعـــاد

اليهم ما سلب منهم . وكان عجيبا منه ان يهتم بما سلب منهم بعد الاذى الذي جرى عليهم . ولكن زين العابدين قال : انــي اطالب بما اخذ منا لان فيه مغزل فاطمة بنت محمد ، ومقنعتها ، وقلادتها ، وقميصها .

الاســلام والـرق

الذيــن يأخذون علــى الاسلام انه لم يلغ الــرق الغاء كامــلا يتجاهلون ان الحياة الاقتصادية كانت تقوم في تلــك العصور علــى الرق ، وانه لا يكفــي ان يعلــن الاســلام الغــاء الرق وتحريمه ، بل لا بد في ذلك من التدرج تدرجا لا تضطرب منه الاوضاع الاقتصادية اضطرابا يخربهــا . والاسلام في كل احكامه كان عمليا واقعيا ، لذلك عمل اول ما عمــل علــى الغاء المنابع الاساسيــة للرق بحيــث يتقلص تقلصا طبيعيا مع الزمن . ثم حض علــى تحرير العبيد واعلن ان ذلك اكبــر مكسب للمثوبات الكبرى ،واعظم ما يتقرب بــه الانسان الــى خالقه . ولست الان بسبيل التوســع في هذا الموضوع . ولكن كان لا بد من هذه الاشارة لنــرى كيف طبق الرجال الذيــن تمسكوا بالاسس الاسلاميــة تعاليم الاســلام وكيف مشوا في تحرير العبيد الخطوات السليمة .

محــــرر العبيــد

ومن اولــى من الامام زيــن العابديــن بالاخذ بحقيقة الاسلام وجوهره اخذا كاملا ، وقد عمل بهذا النهج في كل شؤون حياته لا سيمــا بشأن الرق بحيث يحق لنا ان نطلق

عليـــه لقب محرر العبيـــد .

ففـــي الوقت الذي كانت تمتلـــىء فيه قصور الحكام بالارقاء نساء ورجالا وكانت الدولة تسيء تطبيق تعاليم الاسلام، كان علـــي بـــن الحسيـــن يقود حمـــلة تحرير الرقيق ويجعل من نفسه في ذلك قدوة للشعب . وكانت خطته كما يلـــي :

اولا : كان عنـــدما يصل الارقاء الـــى يده يعاملهـــم معاملة الانداد ، فاذا اخطأوا لم يعاقبهم ، بل يسجل اخطاءهم في دفتـــر عنده وينتظـــر حتـــى يأتـــي عيد الفطر فيجمعهم ويعرض عليهم اخطاءهم ملاطفا لهم فيعترفوا بتلك الاخطـــاء فيقول لهم : عفوت عنكم فهل عفوتم عنـــي ما كان مني اليكم؟ فيقولون : قد عفونا عنك وما اسأت ، فيقول : قولوا اللـــهم اعف عـــن علـــي بن الحسين كما عفا . ثم يحررهم ويعطيهم بعض المال ليبدؤوا حياتهم الجديدة .

ثانيا : لم يكن يبقى عنده عبدا سنة كاملة ، بل كـــان يشتريهم في الشهور التي تسبق رمضان ليسرع في تحريرهم وقـــت العيـــد .

ثالثا : وكذلك كان يفعل في عيد الاضحـــى ، فهـــو يشتـــري العبيـــد وليس له حاجة بهم ، فاذا جاء وقـــت الحج خرج بهم الـــى عرفات ، فاذا انتهـــى الحج حررهـــم وزودهم بالمال . ولم يكـــن ينقص عدد المحرريـــن في كل عيد عـــن العشريـــن انسانا .

والذي يزيد في تقديرنا لهذا العمل العظيم هو ان علـــي بـــن الحسين لم يكـــن ذا ثروة تساعده علـــى التوسع في هذه الخطة ، بل كانت موارد رزقه محدودة ، فكان ينفق كل ما

يصل الـــى يديه فيهذا السبيل وفي مساعدة ذوي الحاجات كمـــا سنذكـــــر .

مساعــدته للفقــراء

كان يخرج في الليل حاملا معه ما استطاع جمعه مـــن المال ، وربما حمل الطعام او الحطب ايضا حتـــى يأتــــي ابواب الفقـــراء ، فيقرعها بابا بابا ، ثم يناول من يخـــرج اليـــه ، ويكـــون مغطيـــا وجهه لئلا يعرفه احد . فلما توفي انقطـــع عـــن الفقراء ما كان يأتيهم فعرفوا انه هو الفاعل .

انســانيتـــــه

كان هشام بـــن اسماعيل(١) امير المدينة يسيء الـــى علي بن الحسين ويؤذيه اذى شديدا ، فلما عزل امر به الوليد ان يوقف للناس .. فقال هشام ما اخاف الا من علي بـــن الحسيـــن فكان الناس يمرون به فيشتمونه . فمر به زيـــن العابدين وسلم عليـــه وامر خاصته ان لا يعرض له احد .

ولما طرد اهل المدينة بنـــي امية قبل وقعة الحرة ، اراد مروان بـــن الحكم ان يستودع اهله ، فلم يقبل احـــــد ان يكونوا عنده ، الا علـــي بن الحسين ، فوضعهم مع عياله

١ ــ هو هشام بـــن اسمـــاعيل بن هشام المخزومي . وهو الذي ضرب سعيـــد بـــن المسيب حيـــن دعاه الـــى البيعة للوليد عبـــد الملك لمـــا عقد له ابوه بالخلافة فلبى سعيد ، وقـــال انتظر ما يصنع الناس ، فضربه وطاف به وحبسه . وهكذا انطبق عليـــه القول المأثور (من اعان ظالما سلطه الله عليـــه).

واحسن اليهم مع عداوة مروان المعروفة له ولبيته . وعال في وقعة الحرة اربعمائة امرأة من بني عبد مناف الى ان تفرق جيش مسلم بن عقبة .

وكان يقول لمن يشتمه : ان كنت كما قلت فاسأل الله ان يغفر لي ، وان لم اكن كما قلت فاسأل الله ان يغفر لك . وكان لا يسافر الا مع رفقة لا يعرفونه ويشترط عليهم ان يكون من خدم الرفقة فيما يحتاجونه ، ويقول اكره ان آخذ برسول الله مالا اعطي مثله .

وكان يأبى ان يؤاكل امه ، فقيل له يا ابن رسول الله انت ابر الناس واوصلهم للرحم فكيف لا تؤاكل امك ؟ فقال اني اكره ان تسبق يدي الى ما سبقت اليه عينها .

وكان يعجبه ان يحضر طعامه اليتامى والاضراء والزمنى والمساكين الذين لا حيلة لهم ، وكان يناولهم بيده . ومن كان منهم له عيال حمل الى عياله من طعامه .

كانت مجالسه دروسا في شتى المعارف الاسلامية

وقد اتخذ من المسجد ومن بيته مكانا يلتف فيه حوله طلاب العلم الوافدون من كل مكان ، وكانت مجالسه دروسا في شتى المعارف الاسلامية ، فمنذ سنة ٦١هـ الى سنة ٩٥ ، اي طيلة خمس وثلاثين سنة كان منزله وكان المسجد مدرستين يزدحم فيهما الطلاب عليه ، فبينما كانت الدولة مشغولة باستبدادها واستنزاف دماء الشعب وسلب امواله واضطهاد احراره ، كان علي بن الحسين مشغولا بنشر العلم وبث الثقافة وانارة الافكار وتهذيب

الاخلاق . فكثر تلاميذه والاخذون عنه في انواع العلم . واصبح تلك التلاميذ وتلاميذهم صفوة بناة الحضارة الاسلامية ونخبة رجال الفكر الاسلامي والتشريع والادب .

ولقد اخذ عنه علماء الحجاز ومن يأتي من البلاد البعيدة والقريبة في مواسم الحج ودونوا ما اخذوه عنه ورواه عنهم الناس .

فممن روى عنه او روى عمن روى عنه : الزهري، وسفيان بن عيينة ، ونافع ، والاوزاعي ، ومقاتل ، والواقدي ، ومحمد بن اسحاق ، والطبري ، وابن البيع ، واحمد بن حنبل ، وابن بطة ، وابو داود ، وصاحب الحلية ، وصاحب الاغاني ، وصاحب قوت القلوب ، وصاحب شرف المصطفى ، وصاحب اسباب النزول ، وصاحب الفائق ، وصاحب الترغيب والترهيب وغيرهم .

ومن رجاله من الصحابة جابر بن عبدالله الانصاري، وعامر بن واثلة الكناني ..

ومن التابعين سعيد بن المسيب ، وابو محمد سعيد بن جبير ، ومحمد بن جبير بن مطعم ، وابو خالد الكابلي ، والقاسم بن عوف ، واسماعيل ابن عبدالله بن جعفر ، وابراهيم والحسن ابنا محمد بن الحنفية ، وحبيب بن ابي ثابت ، وابو يحيى الاسدي، وابو حازم الاعرج ، وسلمة بن دينار . ومن اصحابه ابو حمزة الثمالي، وفرات بن احنف ، وعلي بن رافع ، وابو محمد القرشي السدى الكوفي ، وجابر بن محمد بن ابي بكر وايوب بن الحسن ، والضحاك بن مزاحم الخراساني ،

وطاووس بـن كيسان . وحميد بـن موسـى الكوفي ، وابان بـن تغلب ، والفرزدق الشاعر وغيرهم .

مؤلفاتـه

من آثاره المدونة والتـي تعتبر من اوائل التأليـف في صدر الاسلام :

١ ــ الصحيفة الكاملة . وقد استنسخ الناس منها قبل عهد الطباعة نسخا لا تعد ولا تحصـى بالخطوط الجميـلة النادرة المثيـل والمزينة بجداول الذهب . اما في عصـور الطبـاعـة فقد طبعت طبعات كثيرة .

وشرحها العلمـاء شروحا عديدة منها شرح بهاء الدين العاملـي المسمـى حدائق المقربيـن . واحسـن شروحها شرح السيد علـي خان الشيرازي .

وهذه الصحيفة كانت منها نسخة عند ولده زيد الشهيد ثم انتقلت الـى اولاده والـى اولاد عبدالله بن الحسـن . مضافا الـى ما كان عند الامام محمد الباقر .

وتعتبـر من اعلـى درجات البيان العربـي باسلوبها ومعانيهـا ، وهـي حرية بدراسات واسعة .

٢ ــ رسالة الحقوق ، وهـي من الاعمال الفكريـة الساميـة في الاسلام تحتـوي علـى توجيهات ودراسات وتعليمـات وقواعد في السلوك العام والخاص من ادق مـا يعرفه الفكر الانسانـي .

الزعيـم الشعبـي

ان المزايا التـي كان يتمتع بها هذا الامام جعلت منه

زعيما شعبيا محبوبا الى اقصى حدود الحب ، مهابا الى اعلى درجات المهابة . والحادثة الاتية وحدها دليل على ما كان يكنه له الشعب من حب واحترام وتقدير .

فقد حج هشام بن عبد الملك ، وهو الرجل الثاني في الدولة ، فطاف بالبيت ، وجهد ان يصل الى الحجر الاسود فيستلمه فلم يستطع لشدة الزحام ، فنصب له منبر وجلس عليه ينظر الى الناس ومعه حواشيه واتباعه، اذ اقبل علي بن الحسين فطاف بالبيت ، ولم يكد يطل بطلعته على الجماهير المحتشدة حتى تطلعت بابصارها اليه ترمقه بنظرات الحب والتقدير والاعجاب ثم افرجت له بين صفوفها محدقة به احداق الاجلال والاكبار . فقال رجل من حاشية هشام من هذا الذي قد هابه الناس هذه الهيبة ؟ فقال هشام متجاهلا : لا اعرفه . وكان الشاعر الفرزدق حاضرا ، فاوحى له هذا المشهد وهذا التساؤل بقصيدة من احسن شعره قال فيها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا التقي النقي الطاهر العلم
سهل الخليقة لا تخشى بوادره
يزينه اثنان حسن الخلق والكرم
حمال اثقال اقوام اذا فدحوا
رحب الفناء اريب حين يعتزم
يكاد يمسكه عرفان راحته
ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم

وليس قـولك من هذا بضـائـره
العرب تعـرف من انكرت والعجـم

وقد جـرت هذه القصيدة بلاء علـى الفرزدق اذ امر هشام يحبسه في عسفـان بيـن مكة والمدينة . وارسل اليـه زيـن العابديـن بمبلغ من المال فـرده وقال انـما قلت ما قلته غضبا لله ورسوله فمـا آخـذ عليـه اجرا . فقال الامام نحـن اهل بيت لا يعـود الينا ما اعطينـا . فقبله الفرزدق .

جعفر الصادق

قال الحسين بن علي الوشاء وهو يتحدث عن جعفر الصادق : « ادركت في هذا المسجد ـ يعني مسجد الكوفة ـ تسعمائة شيخ كل يقول : حدثني جعفر بن محمد » .

ويقول المؤرخ الهندي السيد امير علي : « ولا مشاحة ان انتشار العلم في ذلك الحين قد ساعد على فك الفكر من عقاله فاصبحت المناقشات الفلسفية عامة في كل حاضرة من حواضر العالم الاسلامي ، ولا يفوتنا ان نشير الى ان الذي تزعم تلك الحركة هو حفيد علي بن ابي طالب المسمى (جعفر) والملقب (بالصادق) وهو رجل رحب افق التفكير بعيد اغوار العقل ، ملم كل الالمام بعلوم عصره ، ويعتبر في الواقع اول من اسس المدارس الفلسفيية المشهورة في الاسلام ، ولم يكن يحضر حلقته العلمية اولئك الذين اصبحوا مؤسسي المذاهب فحسب ، بل كان يحضرها طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الانحاء القاصية » .

هذان قولان لمؤرخين واحد قديم وواحد حديث تقع بينهما اقوال لا تحصى للمؤرخين مروا تباعا من هاتيك العهود البعيدة الى هذا العهد القريب ، وكلها تطبق على ما كان عليه جعفر الصادق من تميز في العلم والفكر والتوجيه السليم والقيادة الحكيمة .

وكي يقول المؤرخ القديم انه ادرك تسعمائة شيخ في مسجد الكوفة يلقون الى طلابهم ما القاه اليهم جعفر الصادق من علم ، فان ذلك يعني ان تسعمائة مدرسة كانت تنعقد حلقاتها في المسجد الجامع مشتملة على طلاب من اقطار شتى ، وافدين الى الجامعة الكبرى للتزود بالعلم الغزير والمعرفة الواسعة . ويوم نعلم ان رجلا هو مصدر التثقيف لتسمائة مدرسة عالية فأننا ندرك ما كان عليه هذا الرجل من الاحاطة والشمول والحنكة .

عصر الامام الصادق

ولد جعفر الصادق في المدينة العام الثمانين او الثالث والثمانين للهجرة وتوفي فيها سنة ١٤٨ وعمره ٦٥ او ٦٨ سنة عاش فيها مع جده الامام علي بن الحسين ١٢ سنة واياما او ١٥ واياما ومع ابيه الامام محمد الباقر بعد جده ١٩ سنة وبعد ابيه ٣٤ سنة .

وهي بقية ملك هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد وابراهيم بن الوليد ومروان بن محمد الامويين. والسفاح العباسي وتوفي بعد انقضاء عشر سنين من ملك المنصور العباسي .

اسرته

هو ابن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي ابن ابي طالب وامه فاطمة بنت القاسم بن محمد بن ابي بكر وامها اسماء بنت عبد الرحمان بن ابي بكر . ولذلك كان

يقول الصادق : لقد ولدنـــي ابو بكر مرتين .

ثقـــافتــــه

لعل اول ما يتبادر الـــى الذهن عند ذكر الامام الصادق ان ثقافته لا تتجاوز المجال الدينـــي ، ولا تتعدى التفســـير والحديث والفقه وما الـــى ذلك مما لا بد منه لامام في مثـــل منزلة جعفـــر الصادق ، يفترض فيه ان يكون عارفا بكل مـــا له ارتباط باحكام الشريعة ومشاكلها ..

ولكن الامر كان عند الصادق اوسع من هذا ، فقد احاط احاطة كاملة بعلوم شتـــى تتجاوز الفقه وما اليه وتشتمل على جوانب متعددة من علوم مختلفة كانت في عهده قمة الثقافات العالميـــة . ثم اخذ في تأسيس المدارس المستندة علـــى هـــذه العلوم فرأينا بيـــن خريجي معاهده : الفقيه والمحدث والمفسر والفيلسوف والرياضي والكيماوي والطبيبوالشاعروالكاتب والمثقف ثقافـــة عامـــة .

وهذا ما جعل ابـــن حجر يقول في كتابه (الصواعق) : نقل الناس عـــن جعفـــر بـــن محمد من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميـــع البلدان .

وجعل الدكتور يحيـــى الهاشمي يقول : ان اسم جابر ابن حيان الكوفـــي ينزل في تاريخ الكيميـــاء منزلة ارسطو في تاريخ المنطق ولم يكن لجابر استاذ غير الامام الصادق .

والعالم الغربـــي هوليارد يقول : ان جابرا هو تلميـــذ جعفـــر الصادق وصديقه وقد وجد في امامه الفذ سندا ومعينا وموجها لا يستغنـــى عنه وقد سعـــى جابـــر لان يحـــرر

الكيميــاء بارشاد استاذه من اساطير الاوليــن التــي علقت بها من الاسكندرية فنجح في هذا السبيل الــى حد بعيد .

العوامل التــي جعلت للصادق كل هذا الاثر حتــى ادت الى ان مذهبــا اسلاميــا كبيرا ينسب اليه فيقال عنه المذهب الجعفري ، في حيــن ان جعفر الصادق هو واحد من عدة ائمة لهم من المنزلة مثل ما لجعفر الصادق ولاقوالهم من التقديــر نفس مــا لاقواله .

العوامل التــي ميزته هو فجعلت لاسمه هذا الذيــوع واوجبت هذه النسبة اليه هــي انه عاش في فترة كــان فيها اثر السلطة ضعيفا فهــي لا تقوى علــى الاستمرار في اضطهاد الاراء وتكبيل العلماء ، فكان له حرية نسبيــة ادت به الــى الانطلاق العلمــي الواسع الذي شهدنا اثــره .

فقد عاش كمــا رأينــا في اواخر الدولة الامويــة في بقيــة ملك هشام بــن عبــد الملك ومن تلاه من الامويين ، وفي هذه الفتــرة كانت الدولة قد اخذت بالانحلال وكــان بعضها قد اخذ يأكل بعضا فانشغلت بنفسها عن غيرها فتنفس الناس بعض التنفس ، واطل بعض النور متسللا من بعــض المنافذ ، فشهدنا بروز العديد من العلــماء الذيــن كــان الاضطهاد من قبل يأخذ عليهم كل سبيل . فرأينا في التفســير والنسب امثال محمد بن السائب الحلبــي والسدّي الكبــير اسماعيل بن عبد الرحمان وابي حمزه الثمالي . وفي الفقه والحديث امثال الامام ابــي حنيفة وتلميذه ابي يوسف والامام مالك بــن انس ومحمد بن عبد الرحمان بن ابي ليلى وفي علوم اللغة امثال معاذ بن مسلم الهراء الكوفي واضع علم الصرف،

وفي الفلك نوبخت وبنيه . وهذا يشمل كذلك اوائل الدولة العباسية ايام السفاح واوائل عهد المنصور حيث كانت الدولة متفرغة لتركيز قواعدها وتثبيت امورها . ولها في هذا ما يصرفها عن اضطهاد الفكر والمفكرين ، كما وقع بعد ذلك لابي حنيفة وغيره من الائمة والعلماء .

هذه الحرية النسبية مكنت الصادق من ان ينطلق في ميدان رحب ويعكف على نشر العلم ويدلي باراء اهل البيت النبوي في التشريع والتوجيه فكانت مدرسته الكبرى التي خرج منها الاساتيذ التسعمائة الذين تولوا انشاء جامعة الكوفة والتدريس فيها ، ثم كانت تلك النهضة العلمية العظيمة التي شملت العالم الاسلامي كله .

يقول الشيخ الازهري الاستاذ ابو زهرة :

« ما اجمع علماء الاسلام على اختلاف طوائفهم في امر ، كما اجمعوا على فضل الامام الصادق وعلمه ، فائمة السنة الذين عاصروه تلقوا عنه واخذوا ، اخذ عنه مالك واخذ عنه طبقة مالك كسفيان بن عيينه وسفيان الثوري وغيرهم كثير ، واخذ عنه ابو حنيفة مع تقاربهما بالسن واعتبره اعلم الناس لانه اعلم الناس باختلاف الناس »

مدرسة الصادق

كانت المدينة هي مقر مدرسة الصادق واتخذ من المسجد النبوي مكانا للتدريس فأقبلت الوفود اليها من كل مكان ، ويذكر الرواة ان عدد المنتمين اليها بلغ الاربعة الآلاف من اهل العراق والحجاز وخراسان والشام وفيهم من كبار

العلماء والفقهاء والمحدثين الذين اصبحوا ائمة ومؤسسين لمذاهب اسلامية ، كما فيهم الشعراء والادباء .

وعكف طلاب الصادق على التأليف وتدوين العلوم، فألف ابان بن تغلب (معاني القرآن) والف المفضل بن عمر كتاب (التوحيد) والف جابر بن حيان كتابه في الكيمياء . كما انصرف غير هؤلاء الى التأليف امثال زرارة بن اعين وابي بصير ومحمد بن مسلم واسماعيل بن ابي خالد وامثالهم حتى بلغ عدد المؤلفات اربعمائة كتاب لاربعمائة مؤلف من تلاميذ الامام الصادق .

وكان يحض طلابه على التأليف ويحرضهم على التدوين اذ لم يكن التأليف متأصلا في البيئات الاسلامية ، بل لا يكاد يكون معروفا ، وكان نادر الحدوث . فكان من منهج الصادق الحث عليه لتترسخ قواعده ويغدو مبدأ عاما ، فكان يقول مثلا لاصحابه : اكتبوا فانكم لا تحفظون حتى تكتبوا وقال للمفضل بن عمر : اكتب وبث علمك في اخوانك ، فان مت فورث كتبك بنيك . وقال لاصحابه : احتفظوا بكتبكم فانكم سوف تحتاجون اليها .
فانكم سوف تحتاجون اليها . وهكذا يمكن القول انه هو واضع اساس في التأليف في الاسهام .

كما كان يعنى بتخريج الكتاب والشعراء فممن اشتهر من الشعراء في عصره وبعضهم كان من مادحيه : السيد الحميري واشجع السلمي والكميت وابنه المستهل واخوه الورد وابو هريره الابار وابو هريرة العجلي وجعفر بن عفان والعبدي وسليمان بن قته العدوي وسديف وابراهيم بن

هرمة ومنصور النمــري .

ويرى بعض الباحثيــن ان اسباب نجـــاح مدرســة الامام الصادق هذا النجاح العظيم يعود الــى ثلاثة عوامل :

١ ـ شخصيــة جعفــر الصادق .
٢ ـ المحتــوى الفكري للمدرسة .
٣ ـ جذور المدرسة الفكرية .

فمــن ناحيــة المحتوى الفكري فان محتواها يمــتاز بالتماســك الفكري الوثيق والترابط فيمــا بيــن افكارها واتجاهاتها ومثل هذا التماسك يشد اتجاهـــات المدرســة بعضها الــى بعض ويؤدي الالتزام باي جزء منه الــى الالتزام بالجزء الاخر فالمدرسة الجعفريةمثلا فتحتباب الاجتهاد وتركته مفتوحا ، وقد كان لهذا العامل تأثير كبير علــى نمو المدرسة بعــد عصر الصــــادق .

اما جذور المدرسة الفكرية فليس الصادق في الحقيقة هو المنشــىء الاول للمدرسة ، بل ان الائمة من آبائه هــم المؤسسون الاول ، ولكــن المدرسة انطلقت في عهـــده انطلاقتهـــا الواســع .

فمنذ عهــد الامام زيــن العابديــن علــي بن الحسين كانت المدرسة قد تركزت وامتدت اثارها الــى جميع انحــاء العالم الاسلامــي ـ كمــا رأينا في مقال سابق ـ ثم جــاء الامام محمــد الباقــر بــن علــي بن الحسين ، فمضــت المدرسة في طريقها الصاعد مؤلبة حولها رواد العلم من كل مكــان ، بالقدر الذي سمح لها به الجو الارهابــي المسيطر ، ولما تولــى الزمام جعفــر الصادق ، وكانت ظروف الدولة

لا تسمح لها بالتضييق الشديد استطاع الصادق ان يفعل ما فعل .

المبادىء الكبرى التي اعتمدها الصادق

١ ــ كل ما فيه خير للمجتمع فهو حلال ، وكل من اضطر الى شيء فهو له مباح ، فالجائع الذي تضيق به سبل العيش لا يعاقب على السرقة ، والمدين الذي يعجز عن الوفاء لا يحبس ولا يحجز له ما لا بد له منه من مسكن ومأكل وملبس.

٢ ــ لكل بالغ عاقل صفة ذاتية تؤهل للالزام والالتزام بما له وما عليه . والشرط الرئيسي لصحة الالزام والالتزام ان يكون العمل حقا للملتزم وسائغا في نفسه لا يستدعي ضررا على من الزم او التزم ولا على غيرهما . فكل معاهدة تخرج عن اختصاص المتعاهدين او تضربهما او باحدهما او بغيرهما او تكون مجهولة الحقيقة فهي تضليل يجب الغاؤها . وكل تجارة او زراعة او صناعة فيها شائبة الضرر فهي فاسدة . وكل من نذر او اقسم او عاهد الله أن يفعل ما يضربه ، وبغيره فنذره وقسمه وعهده لغو .

٣ ــ في الفقه : شدد في الطلاق واشترط فيه حضور شاهدين عدلين ، وان يجري عند مرجع صالح بصيغة معينة ، وضيق دائرته الى اقصى الحدود بفرضه القيود الصارمة على المطلق والمطلقة وصيغة الطلاق وشهوده . ولم يجز وقوع الطلاق ثلاثا بلفظ واحد .

وفي القضايا الاخرى لم يأخذ بالقياس واجاز الوصية لوارث واعتمد في الارث قاعدة الاقرب فالاقرب فجعل

الاولاد والاباء اولى بالارث من الاخوة والاجداد ، والاخوة اولى من الاعمام والاخوال . فالبنت عنده تحجب عمها كما يحجبه الابن من غير فرق . وكذلك اعتمد نفس القاعدة في النفقات(١) .

٤ ـ الثقة بالانسان ، فقد جاء في اقواله : « بني الانسان على خصال فمهما بني عليه فانه لا يبنى على الخيانة والكذب ».

وكل من يدين بدين يرتب على اعماله اثار الصحة ما دامت موافقة لما يعتقد ، وان خالفت الاسلام .

الصادق رائدا اجتماعيا

اذا كان الصادق قد عني بالتعليم فهو لم يهمل التربية بل لقد عني بها اشد عناية ، وكانت تربيته من نوع التربية الاجتماعية التي تحاول ان تخلق مجتمعا كريما اصيل الاخلاق متماسك الجوانب ، ويمكن تلخيص منهجه بهذه الجملة التي قالها لاصحابه فيما كان يقول لهم من مناهجه التربوية : (كونوا زينا لنا ولا تكونوا شينا علينا ليقول الناس رحم الله جعفر بن محمد ، لنعم ما ادّب اصحابه) .

وقال لهم : اوصيكم بتقوى الله واداء الامانة لمن ائتمنكم وحسن الصحبة لمن صحبتموه وان تكونوا لنا دعاة صامتين .

فقالوا : وكيف ندعو ونحن صامتون ؟ قال : تعملون

---

١ ـ اهل البيت .

بمـــا امرناكم به من العمــل بطاعة الله وتعاملون النـــاس بالصدق والعدل وتؤدون الامانة وتأمرون بالمعروف وتنهــون عـــن المنكــر ، ولا يطلع الناس منكم الا علـــى خير ، فـأذا راوا ما انتم عليه علموا فضل ما عندنا فتنازعوا اليه .

وله في النهـــي عن التعصب والعصبية قول هو خير ما يقال في هذا الموضوع ، بل لو انه اتخذ مبدأ انسانيا ونفذ على حذافيره علـــى نطاق عالمــي واسع سواء بيـــن الافـــراد او الجماعات والدول لنجت الانسانية من كثير من الشرور التي لا يبعثها الا التعصب الاعمـــى .

قال : (ليس من العصبية ان تحب اخـــاك ولكـــن العصبيـــة ان ترى شرار قومـــك خيرا من خيار غيرهم)

وقد بدأت في عصره تطغـــى الروح الانهزامية في المجتمع بدعوى الزهـــد والايغال في التصوف والاستغراق بـــــه استغراقا يخرجه عـــن حقيقته الخيرة . لذلك كان يحث على الجديـــة في الحيـــاة ، والكفاح من اجل العيش الكريم . فكان من اقـــوالـــه في ذلك : (ان الله يحب الجمـــال والتجمـــل ويبغض البؤس والتباؤس ، فان الله اذا انعم علـــى عبـــده بنعمة احب ان يرى عليـــه اثرها) ، قيل له كيف ذلك ؟

قال: ينظف ثوبه ويطيب ريحه ، ويجصص داره ويكنس افنيتـــه .

وقد كان كثيرا ما يحلـــي وعظه بالنكتة والطرفة كمـــا قال حيـــن مر به رجل وهو يتغدى فلم يسلم ، فدعاه الـــى الطعام ، فقيل له : السنة ان يسلم ثم يدعـــى ، وقد تـــرك الســـلام علـــى عمـــد فقال : هذا فقه فيه بخل .

وكانت انسانيته تبلــغ اسمــى الحدود . فقد دخل عليه مرة سفيــان الثوري فرآه متغير اللون فسأله عن ذلك ، فقال : كنت نهيت ان يصعدوا فوق البيت ، فدخلت فاذا جارية من جواري ممن تربــي بعض ولدي قد صعدت في ســلم والصبــي معهــا ، فلما بصرت بــي ارتعدت وتحيرت وسقط الصبــي في الارض فمات . فما تغير لوني لموت الصبــي وانمــا تغير لونــي لما ادخلت عليها من الرعب . وكان قد قال لها مرتيــن : انت حرةلوجه الله لا بأس عليك .

الصـادق والشعـر

لقد مدح جعفــر الصادق بشعر كثير ومن اشهــر مداحه السيد الحميري ومما قيل فيه ما قاله عبدالله بــن المبـــارك :

انت يــا جعفر فــوق المــدح والمــدح عنــاء
انمــا الاشراف ارض ولهــم انــت سماء
جاز حد المــدح مــن قد ولدتــه الانبيــاء

علــى انه هو نفسه كان يقول الشعر احيانا فمن ذلــك قــولــه :

لا اليســر يطرؤنــا يــوما فيبطــرنــا
ولا لازمــة دهــر نظهــر الجزعــا
ان سرنــا الدهــر لــم نبهــج لصحته
او ساءنا الدهــر لم نظهــر له الهلعــا
مثل النجــوم علــى مضمــار اولنــا
اذا تغيــب نجــم آخر طلعــا

وفي البيت التالـــي دلالة علـــى الحياة العلمية التـــي كـــان يحياها مع تلاميذه بين الامـــلاء والتدوين والتأليف مما لا بد فيه يومذاك من وصول المداد الـــى الانامل والايدي والملابس :

لا تجزعـــن من المداد فأنـــه
عطر الرجـــال وحليـــــة الاداب

ولما مات وحمل الـــى البقيع انشد ابو هريرة العجلي:

أقول وقد راحـــوا به يحملونـــــه
علـــى كـــاهل مـــن حامليـــه وعاتق
اتـــدرون ماذا تحملون الى الثـــرى
ثبيرا ثوى من رأس علياء شاهـــق
غـــداة حثا الحاثون فوق ضريحـــه
أبا واولـــى كان فـــــوق المفـــارق

الخليل بن احمد الفراهيدي

مدون اللغة العربيــة

أ

المبدعون في كل امة قلة يجود بهم الزمن بين الحــين والحين . وفي تاريخنا بعض من هؤلاء ممن عاشوا لمبدأ ولرأي ولفكرة ، زاهديــن ببهارج الحياة وزيف العيش ، ممــا يغري غــيرهــم .

وفي الذروة منهم الخليل بــن احمد الفراهيدي(١) الذي اسبغ علــى اللغة العربية من الفضل ما جعله من اخلــد الخالدين في تاريخنا العلمــي .

الفقر والحرمان ثم الرحيل

ولد الخليل في البصرة سنة ١٠٠ هجرية وتوفــي سنة ١٦٠ . وفي قول انه عاش اربعا وسبعيــن سنة . ومضت حياته الاولــى في مسقط رأسه كفاحا في سبيل العلم وانكبابا علــى البحث والدرس ، مع فقــر طاغ يهد العزم ويقصم الظهــر ، فرأى ان يترك البصرة الــى بلد آخر يستطيع ان يجمع فيه بيــن ما هو في سبيله من انصراف الــى المعرفــة وبين ما يكفل له العيش الكريم ، وامضــى في ذلك عزمه ودنا

١ ــ الفراهيدي : نسبة الى فراهيد بطن من ازد عمان .

يوم نزوحه عـــن البصرة ، وعلم البصريون بذلك فخرج لتشييعه ثلاثة الاف رجل ما فيهم الا محدث او لغوي او اخباري ، فلما صار في المربد ، قال يا اهل البصرة : يعز علـــي فراقكم ، والله لو وجدت كل يوم كيلجة باقلاء(٢) ما فارقتكم ..

ويعلق علـــى ذلك مؤرخ بقوله : فلم يكـــن فيهم من يتكفـــل له بذلـــــك .

فانت ترى ان الذيـــن اهمهم رحيله وساءتهم هجرته لم يكونوا الا من صنفه علمـــاء يعيشون للعلم والفكر ، فليـــس فيهم صاحب سلطان ولا كانز اموال ، ولعل هؤلاء المشيعيـــن لو استطاعوا الرحيل مثله لرحلوا هم ايضا كما رحل .ولذلك لا مجال للعتب عليهم بان لم يوجد بينهم من يتكفل له كل يـــوم بكيلجة باقلاء ، واذا شئنا التعبير باصطلاحنا الحديث قلنا : من يتكفل له (بطبق من الفول) .

هكذا كانت تمضـــي حياة المفكريـــن والعلماء في ظـــل الحكم الفردي الاستبدادي الغاشم الذي انتهـــى اليـــه العالم الاسلامي منذ العام «٤١» الهجري وهكذا كان رجل مـــثل الخليـــل بن احمد لا يستطيـــع أن يجد في يومه كيلجة باقلاء ، ولا يستطيـــع واحد من ثلاثة آلاف عالم ان يضمـــن له ذلك .

واننا لنطأطىء الراس اجلالا لأولئك العلماء في تلـــك العصور الذيـــن استطاعوا ان يصمدوا للطغيـــان ويصبروا علـــى الحرمان فيكونوا هم وحدهم مظهر حضارتنا وحقيـــقة تاريخنـــا . واذا كان لنا ما نفاخر به في ماضينا فهـــو تراثهم الذي خلفوه وكفاحهم الذي واصلوه اما المتسلطون فهم سبتنا

---

٢ ــ الكيلجة : كيل كـــان معروفا لاهل العراق . والباقلاء : الفول .

التــي منهــا نبــراً .

في خــراسان

مضــى الخليل عن البصرة مغذا السير حتــى اناخ في خراسان ، ويقول مؤرخ : « فأفاد فيها اموالا » . وهنا نتساءل عــن حقيقــة هذه الاموال وعــن مصدرها ؟

اكبر الظــن انها انمــا تعد اموالا بالنسبة لما كــان فيه بالبصرة ، لا بالنسبة الــى ما يمكن ان تكون عليه الاموال وأما سببهــا فهو قطعا سبب كريم .

ودليلنا علــى ذلك ان سليمــان بن علي والــي الاهواز ارسل الــى الخليــل طالبا اليــه ان يؤدب له ولده ، فاخرج الخليــل لرسول سليمــان خبزا يابسا وقال ما دمت اجده فلا حاجة لــي الــى سليمان فقال الرسول فما ابلغه عنــك ؟ فقــال :

ابلغ سليمــان انــي عنه في سعــة
وفيغنــى غير انــي لست ذا مال
شحــا بنفســي ، اني لا ارى احدا
يموت هزلا ولا يبقى على حــال
فالرزق عــن قدر لا العجز ينقصــه
ولا يزيد ك فيــه حول محتــال
والفقر في النفس لا في المال تعرفــه
ومثل ذاك الغنىفي النفس لا المال(١)

---

٣ ـ ياقــوت الحمــوي .

لقد رفض الخليل دعوة والـــي الاهواز وما فيها مـــن الرفاه والنعيم لانها ستستعبد نفسه وتقيد فكـــره وتجعـــله واحدا من حاشية المسيطريـــن ، وهو قد اعد نفسه لما هو اسمـــى من ذلك ...

ويزيد مؤرخ آخر علـــى ما مر ناسبا القصة لا الـــى سليمـــان بـــن علـــي بل الـــى سليمان بن حبيب الازديوالي فارس والاهواز ، ويقول انه كان قد عيـــن للخليل راتبا ، ثم كتب اليـــه يستدعيـــه فكتب الخليـــل جوابه الابيات المتقدمة فقطـــع عنـــه سليـــمان الراتب(٤) فانشد الخليل هذيـــن البيتيـــن :

ان الـــذي شـــق فمـــي كـــافـــل
للـــرزق حتـــــى يتوفـــانـــي
حـــرمتنـــي مالا قليـــلا فمـــــا
زادك فـــي مـــالك حرمـــانـــي

فبلـــغ البيتان سليمـــان فكتب اليه يعتذر واضعف له الراتب فقـــال الخليـــل :

وزلـــة يكثـــر الشيطان ان ذكرت
منهـــا التعجـــب جاءت من سليمـــانا
لا تعجبـــن لخير زل عـــن يـــده
فالكوكب النحس يسقي الارض احيانا

وهكذا نـــرى ان الوالـــي عيـــن راتبا للخليـــل املا بان يغريه بان يصبح من الاتباع المشيديـــن به فارسل يستدعيـــه فرفض الخليـــل الدعوة لانه يعلم مرماها ، ولمـــا

---

٤ ــ الفلاكة والمفلوكون .

ذهبت الغاية من دفع المال قطعة الوالي ، ولما سمع الشعر خاف مغبة الهجاء فعاد يضاعف المال اتقاء للهجو لا تقديرا للعلم

ومن العجب ان هذا الفقير القانع كان بعلمه سبب الغنى للناس وهو في فقره وخصاصته . قال النضر بن شميل : أكلت الدنيا بعلم الخليل بن احمد وكتبه وهو في خص لا يشعر به . وقال ايضا : اقام في خص بالبصرة لا يقدر على فلس ،وعلمه قد انتشر وكسب به اصحابه الاموال .

ويصفه النضر قائلا : كان الخليل اشعث الرأس شاحب اللون شعث الهيئة منخرق الثياب منقطع القدمين مغمورا في الناس لا يعرف .

وانها لمأساة العلم في تلك العصور ان يكون مثل هذا العالم العظيم على هذه الصورة الشوهاء من شحوب وتشعث وانخراق وتقطع ، وان يزويه الفقر والحرمان فيجهل مكانه ولا تعرف مكانته .

الشكل

لم يكن الخط في صدر الاسلام معجما ولا مشكولا . ولما فشا اللحن وفسدت السلائق كان لا بد من معالجة ذلك بوسيلة ما فابتكر ابو الاسود الدئلي المتوفى سنة ٦٩ هـ طريقة توضح صحة الكلمة فجعل علامات للحركات الثلاث، فجعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف والكسرة نقطة تحته ، والضمة نقطة بين يديه وجعل التنوين نقطتين .

ولجعل الحركات بارزة للقارىء فضل ان يكتبها بمـــداد يخالف المداد المكتوبة به الكلمات . ولا يزال مثـــال لهـــذا التشكيل موجودا في قرآن منسوب الـــى خط علـــي بـــن ابـــي طالب عليـــه السلام تحتفظ بـــه المكتبة الرضوية في مدينـــة مشهد بايران ..

وحتـــى هذا الوقت لم يكـــن في الكلمات من اعجام فلم يلتبس الامر علـــى القارىء ، ولكن لما وضع بعد ذلك نصر بن عاصم ويحيـــى بـــن يعمـــر نقط الاعجام اشتبه الحال لعدم امكان التمييز بيـــن نقط الاعجام ونقط الشكل ، فكان لا بد من حل ، فكان الخليل بن احمد صاحب الحل حيث وضع الشكل بصورته المعروفة حتـــى اليوم واضاف اليـــه اشارة المـــد واشارة الشدة ، كمـــا وضع اشارة خاصة للهمزة ولالـــف الوصل . فكان مجمـــوع ما ابتكره ثمانـــي علامات ، كلـــها حروف صغيرة او ابعاض حروف بينها وبيـــن ما دلت عليـــه اجلـــى مناسبة بخلاف علامات ابـــي الاسود فانها مجرد اصطلاح لم يبـــن علـــى مناسبة بيـــن الدال والمدلول ..

وقد الف الخليـــل كتابا مفصلا في هذا الموضوع ، ولا تزال قاعدته هـــي المعمـــول بها لم يزد عليها احد شيئا .

العـــروض

علم العروض مما ابتكره الخليل ولم يسبقه اليـــه سابق ، وقد ملأ بوضع قواعـــد هذا العلم فراغا في اللغـــة العربية كان من الواجب ملؤه ، فقد كان الشعر بدون قواعـــد تربط اوزانه وتحدد اركانه ، فحصر الخليل اقسامـــه في خمـــس

دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحرا .

ومن اروع ما في هذا الموضوع انه جاء دقيقا كاملا لـم يستطـع احد بعده ان يستدرك عليه شيئا او يزيد امرا ، اذا استثنينا من ذلك البحر الذي زاده تلميذه الاخفش وسماء (الخبب) علـى ان لهذا البحـر اصلا عند الخليل .

ومن الطرائف التـي وقعت له وهو يعاني تركيز بحور الشعـر ان ولدا له دخل عليه وهو يقطـع بيتا من الشعر فذعـر مما سمع وخرج الـى الناس يقول ان اباه قد جـن . وقرأ رجل عليه العروض فلم يفهم فقال له الخليل : قطع هذا البيــت :

اذا لـم تستطـع امرا فدعه
وجاوزه الـى مـا تستطيـع

قال الخليل : فشرع الرجل في تقطيعه علـى مبلـغ علمـه ثم قام فلم يرجع الـيّ . فعجبت من فطنته لما قصدته في البيـت مع بعـد فهمـه .

الموسيقـى

هذا الفقير المعدم المنصرف الـى البحث والكشف لـم ينس الموسيقـى فجعلها بعض همه فألف فيها كتابا جمع فيه اصناف النغم وحصر انواع اللحون وحدد ذلك كله ولخصه وذكـر مبالغ اقسامه ونهايات اعداده ، فصار كتابه المرجـع العربـي الاول لكل طارق لهذا الموضوع . وقال بعـض الباحثيـن ان مهارة الخليـل في علم الالحان هـي التـي اعانتـه علـى علـم العروض .

كتاب العين

كما انه لم يكن في اللغة العربية حتى عصر الخليل قواعد للشكل والعروض ولم يكن فيها مؤلفات في الموسيقى ، كذلك لم يكن فيها معاجم لمعرفة صحة الكلمات ومعانيها . بل الاصح ان نقول ان اللغة العربية لم تكن مدونة قبل الخليل ، فهو المدون الاول لها وواضع اول معجم فيها.

ومن بعد الخليل جاء الازهري ، فألف كتاب التهذيب ، وابن سيده فألف كتاب المحكم ، ثم الجوهري فألف كتاب الصحاح ، واذا كان المؤلفون لم يزيدوا شيئا على ما وضع الخليل في الشكل والعروض فان كتب اللغة اخذت بعد الخليل بالتطور والتحسن حتى كان كتاب الصحاح المتقدم ذكره فكان اسهل ترتيبا لانه راعى ترتيب الحروف الهجائية في اول الكلمة واخرها وتبعه المؤلفون على ذلك . واستغنى الناس بهذا عن كتاب العين ، ولكن بقي فضل الابتكار للخليل .

خطته في كتاب العين

كان السبب في تسمية الكتاب بالعين ان الخليل احتار باي حرف يبدأ كتابه ، اذ كان عليه ان يبدأ بحرف الالف ثم ما يليه من الحروف ، ولكنه رأى ان حرف الالف حرف معتل فلم يجز الابتداء به ، ولما فاته حرف الالف وهو اول الحروف كره ان يجعل الثاني اولا وهو الباء الا لسبب ، وبعد استقصاء وجد ان مخرج الكلام كله من الحلق فجعل اولاها بالابتداء به ادخلها في الحلق ، وقد وجد ان العين اقصاها في الحلق ،

فجعل حرف العيـــن الحرف الاول ، ثم ما قرب مخرجه منهـــا بعـــد العيـــن .

ويبدو ان الكتاب سمـــي كتاب (العين) لان اول حرف كان فيه هو حرف العيـــن ، ولكن من غير المعلوم ما اذا كان هـــو نفسه سمـــاه هذا الاسم ام ان بعض من جاء بعـــده هو الذي سمـــاه .

ضجة حول كتاب العين

لم يسلم هذا الكتاب من تنازع فيه ، فقد وجد من يقول انه ليس للخليل اصلا ، ومن يقول انه ابتدأ به واكمله غيره وان كل ما له فيه هو ما جاء عـــن حرف العين وان الليثبن نصر بـــن سيَّار هو الذي اكمـــله .

والذيـــن قالوا هذا القول رووه بحكايات مختلفة ، ومما قيل في ذلك : ان الخليل كان منقطعـــا الـــى الليث بـــن رافع بـــن نصر بـــن سيار ، وكان هذا اديبا بارعا يكتب للبرامكة ، فاهداه الخليـــل كتاب العيـــن ، فعكف عليه مطالعة وتنقيبا ، واشتـــرى يوما جارية جميـــلة اغارت زوجته فارادت هـــذه اغاظتـــه فلم تجد اجدى من ان تتلف الكتاب الذي كـــان لا يفارقه فاحرقته ، وان الليث اعاد كتابة نصف الكتاب ــ وكان الخليـــل قد مات ــ من حفظه ، واجتمـــع مع فريق من الادباء علـــى اكمـــال الباقـــي علـــى نسق النصف الاول (٥) وقيلت اقوال كثيرة غير هذا .

---

٥ ــ ياقـــوت الحمـــوي .

علــى ان هذه الاقوال لا تكاد تثبت امام النظر الثاقب المنقب . وقد اجتهــد فريق من العلماء في الاستدراك علــى الكتاب ، كمــا فعل ابو عمــر محمد بن عبد الواحد المعروف بغلام ثعلب الذي كتب (فائت العين) وابــو غالب ابــن التبانــي الذي كتب (فتح العين) وغيرهما . كمــا ان هناك من الف مدخلا له وهو النضر بــن شميل ، ومن اختصره وهو محمــد بــن الحســن الزبيدي وابو الحسن علــي بــن القاسم الخوافــي .

مؤلفات أخرى للخليــل

للخليل العديد من المؤلفات ومعظمها يدخل ضمن المواضيع التــي استنبطها . من ذلك : ١ــ كتاب زبدة العروض توجد منه نسخة خطيــة في المكتبة الفاضلة بايران ٢ــ كتاب في الامامة ٣ــ كتاب الايقاع ٤ــ كتاب النغم ٥ــ الجــمل ، اي جمل الاعراب في النحــو ٦ــ الشواهد ٧ــ النقط والشكل ٨ــ كتاب في معانــي اسمــاء حروف الهجاء ، ومنه نسخة في مكتبة لندن ونسخة في مكتبة برلين . وهذا الكتاب طريف ، اذ انه اشار فيــه الــى ان لكل حرف من حروف الهجاء معنــى خاصــا فمعنــى التاء مثلا : البقرة تحلب يقول الشاعر :

انا فارس الهيجاء في كل حومة
وانت ابن تاء تحلب التاء دائبــا

ومعنــى الراء : القراد . ومعنــى الزاي الرجــل الاكول . قال الشاعــر :

اذا اختلـف السراة يكون راء

وعنـد الاكـل زاي جنفطـري

ومعنـى الصاد : الديك المتمرغ بالتراب قال الشاعر :

وانـي اذا ما غبـت عني ميتم

كأنـي صـاد في الثـرى يتململ

ومعنـى الذال : عرف الديك ، قال الشاعر :

بـه وهـن يلـوح بحاجبيـه

كذال الديـك يأتلـق ائتلاقـا

وهكذا حتـى اتـى علـى جميع حروف الهجاء فيحـدد معنـى كل حرف . وربمـا كان هذا الكتاب مستلا من كتاب العيـن .

شعـر الخليـل

كان الخليـل شاعرا ويصفه صاحب شذرات الذهب بانه شاعر مطبوع مفلق ، ويقول آخر انه كان ينظم البيتيـن والابيـات . ومن شعره قوله :

وما هـي الا ليلـة بعـد ليلـة

ويـوم الى يوم وشهر الـى شهر

مراحـل يدنين الجديد الى البلى

ويدنيـن اشـلاء الكرام الى القبر

الادريسي وخـــريطته وكتابه

عندما نجا ادريس بن عبد الله بن الحسن المثنـــى بـــن الحســـن بـــن علـــي بـــن ابـــي طالب من مجزرة فخ الرهيبة لم يكـــن احد يحسب انه سيكون لنجاته مثل هذا الشأن الذي صار لهـــا ..

ولكن ادريس استطاع ان يجعل لنجاته شأنا تاريخيا كبيرا امتدت اثاره عـــدة قرن وعاد علـــى العرب والمسلمين بالخير الكثـــــــير .

وليس القصد من هذه الكلمة تدويـــن ما قام به ادريس ثم اعقابـــه من نضال مستمـــيت في سبيـــل نشر الاسلام في افريقيـــا وتوطيـــد قدم العروبـــة فيها ، فذلك له مكـــان آخـــر غير هذا المكـــان .

ولعل افضل ما قيـــل عـــن الدولة الادريسيـــة هـــو ما قالـــه الدكتور حسين مؤنس : « ما زالت الدولة الادريسية تنتظـــر من يكتب تاريخهـــا ويحدد دورها في بـــناء المغـــرب العربـــي . ولا زال اصحاب كتب التاريخ الاسلامـــي العام ينظمـــونها في سلك الدويلات التـــي تقاسمـــت نواحـــي المغـــرب الاسلامـــي ابتداء من منتصف القرن الهجري الثاني جاعليـــن اياهـــا صنوا لدولة بنـــي الاغلب او دولة بنـــي رستم التاهرتيين أو حتـــى دولة بنـــي مدرار اصحـــاب

سجلماسة . ويفوتهم في اثناء هذا العرض السريع المتواضع ان يتبينوا مكانها كحجر الزاوية في بناء اسلام المغرب وعروبته وما قامت به من دور عظيم في مد رقعة الاسلام في شمال المغرب الاقصى وغربي المغرب الاوسط — الى انيقول — : وما بذله امراؤها منجهد في ارساء اسس الاسلام الصحيح وتثبيت دعائم العروبة ولغتها وثقافتها في بلد اصبح بفضل الادارسة الدرع الواقي للجناح الغربي من مملكة الاسلام » .

هذا القول الموجز يتضمن حقيقة كبرى من حقائق التاريخ ، ويشير اشارة بليغة الى جوهر الامر في واقع الادارسة وحكمهم في شمال افريقيا ، ويدعو دعوة جهيرة الى العناية بتاريخ تلك الحقبة من حياة الاسلام والعروبة ..

لقد كان من ثمار نجاة ادريس ووصوله سالما الى افريقيا ان نبغ من اعقابه انسان فريد ، سادلا بالسلطة والحكم ، وخلد لا بالفتح والقهر . انسان هو في تاريخنا الثقافي وميراثنا الحضاري من القمم الشوامخ . ذاك : ابو عبدالله محمد بن محمد الادريسي ، الذي اشتهر باسم : الشريف الادريسي ، وقد يعرف بالشريف الصقلي المولود سنة ٤٩٣هـ (١٠٩٩ — ١١٠٠) والمجهول سنة الوفاة ، على العكس من نظرائه النابغين الذين تجهلعلى الاغلب سنة ولادتهم ، وتعلم سنة وفاتهم . على انه وجد من يناقش في سنةالولادة نفسها ، اذ انتعيين هذا التاريخ منسوب الى الراهب الماروني ميخائيل الغزيري الذي

نظم فهرسا لاتينيا لمخطوطات الاسكوريال . وقد ذكر سنة ولادة الادريسي دون ان يحدد المصدر الذي اعتمد عليه في ذلك ومن هنا وجد من لا يستطيع الجزم بهذا التاريخ . على اننا لا نحسب الغزيري يمكن ان يكون قد تساهل في وثاقة مصادره . بل يمكن ان نعتمد على قوله ، وان كنا نأخذ عليه تهاونه في تعيين المصدر .

بنو حمود اجداد الادريسي

هم من احفاد ادريس ينتمون الى جدهم حمود المنتمي نسبه الى مؤسس الدولة الادريسية واذا كانت الدولة الادريسية قد قامت في الشمال الافريقي وانتهت فيه ، فانه قام لفرع من فروعها ، فرع بني حمود دولة اخرى لا في افريقيا بل في الاندلس عاشت ردحا من الزمن ثم انتهت الى الزوال .

ذلك انه حين كانت الدولة الاموية في الاندلس تمشي الى نهايتها ، كان في الاندلس اثنان من آل ادريس قدما اليها مع من قدم من البربر ، فاشتهرا فيها وعرفا بما كانا يبديانه من شجاعة واقدام في مختلف الاحداث ، مما مهد لهما وراثة الدولة الاموية الزائلة .

وكان الادارسة قد تمكن حبهم في قلوب البربر وغدت لهم عليهم رئاسات وزعامات ، كان منها رئاسة الاخوين ، علي والقاسم ابني حمود بن ميمون بن احمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن ادريس ، حيث كان ينقاد لهما البربر في بلاد غمارة من الريف . ولما وقعت

الفتنة بين اموي الاندلس وثار سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين على المهدي محمد بن هشام في جنود البربر وزناتة ، كان علي بن حمود واخوه القاسم في جملتهم ، وجرت خطوب واحداث دخل بعدها المستعين وجماعته مدينة قرطبة عنوة سنة ٤٠٣هـ ثم تغلب البربر على الامر فدعا علي بن حمود واخوه القاسم الى نفسيهما فعضدهما الكثير من البربر وتعصبوا لهما فاقاما خلافة جديدة في الاندلس خلفت الخلافة الزائلة ،وتولى امرها علي بن حمود سنة ٤٠٨ وظلت هذه الخلافة قائمة حتى بويع آخر خليفة فيها سنة ٤٥٩ . وبعد هذا الخليفة تقاسم ملوك الطوائف الاندلس الى ان تغلب عليهم المرابطون .

تشتت الادارسة

وبعد هذا تفرق الحموديون الادريسيون في انحاء المغرب ووصل بعضهم الى جزيرة صقلية على انه كان في تونس ادريسيون عرفوا بآل الصقلي اختصوا بصناعة الطب وتوارثوها خلفا عن سلف ، ويرى الشيخ محمد رضا الشبيبي انهم من ذرية صاحبنا الشريف الادريسي . واذا كان هؤلاء المتأخرون عرفوا بآل الصقلي – وهم يقيمون في تونس – فان في ذلك اشارة الى نسبة اجدادهم من قبلهم ، اولئك الذين نزلوا صقلية وكان لهم فيها شأن بارز ، ولكنه محاط بالغموض ، مجهول التفاصيل . ولعل الدكتور حسين مؤنس هو اول من حاول ازالة هذا الغموض والتغلغل الى قلب

الحقيقة فوفق الى الكثير من ذلك توفيقا يسجل له ويشاد به .

الشريـــف الادريســـي

والمعروف ان الشريف الادريســـي هو من اهل سبتـــة ثم انتقـــل بعد ذلك الـــى صقلية حيث اتم فيها عمله الجغرافي الكبير . وما دام قد وجد في تونس بيت ادريســـي يعـــرف بآل الصقلـــي وينسب الـــى الشريف الادريســـي ، وما دام الشريف الادريسي نفسه كان يطلق عليه فيما يطلق من الالقاب لقب الصقلـــي فهل ان هذه النسبة وهذا اللقب قد لحقـــاه بعد وصوله الـــى صقليـــة ، ام ان الامر كما يرى الدكتور حسين مؤنس من ان آل الشريف الادريسي كانوا ممـــن استقروا اولا في صقليـــة ثم نزح من نزح منهم الى سبتة حيث كان هذا البلد منبتا للشريف الادريســـي منه انطلق في سياحاته الـــى المشرق والمغرب ثم استقـــر من جديد في صقلية ؟

ان المنطق السليـــم يؤيد ما رجحه الدكتور حسيـــن مؤنس ، فلم يكـــن لقب (الصقلـــي) ليقرن الـــى اسمـــه لمجرد اقامته الاخيرة في صقليـــة ، بل ان هذا اللقب كـــان يلحـــق باسرته التـــي ينتمـــي اليـــها والتـــي استمـــد منها لقبـــه . وهذا اللقب انمـــا الحق بالاسرة ليميزها عن غيرهـــا من الادارسة الذيـــن قدر لهم ان يتفرقوا في اكثـــر من مكان واحـــد .

الـــرحـــالـــة

كتب على الشريف الادريســـي ان يفارق وطنه سبتـــة

فيرحل طورا الى الشرق وطورا الى الغرب ، ولا شك هذا الترحال قد افاده بعد ذلك في عمله الجغرافي الكبير ، وكان له منه معوان في استجلاء الكثير من الحقائق التي اثبتها سواء في كتابه او خريطته .

وقد عبر عن غربته الطويلة وتنقله بين البلاد ، وحياة القلق التي كان يحياها بين حل وترحال بهذه الابيات الجميلة :

ليت شعري اين قبري ؟
ضاع في الغربة عمري
لم ادع للعين ما تشتاق
في بر وبحر
وخبرت الناس والار
ض لدى خير وشر
لم اجد جارا ولا دا
را كما في طي صدري
فكأني لم اسر
الا بميت او بقفر .

واخيرا ينزل صقلية موطن ابائه ويعود الى الارض التي نزح عنها اسلافه ، حيث كان لا يزال من الحموديين جماعة في صقلية نزحوا اليها بعد زوال سلطانهم في الاندلس وتفرقهم في البلاد . واذا كان الادريسي ينزل صقلية هذه المرة ليقيم فيها ، فقد كان قد طرقها من قبل في طريق عودته من المشرق ونزل على اقربائه الحموديين فيها . اما هذه المرة فقد جاءها مجيبا دعوة حاكمها رجار الثاني

كبير النورمان ليقوم بعمله العلمي الضخم ، متفرغا له تفرغا كاملا ، محاطا برعاية رجار وتشجيعه ، ومعرفته ..

رجار والادريسي

كان رجار الثاني معنيا بالجغرافيا محاولا الوصول الى ادق المعلومات فيها . ولم تكن وسائل الوصول الى هذه المعلومات ميسورة في ذلك الحين ، فكان يستدعي اليه العلماء الباحثين مستعينا بما يعلمونه ، مدونا ما يصل اليه من الحقائق . وكان الى جانبه في كل ذلك الشريف الادريسي يحاور ويساجل ، حتى انقضت خمس عشرة سنة تجمع في خلالها الكثير من المعلومات ، واصبح لدى الادريسي من المادة ما يستطيع معه ان يباشر العمل في خريطته العتيدة .

ولم يقتصر عمله في بلاط رجار على الخريطة وحدها، بل كان انتاجه في تلك الفترة خصبا منوعا لا يزال حتى اليوم وسيظل الى ما بعد اليوم مثار الاعجاب . ومن المؤسف انه قد ضاع في غمار الزمن جزء مهم مما حققه الادريسي من الاعمال ، ذلك انناعرفنا مما ذكره ابو الفداء انه كان له كتاب الممالك والمسالك ، كما عرفنا من غيره ان هذا الكتاب الف لا لرجار نفسه بل لولده (ولهلم) الذي حكم من سنة ١١٥٤ الى سنة ١١٦١ .

وفيما عدا الجغرافيا فقد الف كتابا ممتعا في علم النبات سماه (جامع اشتاب النبات) يصفه الشيخ محمد رضا الشبيبي بانه يورد فيه اسماء النباتات في لغات

عدة قد يوصلها الى اكثر من عشر لغات شرقية وغربية .

ويقول الشبيبي : ومن هذا الكتاب يستنتج ان الادريسي حاذق في علم النبات والمواليد وعلوم الطبيعة والطب اكثر من حذقه في ناحية الجغرافيا والبلدانيات . والكتاب يدل على علم واسع وتحقيق بالغ ، وهو من المخطوطات النادرة .

اما قمة تأليفاته الجغرافية فهو كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق الذي كان شرحا الخريطة وتعليقا عليها . ويقع الكتاب في جزئين كبيرين . ويقول محمد عبدالله ماضي : انه اختصر فيما بعد تحت الاسم عينه ، وانه اطلع على نسخة من هذا المختصر في مكتبة المعهد الشرقي بهامبورغ مطبوعة في روما سنة ١٥٩٢ .

خريطة الادريسي اول خريطة

سبق خريطة الادريسي العالمية خريطة تعود الى عهود قياصرة الروم ، لها من العمر ضعف ما لخريطة الادريسي اذ وضعت في العام ٣٦٥م وعرفت باسم خريطة (بوتينجر) ، ولكنها خريطة محدودة الفائدة لم يقصد بها الا بيان طرق المواصلات ، وقد زالت المدن التي ورد ذكرها فيها ولا يعرف لها اليوم من اثر . وهناك خريطة لبطليموس تسبق خريطة الادريسي بالف عام ولكن ليس لها شمول خريطة الادريسي ، اذ ان غاية ما يستفاد منها هو ان تعطي فكرة عامة عما كان عليه العالم القديم .

تصور الادريسي للارض

الارض في تصور الادريسي تختلف عما شاع عنها في اواخر القرون الوسطى من انها مسطحة تقوم على سطح الماء ، فالادريسي يتصورها كرة بيضاوية الشكل محاطة بالماء من كل جانب حيث يغمر الماء نصفها وينحسر عن النصف الاخر ، وينقسم هذا النصف الى قسمين : شمالي هو وحده المعمور ، وجنوبي غير معمور ويفصل بينهما خط الاستواء .

وبناء على هذا التصور وضع الادريسي خريطته فشملت القسم المعمور وحده . ومن البدهي أن نقول انه لم يقسم الارض حسب التقسيم الذي نعرفه في هذا العصر ، اى الى القارات الخمس المعروفة ، لان بعض هذه القرارات لم يكن معروفا يوم ذلك كأمريكا واستراليا ، وكذلك فان هذا الاصطلاح لم يكن معروفا وانما اخذ به بعد ذلك ، ولكن الادريسي اخذ بتقسيم الارض الى اقاليم سبعة ، على ما كان مصطلحا عليه يومذاك .

يقول محمد عبدالله ماضي : « ومما يذكر للادريسي بالاعجاب والفخر انه حاول بتقسيمه الارض الى الاقاليم السبعة اثبات درجات العرض وتحديدها ، وانه افلح في محاولته هذه الى حد بعيد يجعل علماء الاختصاص في الوقت الحديث يطأطئون الرأس له اعجابا وتقديرا » .

البحار

لم يكن اصطلاح (المحيطات) معروفا في تلك العصور

وباستثناء المحيط الاطلسي ، فان تلك المحيطات لم تكن تذكر علـــى اساس كونها بحارا محيطة ، وذلك لان بعضها مثلا لم يكن معروفا اصلا كالمحيـــط الهادي ، وبعضها الاخر كـــان ينظر اليـــه علـــى انه بحر مثله مثل كل البحار كالمحيـــط الهنـــدي .

اما المحيط الاطلســـي فقد كان وحده الذي ينظر نظرة فيها الكثير من الرهبة والتوجس ، والتطلع الى المجهـــول المخيف . ومن هنا اطلقوا عليه اسم (بحر الظلـــمات) وحسبك بهذه التسميـــة دليلا علـــى شدة هذا البحر وتوغله في الشمـــول والاحاطة . ولا احسب ان المقصـــود بالظلمات هنـــا : الظلمـــات المادية وحدها التـــي كان يقترن بها هذا البحـــر يومذاك ، بل ربمـــا كان المقصود ايضا الظلمـــات المعنوية التـــي تعنـــي جهل حقيقة ما وراءه ، ومـــا يخفيـــه من عوالم ليس من المستطاع معرفة كنهها ، فهـــي ظلمـــات في ظلمـــات . ظلمات تخيف وترهب وظلمات تحير وتثير .

واذكـــر اننـــي عبـــرت هذا البحر منذ اكثر مـــن عشريـــن سنة ، عبرته سبحا في الفضاء وتدفقا في السماء ، في قلب طيـــارة تنداح فوقه موغلة اي ايغال . فكتبت عنه فيمـــا كتبت اقول : « ... لم اكبر رواد البحار كما اكبرتهم وانا فوق البحار ، ولم اعلـــم عظمة ماجلان وكولومبس كما علمتها وانا في الطائرة فوق الاطلانطيك ، فما اصلب اولئك الرجال الذيـــن غالبوا هذه الامواج وغلبوها باضعف سلاح واقل عتاد ،و ما امضـــى عزائمهم وهم يجوبون هـــذه المتاهات لا الـــى بلد يعلمونه ولا الـــى مرفأ يقصدونـــه

بل الى المجهول يستطلعونه .. ان المحيط لمخيف في اقوى البواخر وامضى الدوارع ، وانه لعنيف في اضخم الطائرات واعظم الجاريات ، وانه لبغيض مملول حتى وهو طريقك الى بونس ايرس ونيويورك واذن ، فما بالك اذا كان المركب فيه الخشب الرقيق والحبل الدقيق والشراع الصفيق، واذا كنت تسير فيه لاعلى طريق ولا الى طريق ، بل تخرج من ضيق لتدخل في ضيق يشاحنك فيه حتى الصديق ويخاصمك حتى الرفيق .

هذا هو بحر الظلمات اليوم فكيف قبل اليوم ؟

لذلك افرد هذا البحر وحده واطلق عليه هذا الاسم ولم يدخل في تقسيمات البحار الاخرى التي اعتمدها الادريسي ، اذ قسم البحار الى سبعة : ثلاثة منها متفرعة من بحر الظلمات او مما تفرع عنه ، وهي : بحر الشام او بحر الروم (المتوسط) وخليج البندقية (الادرياتيك) وخليج النطاس (الاسود) . ثم بحر الهند (المحيط الهندي) او البحر الفارسي ، وبحر السويس او بحر القلزم (الاحمر) المتفرعان من بحر الهند .

والبحر السابع بحر لا يتفرع من غيره ولا يتصل بأي بحر هو بحر قزوين (الخزر) . اذن فهذه بحار سبعة على عدد الاقاليم السبعة ، وهي التي اعتمدها الادريسي في خريطته .

على انه لا بد لنا من القول ان الادريسي لم يقتصر في تقسيمه للاقاليم على عدها سبعة ، بل انه قسم كل واحد من هذه السبعة الى عشرة اقسام متساوية وبذلك اصبحت الاقاليم سبعين اقليما .

نزهة المشتاق

ولاجل شرح كل ذلك وجعله واضحا كل الوضوح ،ولاجل الوصول الى الغاية التي وضعت من اجلها الخريطة وهي تعميم المنفعة والوصول الى الحقيقة ، والازدياد في المعرفة، لاجل ذلك وضع الادريسي كتابه العظيم (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ليكون دليلا للخريطة ومرشدا للمستطلع فيها . لهذا رأينا الادريسي في كتابه يتحدث عن الاقاليم السبعين حديثا مطنبا ويصف مواقعها وصفا دقيقا ، ويحدد اماكن الجزر والبلاد ويدل عليها ، ويشير الى الجبال والانهار فضلا عن المدن . وعدا هذا فهو يتكلم عن الدول في كل اقليم وعن السكان واجناسهم ، ولا يهمل تقاليدهم وعاداتهم . كما لا يهمل ذكر ما عرف به المكان من نبات وحيوان ، ومافي ذلك من منافع طبية او خصائص طبيعية . واذا كان الادريسي – كما قال عنه الشبيبي – حاذقا في علم النبات والمواليد والطبيعة والطب – فان هذا الحذق لم يتجل في كتابه (جامع اشتات النبات) وحده ، بل لقد تجلى كذلك في (نزهة المشتاق) تجليا بينا واضحا .

وعلى ما وصف به (نزهة المشتاق) فان من العسير تلخيصه ، واظهار واقعه في سطور محدودة ، وهو « كتاب ضخم يقع في جزئين كبيري الحجم » كما قيل عنه .

الخريطة الفضية

اراد رجار ان يكون عمل الادريسي عملا ثابتا دائما ،

فتفتــق ذهنه عن طريقة يحفظ بها الخريطة حفظا مستمرا ، فلا يذهب بها كر الايام وتعاقب السنين ، فاشار بان تحفــر الخريطــة علــى لوح من الفضة وعهد الى الادريســي بانجاز ذلك بعد ان وضع بتصرفه مقدار اربعمــائة الف درهم فضية ــ كما يروي خليل الصفدي ــ وامده بامهر الصناع . ولكن الادريســي لم يحتج من الفضة الا اقل من ثلث المبلغ حتــى خرجت الخريطة الفضية في شكل مائدة مستطيلــة قدر طولها بثلاثة امتار ونصف المتــر وارتفاعها بما يقرب من المتر ونصف المتر ، ــ علــى ما يروي محمــد علــي ماضي عــن « ميللر » وانتهــى العمل بها كله في العام ١١٥٤م . وبعد ستة اسابيــع من انجاز ما اراد رجار الثانــي انجازه سواء في الخريطة او الكتاب او المائدة الفضية مات رجــار .

واذا كان هذا قد اراد حفظ الخريطة فاشار بصنع المائدة الفضيــة ، فان الامر كما قال الشاعر : (وتقدرون فتضحك الاقــدار) . ذلك انه في عهــد وليم ابــن « رجار الثاني» وبعد وفاة رجار بست سنوات (١١٦٠) هاجم الثوار القصر الملكــي فكان نهب الناهبيــن ، وكان فيما نهب : المائــدة الفضية التــي كسرها الناهبون واقتسموها فيما بينهم مغنما ماديا تافها ، وقضوا بفعلتهم علــى ذلك المجهود العلمــي الفني الرائع . وبذلك لم تسلم الا خريطة الحائط والا خريطة الكتــاب الموزعة في السبعيــن القطعة حسب السبعيــن الاقليــم . ثم فقدت خريطة الحائط فلم تعرف بعد وظلــت خريطة الكتاب . وهــي الخريطة التــي نظم اجزاءها وجمع قطعها المستشرق الالمانــي « كونراد ميللر » ثم طبعها لاول مرة سنــة ١٩٢٨ طبعة ملونة فاخرة .

لقد ظلت خريطة الادريسي المرجع الوحيد لكل المؤلفين في الجغرافيا فعليها اعتمدوا ومنها استمدوا . وظلت نبراسا لكل العاملين في هذا المجال .

وما اجدر الادريسي هذا العالم العامل بالاشادة به والاشارة اليه كواحد من اعظم من انجب العرب في كل العصور . وما احرى علماءنا الجغرافيين في هذا العصر بان يدعوا للتعريف به والاحتفال بذكراه ووضع الدراسات المفصلة عن عمله العلمي الكبير .

ولا اعرف احدا عني بذلك عناية الاستاذ محمد علي ماضي في بحث ممتع له في مجلة الرسالة القاهرية عهد ازدهارها وتوسع انتشارها . كما ان المستشرق الالماني كونراد ميللر كان صاحب الفضل الاول في كشف الغبار عن خريطة الادريسي وبعثها من مرقدها ونشرها في كل مكان .

جعيفران الموسوس

لم يعن مؤرخونا الاولون بتدوين الحياة الشعبية تدوينا يصور لنا ملامحها الصحيحة ويرينا كيف كانت تنقضي امور الملايين من الناس الذين هم من غير طبقة الحكام واضرابهم .

وابو الفرج وحده تعدى في السرد امور الخلفاء والملوك والوزراء ، وتغلغل في الحياة الشعبية فجاء (مقاتل الطالبيين) و (الاغاني) في الكثير مما فيهما صورا مجلوة لكثير من الافراد من طبقات لم تظفر من غير قلمه بالتقصي ،فعرفنا منه سير كثير من الاحرار والمناضلين والعلماء ، ومن الشعراء غير شعراء الملوك ، ممن آثروا الحياة البسيطة الوادعة . وعرفنا منه الكثير عن الوشائج الاجتماعية والروابط بين الناس ومحيطهم ، وعرفنا الكثير من العادات والتقاليد والامزجة .

وممن عرفناهم اكثر ما عرفناهم من مطالعاتنا في الاغاني شاعر مسكين اضطهده عصره وخذله محيطه فعاش فقيرا يائسا ، ومضى محروما ملاحقا ، الى ان ادى الامر لان يرمى بالجنون ويوصف بالموسوس حتى اصبحت هذه الصفة ملازمة لاسمه لصيقة بحياته . ذلك هو جعفر بن علي ، الذي اشتهر باسم (جعيفران الموسوس) .

بلـــده ومـولده

هو بغدادي ولد في بغداد ونشأ بها ، وليس من يعنى لا بتاريخ ولادته ولا بتاريخ موته ، فقد كان اهون علـــى اهل زمانه من ان يفكر منهم واحد بالسؤال عن اليوم الذي ولد فيه هذا الموسوس او ان يسجل احد اليوم الذي مات فيه .

ولكننا نعلـم انه ادرك عصر الامامين موسـى الكاظم وعلـي الرضا . والاول ولد سنة ١٢٨ وتوفـي سنة ١٨٣ والثانـي ولد سنة ١٥٣ وتوفي سنة ٢٠٣ . ولنا بعد ذلك ان نقدر متـى ولد ومتـى مات ..

هـو كمـا قلنـا بغدادي المولد والنشأة . ولكـن يبدو ان بغداد نبت به ففارقها الـى سامراء وسكنها ، وهذا ما نص عليه ابو الفرج في الاغانـي ، ولكـن لم يقل لنا ان كان قد ظل في سامراء حتـى توفـي ام لا .

هل هو مجنــون حقا ؟

ابو الفرج يؤيد اختلاط عقله ووسوسته ، ولكنه لا يقول بجنونه المطبق ، بل بجنون يعاوده بين الحيـن والحين . ومما وصف به : « كان اديبا شاعرا مطبوعا ، وغلبت عليه المـرة السوداء فاختلط وبطل في اكثر اوقاته ومعظـم احواله . ثم كـان اذا افاق ثاب اليه عقله وطبعه فقـال الشعـر الجيد » . اما هو نفسه فيرى ان ما يوصف بـه من الجنون انمـا هومحنة من المحـن نزلت به فهو ينكر على الناس هذا الوصف فيقول :

قـالـوا علـي كذبـا وبطـلا

انـي مجنـون فقـدت العقـلا

وذلك ان صديقا له روى عنه فقال : جاءني جعيفران فقال : « استوجب العالم مني القتلا » فقلت ولم يا ابا الفضل ؟ فنظر الي نظرة منكرة خفت منها وقال : (لما شعرت فراوني فحلا) ثم سكت هنيهة وقال :

قالوا علي كذبا وجهلا
اني مجنون فقدت العقلا
قالوا المحال كذبا وجهلا
اقبح بهذا الفعل منهم فعلا

ثم ذهب لينصرف ، فخفت ان يؤذيه الصبيان ، فقلت اصبر فديتك حتى اقوم معك فأنك مغضب ، واكره ان تخرج على هذه الحال ، فقال : سبحان الله اتراني انسبهم الى الكذب والجهل واستقبح فعلهم ، وتتخوف من مكافاتهم ، ثم ولى وهو يقول :

لست براض من جهول جهلا
ولا مجازيه بفعل فعلا
لكن ارى الصفح لنفسي فضلا
من يرد الخير يجده سهلا

قصة جنونه

عزوا ذلك الى قصة نسبوا فيها اليه عملا غير اخلاقي ادى الى ان يوصي ابوه بحرمانه من ارثه ، فلما مات الاب سعى الوصي فاستصدر حكما من القاضي بهذا الحرمان . قالوا : « فوسوس جعيفران واختلط منذ يومئذ » .

حديثه عـــن ماساته

وان صحت هذه القصة فهو نفسه يكرر الحديث عـــن مأساته ، ويفصلها تفصيلا لا مزيد عليه ، تفصيلا مروعا يرينا الحقيقة عارية صريحة . فحرمانه من المراث سبب له الفقر، والفقـــر سبب له الهوان ، والهوان اغرى به الناس ، حتى لقد شاع جنونه فبلـــغ الصبيان . واية فرصة للصبيان اثمن من متهم بالجنون يعبثون به ويصيحون وراءه ويتضاحكون عليـــــه .

واي رجل يستطيـــع ان يصـــمد لجمـــوع الصبيـــان المنطلقـــة في الازقـــة عاطلة لاهية ، تفتش عما تقتل بـــه وقتها وترفه به فراغها .

اي رجل يستطيـــع ان يحتفظ بالعقل اذا مر في الطريق فتناولته سخريات الولدان وهزؤهم وتداولته ايديهم بالصفق ، وانامـلهم بالرشق ، وشفاههم ببذىء النطق .

ولا ننســـى ان للصبيان من يغريهم ولهم من يدلهم اذا تاهوا ، ويعلمهم اذا جهلوا ، لان له مصلحة في ان يضيع عقل الشاعر ويضطرب فكره .

تحدث جعيفران عـــن مأساته بلسان فصيح وعقل صحيـــــح :

رأيـــت الناس تدعــوني
بمجنـــون علـــى حالـــي
ومـــا بـــي اليـــوم من جـــن
ولا وســـواس بلبـــال

ولكن قولهم هذا
لافلاسي واقلالي
ولو كنت اخا وفر
رخيا ناعم البال
راوني حسن العقل
احل المنزل العالي
وما ذاك على خير
ولكن هيبة المال

وهل ابلغ في البيان من هذا البيان ، على انه في ابيات اخرى ، كان اكثر انطلاقا بل كان على شيء كثير من الفلسفة التي شاء ان يأخذ بها نفسه فلا يبالي بما يقولون ، وان كانت مظاهر عدم مبالاته هي في بواطنها مبالاة اي مبالاة .

وهل اكثر في انشغال بالك من ان تشغل بالك بان لا ينشغل ؟

رأيت الناس ترميـ
ـني احيانا بوسواس
ومن يضبط يا صاح
مقال الناس في الناس
فدع ما قاله الناس
ونازع صفوة الكاس
فتى حرا صحيح الود
ذا بشر وايناس
فان الخلق مغرور
بامثالي واجناسي

يحيـونـي ويحـبوني
علـى العينيـن والـراس
ويـدعـونـي عزيـزا غـ
ـير ان الـذل افلاسـي

ومن هذه الابيات نستدل علـى ان الناس لم يكونوا كلهم قساة عليه ، فقد كان فيهم من يدرك حقيقة امره ويؤمن بعقلـه فان كلمة (احيانا) التي اوردها في البيت الاول ترشد الـى ذلك ، كمـا ان مخاطبته لنفسه بان يدع (ما قالـه الناس) وان (ينازع صفوة الكاس) :

فتـى حـرا صحيـح الـود
ذا بـر وايـنـاس

يدل علـى انه لم يكـن يعدم بين الفينة والفينة مثل هـذا الفتـى الحر .

ثم هذا البيت الحكيـم :

ومـن يضبـط يـا صـاح
كـلام النـاس في النـاس

ولكن بعض من كانوا يجالسونه ،ا نمـا كانوا ينشدون متعـة المجلس وفكاهة الحديث ، ويستطيبون بان يعبثـوا به ويتضاحكوا منه ، انهم لم يكونوا يجالسونه علـى انـه شاعـر قريـن لهم في المجلس ، بل علـى انه مسلاة .

حضر يوما مجلسا ثم قام لحاجة له فقال بعض مـن حضر : اي شـيء معنـى عشرتنا هذا المجنون ، والله ما نأمنه وهو صاح . وفطـن جعيفران للمعنـى فاقبـل عليهم منشـدا :

ونـــدامـــى اكـــلونـــي
اذ تغـيبـت قلـيـــلا
زعمـــوا انـــي مجنـون
ارى العـــري جميـــلا
كيـــف لا اعـــرى ومـــا أبـــ
ـــصر فـــي النـــاس مثيـــلا
ان يكـــن قـــد ساءكم قـــر
بـــي فخلـــوا لـــي السبيـــلا
وأتمـــوا يـــومكـــم
بركـــم اللـــه طـــويـــلا

وهكذا بلغت القسوة ببعض جلاسه ان يستنفـــدوا اطاريفه حتـــى اذا غاب بهتوه واستغابوه ، وقد كان اذكى من ان يفوته معنـــى نظراتهم ومرامـــي همساتهم . ثـــم اننا نـــرى من هذه الابيات انه كان يعيش بالـــي الاثواب في شبه عـــري وقد اراد ان يسخر من الناس كما سخروا منه ، فلم ينسب عريه الـــى الفقر ولا الـــى الجنون ، بل الـــى انه فـــوق هؤلاء البشر ، فلا يجد مثيلا له يستحق ان يستتر منـــه ويتكلف له اللباس .

مـــع ابـــي دلف

واقبل يوما علـــى ابـــي دلف العجلـــي ، ومدحـــه بشعـــر جميـــل ، فامر له بكسوة وبالف درهم . فلما جيء بالدراهـــم اخذ منها عشرة وقال : تأمر القهرمان ان يعطيني الباقـــي مفرقا كلما جئت لئلا يضيع مني . فقال للقهرمـــان

اعطـــه المال ، وكلما جاءك فاعطه ما شاء حتى يفرق الموت بيننا فبكـــى جعيفـــران وقال :

يمـــوت هـــذا الـــذي اراه
وكـــل شيء لــه نفـــاد
لـــو غـــير ذي العـــرش دام شيء
لدام ذا المفضـــــل الجـــــواد

وظل ابو دلف علـــى احسانه اليه وصيانته له حتـــى افترقا بالموت . فكان مما انشده لابـــي دلف :

يـــا معدي الجـــود علـــى الامـــوال
ويا كريـــم النفس في الفعـــال
قد صنتني عـــن ذلـــة السؤال
بجودك الموفـــي علـــى الامـــال
صانـــك ذو العـــزة والجـــلال
مـــــن غير الايـــــام والليـــالـــي

وهكذا نرى ان ذاك الجاف المتوحش الذي يـــرى ان الناس لا يستحقون ان يواري سوأته عنهم ، يعود هنا انسانا رقيـــق الحاشيـــة سهل الجانب ، ان الحاجة قد اوقفته على الابواب بعقلـــه وكرامته فثار لهما ، حتـــى اذا وجد من صانهمـــا له شكر ذلك شكرا عديم النظير .

ولا ندري من سبق صاحبه الـــى الموت ، امـــات جعيفـــران قبل ابـــي دلف ، ام مات ابو دلف قبله فابتذله السؤال مـــن جديـــد ؟

صاحب نكتـــة بارعـــة

وهذا الشاعر البائس الحزين الشريد كـــان اذا اراد

النكتة بلغ فيها الغاية ، فقد تقدم من ابـي يوسف القاضي بدعـوى في شـيء كان في يده من وقف ، وكان القاضـي اعور ، فقضـى القاضـي عليه ودفعه عن الوقف . فقـال لـه : ارانـي الله ايها القاضـي عينيك سواء . فأخذه القاضـي الـى داره واطعمـه واعطاه دراهم . ثم سأله : ماذا أردت بدعائك ؟ اردت ان يرد الله علـي ما ذهب مـن بصـري ؟

فقال : والله لئن كنت وهبت لـي هذه الدراهم لاسخر منـك لانت المجنون لا أنا . اخبرني كم من اعور رأيته عمي؟ قال : كثير ،قال:فهل رأيت اعور صح قط ، قال : لا ، قال : فكيف توهمت علـيّ الغلط . فضحك وصرفه .

خـاتمـة المـأساة

وصورة موته تختم مأساة حياته خاتمة من جنسها ، فهـي ترينا هذا الشاعر عليلا وحيدا في علته ، لا عائـد له ولا طبيـب ، ولا زائر ولا قريب ، تطحنه الاوجاع طحنـا فلا يقر له قرار ، ويأخذ يدور في الدار ، ويظل يدور فيهـا حيـران موجعا حتـى يهوي ميتا .

وهـو في كل ذلك لا يرى غير الشعر متنفسا لكربـه، فينشده وصفا لحياته وتعبيرا عـن الامه وغربته وسهـاده ووحشتـه .

حدث عثمـان بن محمـد عـن ابيـه قال : كنـت اشرف مرة من سطـح لـي علـى جعيفران وهو في داره وحـده ، وقد اعتل وتحركت عليه السوداء فهو يـدور في الدار طول ليلته ويقول :

طاف بـــه طيف مـــن الوسواس
نفـــر عنـــه لـــذة النعـــاس
فمـــا يرى يأنـــس بالاناســـي
ولا يلـــذ عـــشرة الجـــلاس
فهـــو غريـــب بيـــن هذي الناس

حتـــى اصبح الصباح وهو يرددها ، ثم سقط كأنه بقلة ذابلـــة .

ومن العجيب ان هذا المتحدث لم تتحرك شفقته ولم يثر حنانه ، فينزل الى هذا المريض فيسأله عما يشكو او يواسيه بكلمة طيبـــة او لمسة حانيـــة ، بل ظل طول الليل ينظر اليه ويستمـــع له حتـــى هوى امام عينيه .

« فهو غريب بيـــن هذي الناس »

هكذا صرخ جعيفران في آخر ساعة من حياته ، وما كان اصدقـــه صارخا .

ولكـــن تـــرى ، اكانت غربته هذه غربة العاقل بيـــن المجانيـــن ، ام غربة المجنون بيـــن العقـــلاء ؟

الايوان بين شاعرين

— ١ —

وقف البحتـري علـى ايوان كسرى وقفـة طويـلة جالت فيها عيناه في جوانب الايوان وتطلعت الـى نقوشـه وصوره وترامت في جوانبه واركانه فادهشته فخامة البنيان وروعة الفـن وجلالة الصنعة ، فاستوحى خياله واستنطق شاعريته فجاءنا بقصيدته السينيـة الخالدة التي اشتهـرت كـل الاشتهـار .

وكمـا وقف البحتـري علـى الايوان كذلك وقـف عليـه بعد البحتري شاعر عربـي شهير فارسل بطرفـه الـى سوامقه الشاهقـة وتلفت الى بقاياه الهائلة فهاجـت شاعريتـه وفاضت قريحته فارفد الادب العربـي بقصيدة لـم يكتـب لها مـن الشهرة ما كتب لقصيدة البحتـري فظلت في ديوان الشاعر مغمـورة بين قصائده الكثيرة قل ان يذكرها ذاكـر او يشير اليها مشير ، وهكذا تواتـي الحظوظ شعرا فيحلق في الاجواء وينتشر في الافاق . وتعاكس شعرا فينزوي بيـن طيات الاوراق لا يرفع رأسا ولا يسمع همسـا فيضيع اي ضياع ! ويا لله وللحظوظ في الحياة كم رفعـت وكم وضعت وكم دفنـت وكم نشرت !..

هذا الشاعر الذي عنيته هو الشريف الرضي فقـد

تقاذفته النوى حتى حطت به على ايوان كسرى فنظم قصيدة من اجمل قصائد الشعر العربي ولكنها — ويا للاسف — ظلت مهملة اهمالا شائنا فلم تجد بين كتاب العربية ونقادها من اولاها عناية او اشار اليها اشارة مع ما فيها من الاحساس العميق والشعور السامي الذي يرفع صاحبها الى اسمى المراتب بين شعراء الامجاد العربية.

وقف الشاعران على الايوان وتطلع كل منهما اليه بعينين تختلفان عن عيني الاخر ونظر اليه كل منهما بفكر يباين فكر الاخر ، واثار الايوان في نفس احد الشاعرين غير ما اثار في نفس الشاعر الاخر فجاءت قصيدتاهما متباينتي الروح والعاطفة والغاية. فالبحتري كان وقوفه على الايوان شاعرا فحسب لم يهج فيه الايوان الا عاطفة الشعر فوصف ما شاهد وصف الشاعر المجيد الفنان فابدع في الوصف ما شاء الابداع واوحى له خلو الايوان من بناته وانقراض حماته عاطفة الاسى العميق فقال :

اتسلى عن الحظوظ وآسى
لمحل من آل ساسان درس
ذكرتنيهم الخطوب التوالي
ولقد تذكر الخطوب وتنسي
وهم خافضون في ظل عال
مشرف يحسر العيون ويخسي
مغلق بابه على جبل القـ
ـبق الى دارتي خلاط ومكس

فهو في هذه الابيات متذكر معتبر يتأسى عن الجدود العاثرة بالطلول الداثرة فيذكر آل ساسان وحياتهم الهنيئة في ظل الايوان وعيشتهم الرغيدة في ابهائه وما كان لهم من سلطان اي سلطان . ثم هو يقارن بين هذه الاطلال الساسانية الضخمة وبين الاطلال البدوية التي شغلت شعراء الجاهلية فوقفوا عليها وبكوها وفاض شعرهم بالتغني بها وترديد ذكرها فكأنما يريد ان يقول ان مثل هذه الاطلال هي التي يجب ان تشغل الشاعر فيعوج عليها ويستنطقها اخبار الظاعنين لا اطلال القفار البسابس التي لم يكن لها ان تشغل الشعراء ذاك الاشغال :

حلل لم تكن كاطلال سعدى
في قفار من البسابس ملس

ثم يندفع الشاعر بوصف خلو الدار واقفارها حتى كأنها ارماس او مآتم بعد اعراس .

ثم يشير الى ما تدل عليه هذه الاثار من عجائب مشيديها وابداع موجديها ثم يسهب بوصف ما فيها من النقوش والصور الماثلة مجيدا في ذلك كل الاجادة :

وهو ينبيك عن عجائب قوم
لا يشاب البيان فيهم بلبس
فاذا ما رأيت صورة انطا
كية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا مواثل وانو شر
وان يزجي الصفوف تحت الدرفس

في اخضرار من اللباس على اصـ
فـر يختـال فـي صبيغـة ورس

وعراك الرجـال بيـن يديـه
في خفـوت منهم واغمـاض جرس

من مشيـح يهوي بعامل رمـح
ومليـح مـن السنـان بتـرس

وفـي هذه الابيـات تستدل علـى ما كـان عليـه الايوان من فـن رائع كانت تتجلـى فيه صور المعـارك الحربيـة بيـن الروم والفرس وصور المدن التـي وقعـت فيها المعارك وصور ملوك الفرس بالبستهم الزاهيـةيقودون جيوشهم المنتصرة وصور المتقاتليـن هذا يهوي بـرمحـه وذاك يتقـي بترسه الـى غير ذلك من المشاهد المتنوعة . ويبلـغ اعجاب البحتـري بهذه الصور والنقوش اقصـى الحدود حتـى ليحسبها اشخاصا حية وحتـى انه ليمعـن في هذا الحسبان فيغالط نفسه فيتقدم اليها ويلمسها ليتأكد مـن خمـود الحيـاة فيها :

تصـف العين انهـم جـد احيـا
ء لـهم بينـهم اشـارة خـرس

يغتلـي فيـهم ارتيابـي حتـى
تتقراهـم يـداي بلمـس

ثم يمضـي البحتـري علـى هذا النسق في الوصف والشعور والتوجع في تسعة ابيات ينتقل بعدها الـى مـا اصاب الايوان من كوارث وارزاء ثم لا ينسـى ان يعزيـه عمـا نزل به مشيرا الـى ان ذلك لا يعيب عظمته الخالـدة ما دام لا يزال مشمخرا عالـي الشرفات .

عكست حظه الليالي وبات الـ
مشتري فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدي تجلدا وعليه
كلكل من كلاكل الدهر مرس
لم يعبه ان بز من بسط الديـ
ـباج واستل من ستور الدمقس
مشمخرا تعلو له شرفات
رفعت في رؤوس رضوى وقدس
لابسات من البياض فما تبـ
ـصر منها الا غلائل برس

وبعد ذلك يظهر البحتري دهشته فيسائل نفسه ايستطيع الانسان ان يبدع هذا الابداع ام هي بدائع الجن للانس :

ليس يدرى اصنع انس لجن
سكنوه ام صنع جن لانس

ومهما يكن من امر فهو يؤمن ان الباني لم يكن ملكا خاملا ولا انسانا حقيرا بل هو بان كانت تغص نواديه بالوافدين وتعج مقاصيره بالقيان والمغنين وهو من هؤلاء الملوك الذين سادوا الزمن فمنالهم ولنقاد اليهم فعاشوا حياة كلها رغد وهناء ورفاه وصفاء :

فكأني ارى المراتب والقوم
اذا ما بلغت اخر حسي
وكأن الوفود ضاحين حسرى
من وقوف خلف الرخام وجلس

وكـــان القيـــان وسط المقـــا
صـــير يرجحـــن بيـــن حو ولعـــس
وكـــأن اللقـــى اول مـــن امـ
ـس ووشـــك الفـــراق اول امـــس

وبعد كل هذا يبرز البحتـــري شاعرا فحسب لا يهمه من كل ما رأى الا انه مظهـــر حـــي يهز النفوس الشاعرة الحساسة فتبكـــي العز الزائل والملك الهاوي وتشيـــد بذكر الامجاد ايا كانوا :

عمرت للسرور دهرا فصـــارت
للتـــعزي رباعـــهم والتأســـي
فلهـــا ان اعينهـــا بدمـــوع
موقفات علـــى الصبابـــة حبـــس
ذاك عندي وليست الـــدار داري
باقتراب منها ولا الجنس جنســـي

ثم يعقبه علـــى ذلك ببيته الختلمـــي الذي يظهـــر فيه مذهبه الشعـــري الانسانـــي :

وارانـــي من بعد اكلف بالاشـــ
ـراف طـــرا مـــن كل سنـــخ واس

— ٢ —

يستهل الشريف الرضـــي قصيدته استهلالا فروسيـــا جميـــلا تتجلـــى فيه روحه الوثابة وتبرز سجاياه الشمـــاء بل تبدو احساساته المكبوتة وعواطفه المقهورة . فالرضـــي فتـــى ملء برديه الرجولة التواقة الـــى العلياء الطمـــاحـــة الـــى المجـــد وقد اجتمـــع له من كريم نسبه ونبل خلالـــه وسمـــو مكانته ما جعله يأنف حياة الدعة والخمـــول وعيش

الصغـــار والهوان . وتحكم في عصره بالناس من هم دونـــه كفاءة وشهامة وحسبا ونسبا فحاول ان يشق طريقه فاقعده الزمن وردته ظروفه فظل مهضوما مغيظا يفرج كرباتـــــه بالشعـــر :

قـــربـــوهـــن ليبعـــــدن المغارا
ويبدلــــن بــــدار الهــون دارا
واصطفوهــــــن لينتجــن العلـــى
بالعوالـــي لا لينتجـــــن المهـــارا

انه يترنم بالخيل ويهتف باسمها ويصـــرخ برهطـــــه ليقربوهـــا اليـــه !.... وماذا في الخيل ؟... ان فيـــها مظاهـــر القوة والعظمة ، مظاهر النضال والكفاح مظاهـــر الفروسيـــة الباسلة . والشريف يرى نفسه رجل الخـــيل المغيرات وقد حيل بينه وبيـــن اعنتها فهو يزفر من اعمـــاق صدره هذه الزفرة الحماسية جامعا فيها ما يتأكل نفســــــه من الحرمان المرير ومضمنا لها ما يجول في خاطره من التوثب الـــى معالـــي الامور فهو وقد وقف علـــى ايوان كسرى لا يتغزل بالحسان الساحرات ولا يستبكي للاطلال الداثـــرات بل يفتتح قصيدته بدعوة الخيل لا للتسلـــي باعنتها ولا للتلهي بصهواتها بل للغارات البعيـــدة ولتبدل له بدار الهـــــون التـــي تأويـــه دار العز التـــي يطمـــح لها فهو يرى انـــــه انمـــا يحيـــى في دار الذل ومنزل الضيم بالرغم مما كـــان يحاط به من تكريـــم واعظام . وماذا يغنيه هذا التكريــــــم والاعظام اذا كان لا يزال بعيدا عـــن مطامحه العليا . واذا كان غيره يسمـــوه مرتبة وسلطانا ..

وتـــراه في البيت الثانـــي يعلن زهده بالمادة فهو لا يريد

الخيل لتنتـــج المهار بل لتنتـــج له العلـــى .

وبعد ان يمضـــي الرضـــي في واحد وعشرين بيتـــا يضمنها نوازعه وخواطره يصل بنا الـــى ذكر الايـــوان . فيخبرنا انه نزل فيه دارا لم تكـــن دار ذل وان بناته كانـــوا ذوي مجد رفيـــع استقلوا فيه عـــن الناس وشغلـــــوه عـــن ان يعار لغيرهم :

قد نزلنـــا دار كسرى بعـــــده
اربعـــا ما كـــن للـــذل ظوارا
اسفـــرت اعطانها عن معشـــر
شغلـــوا المجد بهم عن ان يعارا
تصـــف الدار لنا قطـــانـــا
المعـــالي والمساعـــي والنجارا

وهنا يتجلـــى انصافه واعترافه بالحق فهو بالرغم من نزعتـــه القوميـــة المتحمسة لا يبخس الناس اشياءهم ولا يغض من ذوي المواهب بل يتكلم عن الناس بما كانوا عليـــه فقد وصفت له الدار قطانها فهـــي باذخة البناء رحيبة الفناء وهي محكمة الصنعـــة متقنة العمل وهـــي في كل ذلك ناطقة بوصف من ابدعوها وحلوها تخبر عنهم بلسان فصيـــــح ولغـــة واضحـــة .

ثم نراه يلم بمـــا اصاب هؤلاء القطان من نـــزول عن مجدهم واضمحـــلال لامرهم فهو يرى ان الدهر استرد منـــهم ما اعارهم ليعيره الـــى غيرهم فكأنمـــا نعم الحياة عاريات يجود بها الدهـــر على ناس ثم يبدو له فيستردها ليجود بها علـــى آخريـــن وهكذا تتداول الامم المجد فيمـــا بينها .

آل ساسان حدا الخطب بـهم
واسترد الدهر منهم ما اعـارا
بعدمـا شادوا البنى ترفعهـا
عمـد المجـد قبـابا ومنارا
كل ملموم القـرى صعب الذرى
يزلق العقبان عنـه والنسارا

ثم ينتقل الـى وصف الايوان كمـا رآه في عهده ولكنه لا يصف لنا صوره ونقوشه ولا يتحدث عـن عجائب صنعه وبدائع فنه بل ان ذلك لا يشغل ذهنه ولا يثير اهتمامه فـلا يسترسل كالبحتري في وصف دقائقه بل يعطينا صورة اجمالية عنه تمـلأ النفس رهبة ووحشة :

حمـل الدهـر الـى ان زده
ضاغط العبء ضلوعا وفقارا
مطرقا اطراق مأمون الشـذا
غمر الـنادي حلمـا ووقارا
او مليـك وقـع الدهـر بـه
فاماط الطوق عـنـه والسوارا
او هنت منـه الليالـي فقـوة
لا يلاقـي وهنهـا اليوم جبـارا

اذن فلم يكـن يهم الرضـي ان يستوفـي وصـف الايوان فنحـن لا نستطيـع ان نتعرف من قصيدته الـى حال الايوان يومذاك ولا الـى ما كان لا يزال ماثلا مـن زخارفه فكأن الرضـي لا يعنيه ان يسهب في ذلك بل هـو يريد ان يستخرج العبرة من موقفه هذا فيتحدث عـن حملة الدهـر علـى الايوان حتى تركه « ضاغط العبء

ضلوعا وفقارا » .

ثم يصوره تصويرا فنيا رائعا يتخيله مطرقا برأسه اطراق الذي كان له صولة فزالت وامن الناس نفعه وضره فهو مطأطىء الهامة اسفا على ماضيه وتفكرا بحاضره ، ولكن هذا الاطراق المحزن لا يذهب بوقاره وحلمه فهو — على شجاه — يملأ النادي حلما ووقارا . وهو على ما نزل به لا يزال محتفظا بجلاله وهيبته . ثم يشبهه بملك وقع الدهر به وحلت كوارثه في ساحته فسلبته ملكه واماطت عنه تاجه وذهبت بطوقه وسواره فهو لا يزال كما كان رجلا كامل الهيبة ولكنه عاطل من حلل الملك وحليه وكذلك الايوان فهو لا يزال قصرا شامخا ولكنه خال من كل ما كان له من شأن .

وهذه الابيات هي كل ما يظفر به الايوان من الشريف الرضي من الوصف ثم ينتقل بعدها الى ما يريده من اغراض قومية فيسائل اين معالي الايوان الجمة واين حماه الافيح واين رجاله الذين غلبوا الناس :

اين لا اين المعالي جمة
والحمى افيح والراي مغارا
ورجال شدخت اوضاحهم
غلبوا الاعناق منا واسارا

فيجيب عن ذلك بجواب تتجلى فيه نزعته القومية وروحه الاسلامية واضحة جلية :

عمروا لم يعلموا ان لنا
جائز الامر عليهم والامارا

ثم هو يشير الـــى ما كانت عليه الامم المجاورة للعرب من النظـــر اليـــهم بنظـــر الاستهانة وقلة الاكتراث غـــير عالمة بما وراء هذا الهمـــود من الاندفاع العجيب ولا حاسبه بان تلـــك الامة الممزقة الرأي المقطعـــة الاوصال ستهـــب هبـــة تدهش الدنيـــا :

قـــدروا جد نـــزار واقفـــا
ومشـــى الجد فمـــا عزوا نزارا

ثم يصف الوثبة العربيـــة العظيـــمة وما رافقها من بطولات وتضحيات وكيف اذهلت الناس فعنوا لها مستسلمين.

لاوذوا لما راوا مـــن دونـــهم
واديا يلقـــي به السيل غمـــارا
عاينوا الضرب دراكا في الطلـــى
يعجل الناس والطعن بـــدارا

ثم يشبه العرب بالاسد يهب مصحرا بعد طول الحذر :

اصحر الليث الغضنفر فانثنى
يطلب اليربوع في الارض وجارا

وبعد هذا الاعتزاز بقومه والتفاخر بامته يتحدث عمـــا افضت اليه نهضة العرب وعن رسالتهم الاسلامية التـــي حملوها الـــى الافاق تجلو دياجير الشرك وتمحو معـــالم الوثنيـــة وتنشر التوحيد حيث حلت :

قهـــروا الشرك علـــى اعقـــابه
بعدما استقدم غيا وضرارا
واثـــاروا الديـــن من مربضه
واطـــاروا عن مجاليه الخمارا
داينوا المجد باطراف القنـــا
فغـــدا عينـــا وقـــد كان ضمارا

المرأة في حياة المتنبي وشعره

هل كان للمرأة في حياة المتنبي اثر من بعيد او قريب وهل كان لها في شعره توجيه خاص ، وهل بدت على هذا الشعر صبغة لها مساس او بعض مساس بها ؟

لا بد لنا قبل التوغل في الجواب من ان نفرق في موضوعنا بين المرأة اما وبينها زوجة او حبيبة ، اذ لكل اثره الخاص وناحيته التي لا تشبه ناحية الاخر . فماذا كان تأثير الام على المتنبي ؟ كل ما عرفناه عن ام المتنبي انها كانت همدانية صحيحة النسب من صلحاء النساء الكوفيات(١) ومهما اراد الدكتور طه حسين ان يحيط بمولد المتنبي من الشذوذ(٢) ومهما اردنا ان ندفع هذا الشذوذ فلا ريب انه لم يكن لأم المتنبي اي اثر لا في حياته ولا في شعره ، بل ان المتنبي الذي تغنى بجدته لم يشر الى امه اشارة ولم يولها ذكرا . والدكتور طه حسين محق حين يقف طويلا امام هذه الظاهرة فيتساءل عن السر فيها . ولكننا لا يمكن ان نذهب معه الى النتيجة التي وصل اليها من ان ذلك انما كان لان مولد المتنبي كان شاذا ! ولماذا كان شذوذ مولد المتنبي هو السر في ذلك ، ولا يكون السر فيه هو ان

١ ـ انساب السمعاني وتاريخ بغداد .
٢ ـ مع المتنبي .

المتنبـي لم ينعم بتلك الام ففقدها قبل ان يعرف المجتمـع وينغمس في الحياة ؟ اكبر الظـن ان ام المتنبـي قد فارقت الدنيـا قبل ان يقدر لابنها التعرف عليها والتمتع بعطفهـا وحنانها فتركته لامها ، فكانت امها له اما ، وكانت عاطفـة البنوة ملتهبة فيه لجدته ، لانه لم يعرف غيرها اما ، واذا لم يكـن الامر كذلك فلماذا يذكر المؤرخون شوق جدته اليه ولا يذكرون شوق امه ، ولماذا يعنى برثاء جدته ولا يعنـي برثاء امـه ؟

ومهما كان مولد المتنبـي شاذا ـ علـى رأي الدكتور طه حسين ـ فان هذا الشذوذ لـن يحول دون شوق الوالدة الـى ولدها ولن يحول بيـن رثاء المتنبـي لامه لو كانت هذه الام حيـة عندما كان ابنها شاعر العرب ومهما يكـن مـن امر فالذي لا ريب فيه هو ان ام المتنبـي بعيدة عـن كل اثر في حياته وشعره ، وقد حلت محلها في هذا الاثر امهـا فكان من تأثيرها في شعره تلك القصيدة الرثائية الخالدة التـي قيل عنها : (انه ورد عليه كتاب من جدته تشكو شوقهـا اليـه وطول غيبتـه عنها فتوجه نحو العراق ولم يمكـنه وصول الكوفة فانحدر الـى بغداد ، وكانت جدته قد يئست منه فكتب اليها كتابا يسألها المسير اليه فقبلت كتابه وحمت لوقتها سرورا به وغلب الفرح علـى قلبها فقتلها)(١) .

ونحـن لا تهمنا العلـة التـي ماتت بها الجدة ولا فرق لدينا اذا كانت هذه العلة هـي الفرح او الحزن او ايـة علـة اخرى ما دامت قد ماتت قبل ان يراها ابن ابنها وبعد

---

١ ـ الديـوان .

ان اوشك ان يراها ، وقد كان المتنبي وهو الشاعر الحساس الملتهب الشعور المتأجج القلب كان حريا به ان يخلد هـــذا الموقف الرائع بمثل ما خلده به من الشعر الذي لا نزال نحس فيه احزان المتنبـــي وآلامه والذي لا يزال علـــى تطـــاول العهـــد به مضرب المثل في الاســـى العميـــق والشجـــن الدامـــي ، ومن ذا الذي لا يهزه هذا القول :

احن الـــى الكاس التي شربت بها
واهوى لمثواها التراب وما ضمـــا

واذا كان المتنبـــي ينادي بانه يحن الى الكأس التي شربت بها جدته فما كان ذلك لان الجدة قد ماتت وملكه عليها الحزن فحسب ، بل كان ذلك لان نفس المتنبـــي كانت فيذلك الحين قد امتلأت همـــوما ،ولان الـــزمـــن كـــان قـــد جرعه امر الغصص ، ولانه كان قد رأى بعينيه انهيار آماله في الحياة واهل الحياة ، ولانه كان قد وصل الـــى حال اصبح يحـــن معها الـــى ورودكأس المنية ، ثم فوجـــىء بمـــوت القلب الذي كان يرى انه وحده يخفق بحبه ، وانه وحده الذي يستروح اليه ويعتمـــد عليـــه فصاح من اعمـــاق قلبـــه في ساعة يائسة (احن الـــى الكأس التي شربت بها) وها هو نفســـه يزيد هذه الفكرة وضوحا وجلاء فيقول :

عرفت الليالـــي قبل ما صنعت بنا
فلما دهتنـــي لم تزدني بها علما

فهو قد قاســـى من صروف الليالـــي ما جعله ســـيء الظـــن بها وما جعله لا يترقب منها الا الشر ، فلما اتته هذه الداهيـــة لم يفاجأ بها ولم تزده علما بمـــا يحمله له الزمن من خبايا المصائب والمحن . ثم هوذا يمعن في الايضاح والجلاء

فيصور خيبة امانيـــه وتلاشي احلامه ، فلا ولاية ولا سلطان ولا حشم ولا اتباع بل حظ عاثر ويأس قاتل :

طلبت لها حظا ففاتت وفاتنـــي
وقد رضيت بي لو رضيت بها قسما

وهكـــذا بعـــد ان طوف في البـــلاد وراء (الحظ) ، فاته هذا الحظ وفاتته كذلك هذه الجدة الرؤوم ونحن نلمس في عجز البيـــت حسا من الندم الخفـــي علـــى تلك المغامرات والضرب في الفلوات وراء الحظ المنشود ونلمس روحا مـــن الاسف المكبوت علـــى ان لا يكون قد قنع فلم يجازف ورضي فلم يندفع ، وعلـــى ان لا يكـــون قد عاش الى جانـــب تلك الجدة خلـــي البال من المطامح بدلا مـــن ان يعيش الـــــى جانب اولئك الذيـــن لم يعرفوا حقه ولم يجيبوا سؤله ، ولا ادل علـــى هذا الندم والاسف من البيت الذي يليه :

فاصبحت استسقـــي الغمام لقبرها
وقد كنت استسقي الوغى والقنا الصما

ولا نريد ان نسترسل في النظر بهذه القصيدة ، وانمـــا نكتفـــي بالقول انها صورة حية لما كانت عليه نفس المتنبـــي من الحزن والكمـــد ، وانها مظهر واضح لما كان فيه من التبرم بالناس والحياة وان وفاة جدته كانت مفجرا لعاطفته ، فارسل نفسه علـــى سجيتها فبكـــى فيها بكاء مرا :

حرام علـــى قلبـــي السرور فانني
اعـــد الـــذي ماتت به بعدهـــا سما
وما انسدت الدنيـــا علـــي لضيقها
ولكـــن طرفا لا اراك بـــه اعمـــى

فــوا اسفــا ان لا اكــب مقبــلا
لرأسك والصدر اللـذي مليا حزما
وتحدى الناس تحديا صارخا :
لئن لذ يوم الشامتيــن بيومــهــا
فقــد ولــدت منــي لانفهم رغما
تغرب لا مستعظــما غير نفســه
ولا قــابلا الا لخالقـــه حكمـــا
يقولون لــي ما انــت كل كل بلدة
وما تبتغــي ، ما ابتغي جل ان يسمى
كأن بنيهــم عالمــون بانــنــي
جلوب اليــهم من معادنــه اليتمــا
واستهتر بالدنيا وما فيها :
كذا انا يا دنيا اذا شئت فاذهبــي
ويا نفس زيدي في كرائهها قــدمــا

هذا هو اثر المرأة الام ، او علــى الاصح المرأة الجدة ، في شعر المتنبــي ، فما هو اثر الزوجة والمرأة الحبيبــة في حياتــه وشعره ؟

اذا كان قد وجد بيــن المؤرخيــن من يذكر ام المتنبــي فيقول انها همدانية من صلحاء نساء الكوفة ، فانه لــم يوجد بينهم من يذكــر زوجته او يتحدث عنها بشــيء ، فنحن لا نستطيــع ان نعرف في اي زمن تزوج المتنبــي ، ولا في اي طور من اطوار حياته ، ولا في اي بلد من البلاد التــي نزلها ، بل ان الغموض ليكتنف هذه النقطة من تاريخه كــل الاكتناف ، وليس لدينا شــيء واضح عنها ، غير انه كــان له ولد سمــاه (محسدا) اما من هــي ام محسد ، وكيف

اتصل بها المتنبي ، واين اتصل ، وكيف كانت حياته معها؟ فانا لا نستطيع الاجابة به على شيء من هذا . فهل عاشت معه في بلاط سيف الدولة ؟ وهل انتقلت معه الى مصر ؟ وهل ذهبت الى ارجان وشيراز ؟ وهل امتدت بها الحياة بعده ام ماتت قبله ؟ كل ذلك لا يجيبنا عنه التاريخ بشيء ، ولكن امراواحدا يستوقف النظر ، هو ان الذين ذكروا مقتل المتنبي ذكروا ان محسدا كان يصحب اباه في عوده من فارس الى العراق ، ولكننا لا نعرف السن التي كان فيها محسد ، كما اننا لا نعرف اين كانت ام محسد في ذلك الحين . على اننا نستطيع التأكد من انها لم تكن تصحبه في تلك الرحلة القانية ، لانها لو كانت تصحبه وقتل زوجها وولدها لسمعنا عنها خبرا ، ولروى ابو نصر الجبلي للخالديين عنها شيئا ، فيا ليت شعري هل كانت لا تزال على قيد الحياة تنتظر اوبة زوجها وولدها وتستعد لاستقبالهما بعد الغياب الطويل ؟ هل كانت ام محسد في الكوفة تترقب عودة ابي محسد ومحسد فتبثهما لواعج الوجد والشوق وتفضي اليهما بما في الصدر من هوى وحنين ؟ ام كانت في مكان آخر تستطلع اخبار الغائبين العزيزين متوقعة ما يحملانه لها من مجد ورفاه ومال ؟ اجل هل كانت حية تنتظرهما ام كانت ميتة من عهد بعيد او قريب فلم يفجعها موتهما الدامي ؟

كل ذلك سر في ضمير التاريخ لم يكشف عنه لاحد . ولكننا نتساءل : هل يمكن ان تموت في حياة زوجها ، ثم لا يرثيها بكلمة ولا يبكيها بقصيدة بعد ان رأينا شدة تفجعه على جدته وطول حرقته لموتها ،و نحن يعنينا في مقالنا هذا ان

نعرف مدى تأثيرها في حياة المتنــبي وفي شعره ، وبعد كل الذي مر ندرك اننا لا يمكن ان نجد لها اي اثر في حياتــه ولا في شعـــــره .

اما ما كان من تأثير الحبيبة في المتنبــي فذلك ما سنجيب عليــه في مقــال تال .

الحب عند المتنبي

هل احب المتنبي وهل احس بلواعج الوجد وتباريح الغرام ؟ هل استطاعت امرأة ان تخلب لبه وتفتن قلبه، فيشيد بها ويتغنى بجمالها ومحاسنها ؟

اذا اردنا ان نتخذ شعر المتنبي دليلا على ترجيح السلب او الايجاب ، واذا اردنا ان نرجع الى ديوانه لندلي بالجواب ، فاننا نستطيع ان نقول بدون تردد ان المتنبي لم يعرف الحب ولم يعانه ، فالذي يقول :

وما العشق الا غرة وطماعة
يعرض قلب نفسه فيصاب
وغير فؤادي للغرام رمية
وغير بناني للزجاج ركاب

ان الذي يقول هذا القول لا يمكن ان يكون من اهل الحب بل هو من الهازئين بالحب واهله المشنعين عليهم الرامين لهم بالضعف ، فالحب عنده غرة وطماعة ، وليس من رايه ان القلب يرمى من حيث لا يحتسب ، بل من رأيه ان القلب هو الذي يعرض نفسه لهذه الغرة والطماعة فيصاب . ولو شاء هذا القلب الا يصاب لما اصيب وهذا قلبه فانه لم يشأ ان يصاب فلم يصب . ولم يسكت المتنبي عند هذا القول ، بل ردده في مواضع شتى فقال :

مما اضر باهل العشق انهـــم

هووا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا

تفنـــى عيونهم دمعـــا وانفســـهم

في اثـــر كل قبيـــح وجهـــه حسن

فالذي يراه المحبون حسنا فتفنـــى عيونهم به وتذوب نفوسهم ليس الا الوجوه فقط ، واما النفوس فانها قبيحـــة لا خير فيها ، ولو انهم اطلعوا علـــى ما وراء هذا الحســـن الخادع لما اضربهم عشقهم ، ولكنهم احبوا وعشقوا ، دون ان يمعنوا في التأمل بحقائق الدنيا ، فلم يعرفوا دخائل مـــن احبوا ،ولميفطنوا الى ما ينطويعليهمنغدر ومخاتلة وخداع. وهذا الرأي القاتم متأت ولا شك عن نظرة المتنبـــي للناس عامة ذكورا واناثا ، فلا تحسب المرأة ان المتنبـــي من اعدائها وحدها ، فهو ثائر علـــى الكون ناقم علـــى البشر جميعا ، لانه يرى نفسه مهتضما مغيظا لا يبل له اوام ولا يجاب نداء ، وهذا الرأي هو صدى لرأيه القائل :

ومن عرف الايام معرفتي بـــها

وبالناس روى رمحه غير راحم

وبعد ان يعلـــن المتنبـــي رأيه في العشق واهل العشق يلتفت الـــى الغانيات المغريات فيجبههـــن باعنف القول وامر الكلام ويخاطبهـــن بقسوة وتحكم صارخا بهن :

تحملوا حملتكـــم كـــل ناجيـــة

فكل بيـــن علي اليوم مؤتمـــن

فلا التهديد بالرحيل ولا الوعيد بالهجر ، استطـــاع ان يلين قلبه ويميل بهالى الهوىبل اعلن بان البين لن يضيره، وان النأي لن يزعجه . ولماذا يهتم ببعدهن ويشغل نفســـه

بهن ، ولماذا يحزن لفراقهن ويأسى على رحيلهن ما دامت مهجته وحدها التي ستتحمل عبء ذلك كله ، وما دام لن يجد لهذه المهجة اذا ذابت شوقا وتلاشت حنينا — لن يجد عوضا عنها في الظعائن وثمنا لها في الهوادج

ما في هوادجكم عن مهجتي عوض
ان مت شوقا ولا فيها لها ثمن

وان الذي يقول :

وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

والذي يقول عن نفسه وعن الناس :

ودهر ناسه ناس صغار
وان كانت لهم جثث ضخام
وما انا منهم بالعيش فيهم
ولكن معدن الذهب الرغام

ان الذي يقول هذا القول لا يكون عليه غريبا ان يرى مهجته اسمى من ان يذيبها شوق لمخلوق ، ونفسه اعظم من ان يقتلها حب لانسان .

واذا كنا قلنا آنفا ان المتنبي ناقم على الناس جميعا وان ثورته ليست على المرأة وحدها ، فهذا لا يعني ان ليس له فيها نظرة خاصة فقوله :

اذا غدرت حسناء وفت بعهدها
فمن عهدها ان لا يدوم لها عهد

وقوله :

ومن خبر الغواني فالغواني
ضياء في بواطنه ظلام

ان هذا القول صراحة في تخصيصه اياها بالشطر الوافي من حملاته على بني الانسان وصراحة برأيه السيء بها ، بل ان هذا القول يضعه في صف خصومها الالداء واعدائها الاشداء . على انه ربما كان احسن وصفها كل الاحسان وانصفها كل الانصاف حين قال :

وان عشقت كانت اشد صبابة
وان فركت فاذهب فما في فركها قصد
وان حقدت لم يبق في قلبها رضى
وان رضيت لم يبق في قلبها حقد

ولكن المتنبي صاحب هذه الاراء القاسية في المرأة والغرام لم يستطع ان يجرد شعره من الغزل فقد افتتح كثيرا من قصائده بالغزل وتحدث عن الحبو النساء وتظاهر بالهوىو شكوى النوى ، وشارك العاشقين في بث الوجد وذكر الوصل والصد ، حتى انه اغرق في ذلك احيانا اغراقا حاول فيه ان يتسمى بالعاشق كل العاشق :

وما انا الا عاشق كل عاشق
اعق خليليه الصفيين لائمه

وان يجعل عشقه فوق كل عشق :

وطرف ان سقىا لعشاق كاسا
بها نقص سقانيها دهاقا

وان يكون شاعرا غزلا :

احيا وايسر ما عانيت ما قتلا
والبين جار على ضعفي وما عدلا

فهو يتحدث عن حب قاتل يعجب معه كيف يبقى حيا ، ويتحدث عن بين جار عليه فلم ينصف ضعفه.ولا

يقتصر علــى هذا الحديث الاجمــالــي عــن الحب بل يعود فيخاطب حبيبــة بعينها فيتضرع لها تضرع الولهان :

بما بجفنيك من سحر صلــي دنفا

يهوى الحيــاة واما ان صددت فلا

ثم يسهب بوصف عواطفه الغامضة في عدة ابيــات يصل بعدها الــى ما اراده من مدح احد الناس وينتهــي الامر . وهكذا يبدو غزله بوجه عام ، فهو اما ان يرتفــع قليلا او كثيرا ، ومهما ارتفع او انحط فهو غزل لا طائل تحته، ولا عاطفــة تذكيه ولا شعور يوريه ويسف احيانا كــل الاسفاف فــيقول :

أوه بديــل مــن قولتــي واهــا

لمــن نات والبديــل ذكــراهــا

أوه لمـــن لا ارى محاسنهـــا

واصل واهــا واوه مــرآهـــا

والمتنبــي نفسه يعلــن رايه في هذا الغزل الفاشــي في بعض قصائده ولا يحجم عن ان يقول انه سير علــى سنن غيره من الشعراء ، وان طريقة الشعر قد اقتضت هذا ، وان افتتاح القصائد بالغزل ليس دليلا علــى الحب والغرام :

اذا كــان مــدح فالنسيب المقدم

اكل فصيــح قــال شعرا متيــم

وكأن المتنبــي صاحب الدعوة ضد الحب والمراة قــد خشــي ان يؤخــذ عليــه غزله وان يعتبر تناقضا مع ارائه الصريحة فاعتذر عن هذا الغزل واعلــن حقيقته ، وانه ليس في الواقــع الغزل الذي عرفه الناس ونظمه الشعراء ، بل هو غزل رمزي يخفــي تحته شعورا غير شعور الغرام ،

وحبـا لغير المرأة ، وتشعقا بغير ثناياها الغر واحداقهـا النجل ، فبعد أن افتتح قصيدة بالغزل المألوف عاد يقول :

يحب كنـى بالبيـض عن مرهفاته
وبالحسن في اجسامهن عن الصقل
وبالسمر عن سمر القنا غير انني
جناها احبائـي واطرافها رسلي
عدمت فؤادا لم تبت فيه فضـلة
لغير الثنايا الغـر والحدق النجـل
فما حرمت حسنـاء بالهجر غبطـة
ولابلغتها من شكا الهجر بالوصل

وهو في بيته الثالث عنيف متشدد وفي بيتـه الاخـير مستهزىء بلذائذ الوصال مستهتـر بالهجر لا يرى ان غضب الحسنـاء وهجرها يمكـن أن يحرم المرء أية غبطة ولا أن وصلها يمكـن ان يجلب اية سعادة وهذا قسـى مظهـر من مظاهـر ارائه الصلبة . على اننا لا نستطيع ان نجرد جميـع غزله من العاطفة والشعور فلا شك ان في القليـل من بعضه عاطفـة جياشة وحسا نابضا ولكـن ليس الحب وليست المرأة هـي مصدر ذلك ، بل هـي ذكريات ايـام سوالف واشواق الـى منازل نائية واهل بعيدين كـان يقـول :

مـا لاح بـرق او تـرنـم طائر
الا انثنيـت ولـي فـؤاد شيـق

او يقـول :

وكيف التذاذي بالاصائل والضحى
اذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبا
فيا شوق ما ابقى ويا لي من النوى
ويا دمع ما اجرى ويا قلب ما أصبى

او يقول :

ليالي بعد الظاعنن شكول
طوال وليل العاشقين طويل
يبن لي البدر الذي لا اريده
ويخفين بدرا ما اليه سبيل
وما عشت من بعد الاحبة سلوة
ولكنني للنائبات حمول
اذا كان شم الروح ادنى اليكم
فلا برحتني روضة و قبول
وما شرقي بالماء الا تذكرا
لماء به اهل الحبيب نزول

وما ادرانا ان لا يكون وهو يرسل هذا الشعر وامثاله انما يذكر تلك العجوز الذي رأينا اشفاقه عليها وشغفه بها في رثائه لها ، وانه يذكر ايام صباه الماضية في بلده وبين اهله وقومه :

اما الاحبة فالبيداء دونهم
فليت دونك بيد دونها بيد

ولا بد لنا ونحن في الحديث عن غزله من ان نلم بالابيات الجميلة التي تغزل فيها بالاعرابيات وعرض بالحضريات :

ما اوجه الحضر المستحسنات بها
كاوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفي البداوة حسن غير مجلوب
اين المعيز من الآرام ناظرة
وغير ناظرة في الحسن والطيب
افدى ظباء فلاة ما عرفن بها
مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ومن هوى كل من ليست مموهة
تركت لون مشيبي غير مخضوب

ولا شك ان هذا الغزل البدوي ، والتظاهر بالشغف بالاعرابيات انما هو اثر من آثار النقمة على المرأة فقد اتخذ من بساطة البدويات وسيلة للحملة على غادات المدن وانشغالهن بالزينة والتطرية والتجمل فتهكم على اصباغهن ومساحيقهن ،و هزأ بمضغهن الكلام وشبههن بالمعزى ، وعاب عليهن تمويه الحقائق وجردهن من كل محمدة وحسن ، ومع ذلك ومع انه اتخذ الاعرابيات ترسا يتوارى وراءه في الهجوم على الحضريات فان سجيته ابت الا ان تتغلب عليه فلم يستطع ان يترك ثناءه على نساء البدو خالصا لا شائبة فيه ، بل عاوده داؤه المزمن في الغضب على الجنس البشري والنقمة على بني الانسان فغمز من البادية واهل البادية غمزة قاسية :

فؤاد كل محب في بيوتهم
ومال كل اخيذ المال محروب

عندما كان المتنبي طالب وظيفة

يروى انه لما عوتب كافور الاخشيدي على عدم تلبية طلب المتنبي قال : (يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد اما يدعي المملكة مع كافور ؟) .

اما ان ابا الطيب ادعى النبوة بعد محمد فذلك امر لم يثبت ، ودعوى لم يقم عليها برهان . واما ان يدعي المملكة مع كافور فلا ندري ما الذي ينكره كافور في المتنبي مما يحول بينه وبين مشاركته له الولاية في زمن هانت فيه الولايات حتى وليها مثل كافور ، ولا ندري ما الذي كان يريده كافور في الرجل لكي يصبح اهلا للولاية ، واذا كان احمد بن الحسين وهو العربي الكريم والعبقري العظيم لا يحسن الولاية فلا ندري من هو في نظر كافور كان يحسن لها !.. وقد كان عيب المتنبي عند كافور انه : (راي تعاليه في شعره وسموه في نفسه)(١) ولو انصف كافور لوجد في هذه الصفات ما يحمله على احترام المتنبي واجابة رغباته ،و لكن الدهر الذي اوصل كافور للحكم وترك ابا الطيب طريدا من بلد الى بلد يفتش عن الرزق ويسعى للكرامة هو دهر يصبح منه تعالي الشعر وسمو النفس ذنبا

---

١ ـ الديوان .

يعاقب صاحبه بالحرمان وهو دهـر فهمـه ابو الطيـب حق الفهم عندما قال :

ودهـر ناسـه نـاس صغـار
وان كـانـت لهم جثث ضخـام
ولـم ار مثل جيرانـي ومثلـي
لمثلـي عنـد مثلـهـم مقـام
بارض ما اشتهيـت رأيت فيهـا
فليـس يفـوتهـا الا الكـرام

ومن المؤسف ان فريقا من مؤرخـي الادب القدمـاء والمعاصريـن قد تابعوا كافورا في رأيه وانكروا علـى ابـي الطيب تمسكه بطلب الولاية وعدوا ذلك منه اشتطاطا وغرورا لحسبانـهم انه طلب الولاية للولاية والحف في السعي لها حبا بالسيطرة والسلطان والواقع ان ابا الطيبو قد رأى من لؤم الزمان ما رأى وعانـى من نـذالة الايام ما عانـى انمـا كان يطلب (وظيفـة) تغنيـه عـن الوقوف علـى الابواب وتكفيـه مداراة من لا يستحق المداراة وتمنـع عنه اذى الطامعيـن في مدحه ممن لا يستحقون المدح والواقـع انه وقد لوحق سيف عند سيف الدولة تلك الملاحقة القاسيةوكابد من شغب الشاغبيـن كل صعب مرير راح يفتش عن منجى يحفظ عليـه رزقه موفور الكرامة عزيز الجانب ولم يجـد ذلك الا في عمل يليه فيتخلص به من متاعب الحياة وكوارثها . فهـو قبل ان يصل الـى سيف الدولة كان قد ذاق مـن الحيـاة الامريـن فطورد وسجـن وكان من تقدير بعـض حكام عصره لشعره ان جاد عليه بدينار جزاء انشاده قصيدة في مدحه فلماو صل الـى سيف الدولة عرف انه وصل الـى

حمى الملك العربي الذي يفهمه ويقدره وعرف انه وصل الى السيد الذي يلذ فيه القول ويطيب لسجاياه المدح وعرف انهو صل الى الرجل الذي كان ينشده ويسعى اليه ... ومن يكون هذا الرجل اذا لم يكن سيف الدولة بطل العرب ورمز سيادتهم وعنوان عزهم في عصره ، فاذا ما مدحه المتنبي واثنى عليه فانما يمدحه ويثني عليه لا متكلفا ولا متصنعا ولكنه يفعل ذلك متأثرا بمناقب هذا الممدوح الذي ذاد عن حمى العروبةو الاسلام اي ذياد . والذي استطاع ان ينشىء الدولة العربية الفتية في ذاك الخضم الاعجمي الزاخر : لقد كانت بطولة سيف الدولة وشخصيته الفذة خير مثير لقريحة المتنبي الفياضة وكانت معارك علي بن حمدان افضل ما يهيج شاعرية احمد ابن الحسين فحمد المتنبي مقامه وثار لادبه الفذ بهذا الحاكم الالمعي مما ناله من ذلك الحاكم الغبي وحسب ان الامر سيطول به قرير العين رضي النفس ولكنه احيط بالدسائس من كل مكان ووجد المتشاعرون فيه منافسا خطيرا غطى عليهم فاجمعوا امرهم على الكيد له فتحمل ذلك صابرا يعزيه عما يناله انه في جوار الرجل الحبيب الى نفسه القريب الى قلبه ولكنه ضاق آخر الامر ذرعا بما فيه فعول على المجازفة والتخلص من حياة الاتكال .

وقد افصح عن محنته تلك في القصيدة التي ارسلها الى سيف الدولة حينما كتب اليه مع ولده يطلب منه العودة اليه بعد تركه كافور فقال معتذرا عن ذلك :

فهمت الكتاب ابر الكتب

فسمعا لامر امير العرب

اريك الرضا لو اخفت النفس خافيا
ولا انا عـن نفسي ولا عنك راضيا
وطـوعا له وابتهاجـا بـه
وان قصـر الفعـل عمـا وجـب
ومـا عاقنـي غير خوف الوشـاة
وانا لـوشـايات طرق الكـذب
وتكثـير قـوم وتقليلهـم
وتقريبـهم بيننـا والخبـب
وقـد كـان ينصرهـم سمعـه
وينصـرني قلبـه والحسـب

فهو لا يرى في جوار سيف الدولة غضاضة ولا في مدحـه مهانة وهو لذلك لا يشكوه ولا يتضجر منه بل يحـن اليـه ويهواه وانمـا يخاف الدسائس في البلاط ويخشى وشايات الوشاة ، والعيش بيـن الدسائس والوشايات عيش اليـم والحيـاة فيها جحيم ولا سيمـا للاديب الفذ والشاعـر المجيد الذي يريد جوا هادئا ينصرف فيه الـى شعره وادبه لا الـى محاربة الكائديـن ومصاولة الشانئين ، وقـد حسب المتنبـي انه ملاق عند كافور ما يرنو اليه وقد كـان كافور هو الخاسر حيـن خيب به الرجاء واضاع الامل !.

ولم يكـن قصد المتنبـي لكافور بالامر الهيـن علـى نفسه فقد كان يشعر في قرارة ضميره اي مركب خشن اركبـه الدهـر واي هوان اوصله اليه حيـن الجاه الـى كافـور وقد كان يأسـى علـى نفسه اشد الاسـى حين اضطـر لمدح هذا الرجل الذي شاء الدهر الاعمـى ان يوصله الـى كرسـي الحكم . وحسبك في ذلك ان اول بيت انشده المتنبي بكـافور كان هذا البيت الذي يفيض حزنا والما والـذي

اعلـــن فيه صراحة انه كان يتمنـــى الموت قبلا ن يقف هذا الموقف المـــر :

كفا بـــك داء ان ترى الموت شافيا
وحســـب المنايـــا ان يكـــن امانيا
تمنيتها لما تمنيـــت ان تـــــرى
صديقـــا فأعيـــا او عـــدوا مداجيـــا

ولا اعرف في الالفاظ لفظا يمكـــن ان يعبر عن شعور الرجل الكريم الذي لم يجد بدا من الوقوف علـــى ابـــواب اشباه كافور تعبير هذيـــن البيتيـــن الخالديـــن ويدل دلالتهما ويكفـــي في مصاب المتنبـــي ان يكون الداء قد بلـــغ بالشاعر الـــى ان لا يرى شافيا منه الا الموت ، وحسبه ان تكون المنايا قدا صبحت امانيه ، لقد تمناها كما تمنـــى الصديق الوفـــي المخلص الذي لا يخونه عند الشدائد ولا ينساه اذا فرقـــت بينهمـــا المناصب، لقد تمنـــى ذلك فاعياه فتمنـــى ـــ على الاقل ـــ عدوا ينســـى عداوته احيانا فيداجيه ويكف عـــن اساءته فاعيـــاه أيضا فصاح من اعمـــاق قلبه (تمنيتها) .. ولقد استطاع انيخرج اروع صورة للحزن العميق بهذه الكلمة الواحـــدة (تمنيتها) .

واذكر ان احد النقاد عاب علـــى المتنبـــي ان يفتتح قصيدة المدح بهذا المطلـــع لا سيمـــا وهي اول قصيدة ينشدها لهذا الممدوح ، ولكـــن المتنبـــي كان في ذلك سائرا علـــى سجيته معبـــرا عـــن حقيقته معلنا لشكايته غير مبال بحسن المطلع او قبحه ، ولم يلبث بعد انشاد هذه القصيدة ان همس بينه وبيـــن نفسه :

تنبأ بالندم فكان النادم

قلت ان اول شعر انشده المتنبي لكافور كان شعرا تمنى به الموت قبل ان يقف هذا الموقف المر ، وانه شعر ان دل على شيء فانما يدل على ان المتنبي كان في حال من الاسى واليأس لا يأسف فيها على ترك الحياة بل يود لو ان هذه الحياة تركته واراحته من هذا الهوان الذي صار اليه ، فهو اليوم يقف على باب كافور ويتقرب اليه بالاماديح ويصوغ له قلائد الشعر ، وينشده فرائد القصائد ليتفضل كافور فيغنيه عن الناس ، ويسد خلته بعمل مستقر يطمئن اليه في مستقبل ايامه . واي حياة هي هذه الحياة التي تسوقه الى هذه الوقفة المزرية على باب هذا الرجل المتغلب . ولكن ابا الطيب اعتقد انه لم يكن له بد من هذه الوقفة على هذا الرجل فقد ضاق صدره بما لقي من الدساسين عند سيف الدولة فظن انه سيستطيع ان يغيظ سيف الدولة وحاشيته بما سيلقى عند كافور . واحسب انه قد تعمد ان يقصد الى كافور بالذات بعد تركه سيف الدولةو تعمد ان لا يقصد غيره وان يخصه بمدحه دون الاخرين من امراء عصره ليكون ذلك ابلغ في نكاية سيف الدولة واغاظته :

لئن تركن ضميرا عن ميامننا

ليحدثن لمن فارقتهم ندم

وقد كان موقنا ان كافورا سيقدره قدره وانه سيرى ان من نعم الله عليه ان يأتيه ابو الطيب فهو لذلك سيجزل له العطاء وسيجيب الرغبات ويحقق الاماني وقد كانت امنيته الوحيدة (ضيعة او ولاية) يتيه بها على الحاسدين ، وما قدر الولاية او الضيعة بجانب قصائده العصماء التي لم كن يحلم بمثلها هذا الامير الجديد المستحدث النعمة ؟!...

ولكن كافور لم يكن عند ظن المتنبي ولم تأت النتيجة كما قدر ابو الطيب بل اصم (ابو المسك) اذنيه عن الولاية وحسب انه يستطيع ان يكسب قلب المتنبي بالمال فاغدقه عليه ، ولكن لم يكن المال هو الذي يطلبه المتنبي فلقد كان يملك منه ما يغنيه في حاضره عن كافور ، واذا لم يكن يملك منه الكثير الفائض فانه لم يكن يريده بهذه الاساليب التي سئمها وعافتها نفسه ، ولم يكن يريده بنفس الطرق التي كان يناله بها في الماضي . لقد كان ابو الطيب يطلب عند كافور المجد والكرامة وكان كافور ابعد الناس عن ان ينيل ابا الطيب المجد والكرامة :

وما رغبتي في عسجد استفيده
ولكنها في مفخر استجده

وظل المتنبي يعرض بامنيته تارة فيقول :

وهبت على مقدار كفي زماننا
ونفسي على مقدار كفيك تطلب

ويصرخ بها تارة اخرى فيقول :

اذا لم تهب لي ضيعة او ولاية
فجودك يكسوني وشغلك يسلب

ولكن لا التعريض ولا التصريح كان يمكن ان يهز كافورا لتحقيق الامنية . وادرك اخيرا ابو الطيب ان كافورا ليس بالرجل المنشود وانه لم يكن الامير الذي يستطيع ان يغيظ به سيف الدولة ، وان مجلس سيف الدولة على ما فيه كان خيرا له من مجلس كافور ، وان اذى الدساسين وهم الحاسدين في البلاط الحمداني هما اهنأ للنفس الكريمة من استجداء امثال كافور وان علي بن حمدان اذا كان قد اصغى حينا الوشاة فهو لم يسيء بشخصيه للمتنبي اساءة تحمله على هذا الرحيل غير الحكيم وان سيف الدولة لم يكن يستحق ان ينفك عنه المتنبي بمثل هذه السهولة . ادرك ابو الطيب آخر الامر هذه الحقائق فزفر من اعماق صدره زفرة ضمنها هذا القول الباكي :

عثرت بسيري نحو مصر فلا لعا
بها ولعا بالسير عنها ولا عثرا
وفارقت خير الناس قاصد شرهم
واكرمهم طرا لا لامهم طرا
فعاقبني المخصي بالغدر جازيا
لان رحيلي كان عن حلب غدرا

ولم يكن المتنبي في هذه الابيات ناطقا الا بما كان يحسه في اعماق نفسه ولم تكن هذه الابيات ممثلة الا الصورة الصحيحة لما يعتلج في ضميره ولا يمكن ان يقال انه قد قال هذا القول تقربا الى سيف الدولة فان الذي لا ريب فيه هو ان المتنبي بعد تركه مصر قد عول على ان لا يعود الى حلب وعلى ان لا يرجع الى سيف الدولة مهما كلفه

الامر ، ولذلك رأيناه لا يجيب دعوة سيف الدولة ويصر على عدم الاوبة متعللا معتذرا ، لانه كان واثقا بان حديث سفره الى مصر ومدحه كافور وخيبته عنده وما مني به من الهوان والضيم سيكون موضع تنادر لخصومه السابقين وسيجدون في كل ذلك ما يغمزونه به في كل ساعة فقد تركهم مستهترا بهم موقنا بنكايته لهم واذا به يعود على اسوأ حال لذلك كان من غير المعقول ان يعود المتنبي بعد رجوعه من مصر الى حلب . فهو في ابياته السابقة لم يكن يقصد التقرب الى سيف الدولة بل كان يعبر عن احساسه العميق الصحيح ، لا سيما اذا عرفنا انه لم يظهر هذه الابيات وانها وجدت في رحله بعد قتله

تركت الركائب ضميرا عن ميامنها وفارق المتنبي سيف الدولة وكان الندم الذي تنبأ به ابو الطيب ولكنه لم يكن ندم سيف الدولة بل كان ندمه على ما فوت من ذاك الجوار العزيز . فمنذ الساعة الاولى التي نزل فيها ديار كافور ادرك في قرارة نفسه ان هذه الديار ليست بالديار التي تستطيع ان تغض من ديار سيف الدولة وانه يوم تعمد ان يأتيها مراغما كان غير موفق في اختياره فتمنى الموت في اول قصيدة ثم تتالت مدائحه فما خلت واحدة منها من التوجع والتألم بل كانت جلها صورا زاخرة بالاسى مفعمة بالهم :

امـا تغلط الايام في بان أرى
بغيضا تنائي او حبيبا تقرب

فها هو يذيع بان الايام قد ناءت الحبيب وقربت البغيض ثم يسترسل في ذلك ويزيد مقصده ايضاحا ، ويعلن

عـــن ذاك الحبيب النائي • ويشير اليه اشارة صريحة :

ولله سيري مـــا اقل تئيـــة
عشية شرقـــي الحدالى وغرب
عشية احفـــي الناس بي من جفوته
واهدى الطريقين التـــي اتجنب

ويعترف ان من جفاه كان حفيا به ، معنيا بامره وانه قد ضل الطريق يوم هجره وتخلى عنه • وكأنه اراد ان يعتـــذر عـــن ذلك وان يذكر ان طمـــوح نفسه وبعد همته قد حملاه علـــى النفرة منه وركوب هذا المركب الوعر فقال :

لحى الله ذي الدنيا مناخا لراكب
فكل بعيـــد الهـــم فيـــها معذب

ثم يعود الـــى اشجانه ومتاعبه :

الا ليت شعري هل اقول قصيدة
فلا اشتكـــي فيها ولا اتعتـــــب
وبـــي ما يذود الشعر عنـــي اقله
ولكن قلبـــي يا ابنة القوم قلـــب
يضاحك في ذا العيد كل حبيبـــه
حذائي واشكو من احب واندب
احـــن الـــى اهلي واهوى لقاءهم
واين من المشتاق عنقاء مغرب

فنكاد نلمس هذه الاشجان بانفسنا ونكاد نحسها بقلوبنا فما نستطيـــع الا ان نأســـى على هذا الرجل العظيم الذي شاء له الدهر هذا العذاب المرير وما نستطيع الا ان نشاركه النقمـــة علـــى الزمان واهل الزمان •

وبعد ان يفرغ صبر المتنبـــي ويوقـــن ان كافورا انما يخادعـــه تثور نفسه ثورتها العنيفة ، وتهيج كرامته هيجانها العاصف فيهجو كافورا ذاك الهجاء الخالد الذي امتـــزج فيه الحزن بالغضب والالم بالاسف والحسرة بالندامة والذي كان فنـــا فريدا في الادب العربـــي لا يدانيه فـــن . وكأن المتنبـــي بعد هذا الهجاء قد خشـــي اعتراض المعترضين وتحذلق المتحذلقيـــن وغمز الغامزين فرد عليهم سلفا وقال وما ابلـــغ ما قـــال :

وشعـــر مدحـــت به الكركـــدن

بيـــن القريض وبيـــن الرقـــى

فمـــا كان ذاك مـــدحا لـــه

ولكنـــه كان هجـــو الـــورى

ولعمري انه لم يكـــن اعظم في هجو الورى من ان يقول المتنبـــي في كافور :

فدى لابـــي المسك الكرام فانها

سوابـــق خيـــل يهتديـــن بأدهـــم

وبعد ان امعن في الهجاء واقام الدنيا واقعدها علـــى كافور قال مخاطبا الناس اجمعيـــن :

اخذت بمدحه فرأيـــت لهـــوا

مقالي للاخيـــق يا حليـــم

ولما ان هجوت رأيت عيـــنا

مقالـــي لابـــن آوى يا لئيـــم

فهل من عـــاذر في ذا وفي ذا

فمدفوع الـــى السقم السقيـــم

اللهم اننا لعاذرون ...

ابن زيدون بين الحياة والشعر

لقد اعتورت حياة ابن زيدون مشاكل سياسية وغرامية كابد فيها عناء جما فكان ينجح حينا ثم يفشل حينا آخر وقد تعاقب عليه هذا النجاح والفشل مرارا عديدة خرج من بينها ابن زيدون الشاعر الفريد .

واذا كان ابن زيدون الرجل لم يفز من دهره بكل ما كان يرجوه واذا كان هذا الدهر قد نغص عليه ساعات الفوز فبينما هو على اريكة الوزارة اذا به في غياهب السجن ، وبينا هو على متع الوصال اذا به على غصص الهجر . اذا كان ابن زيدون الرجل قد لقي في حياته كل هذا فلا ريب ان ابن زيدون الشاعر كان على النقيض من ذلك فقد كان ناجحا جد ناجح وموفقا جد موفق فبمقدار ما كان يصيب ابن زيدون الرجل من هزيمة في الحياة ، كان ابن زيدون الشاعر يسجل نصرا باهرا وفتحا مبينا في الشعر ، وبمقدار ما كان يخبو من ابن زيدون الرجل كان يلمع من ابن زيدون الشاعر .

فهذا السجن الظالم الذي رسف فيه ابن زيدون الرجل بالهوان واحنى من هامته ضراعة وذلا هذا السجن الموحش الذي دفن فيه ابن زيدون حيا فمات قبل الموت وفني قبل الفناء ، هذا السجن نفسه حلق فيه ابن زيدون الشاعر

الى الجوزاء ورفع من راسه الى العلاء ، وهذا السجن نفسه خلد فيه ابن زيدون الشاعر بعد الموت وحيي بعد الفناء .

ولعمري ان ما ظفر به ابن زيدون الشاعر من الدهر ليغفر لهذا الدهر ما جرعه لابن زيدون الرجل غصصا وما البسه هوانا ، وان ما لهذا الدهر من يداي يد على ابن زيدون الشاعر ليمحو ما له من سيئات اي سيئات عند ابن زيدون الرجل وماذا يريد ابن زيدون بعد من دهره الذي ظل يشكوه ويهجوه ناقما منه شماسه منكرا عليه ظلمه :

فتأمل كيف يغشى
مقلة المجد النعاس
ويفت المسك في التر
ب فيوطى ويداس
فعسى ان يسمح الدهر فقد طال الشماس

ماذا يريد منه وقد سمح ولان بعد الشماس فخلق للشعر العربي ابن زيدون الشاعر صاحب النونيه العصماء وحسبه في ذلك منة وفضلا .

ولم يكن ابن زيدون في الواقع ليذهب في سوء ظنه بدهره الى ابعد الحدود بل كان يرتجي من خلال الدياجي الحالكة بصيص نور يكشف عنه الضر وكان في كل شكاويه يترقب من الدهر احسانا بعد الاساءة :

ان قسا الدهر فللما
ء من الصخر انبجاس

وهذا الاحسان انما كان يترقبه ويرجوه كرجل ولكن يشاء الدهر ان يهبه له كشاعر فيكون ارفع قدرا واعظم قيمة .

ولقد كان معظم شعر ابن زيدون وليد ظروفه السياسية او الغرامية التي تلاعبت به حينا من الدهر ووجهته في وجهات شعرية رائعة كانت غناء طورا وبكاء طورا آخر .

فهو باتصاله ببني جهور واشتراكه معهم في ثورة قرطبة حظي لديهم اي حظوة ووزر لهم ولقب بذي الوزارتين فكان طبيعيا وهو الشاعر المجيد ان يمدحهم وهم رؤساؤه واولياء نعمته ومدح الملوك والامراء كانت سنة طبيعية في الشعر العربي ، واذا كان الشعراء البعيدون عن مجالس الملوك والامراء يتسابقون لمدحهم فان الشعراء القريبين منهم الراتعين في اكنافهم اولى بذلك . وكذلك كان ابن زيدون فقد مدح امراء بني جهور بقصائد كثيرة ليس فيها ما يستوقف النظر بل جرت على المجرى المعروف عند الشعراء العرب في ذلك الحين من الابتداء بالغزل ثم التخلص الى المدح ووصف الممدوح بالمبالغات المتداولة التي تقال لكل ذي سلطة ونفوذ فهو مثلا يقول في ابن جهور :

متمرس بالدهر يقعد صرفه
ان قام في نادي الخطوب خطيبا

ثم بعد ان يغدق عليه كثيرا من امثال هذه الاوصاف يشعر بانه قد بالغ على عادة شعراء عصره فيشير الى ذلك معتذرا :

واذا تفنن في اللسان ثناؤه
فافتن لم يكن المراد غريبا
غالى بما فيه فغير مواقع
سرفا ولا متوقع تكذيبا

ولكننا نستطيع ان نقول له إن ثناءه هذا اذا كان حقيقة غير متوقع في مجلس ابن جهور تكذيبا — ولا شك — متوقع اليوم هذا التكذيب وهو في كل يوم مواقع للسرف .

وعلى هذه الانماط تمضي مدائحه كلها :

ترى الدهر ان يبطش فمنكم يمينه
وان تضحك الدنيا فانتم لها ثغر

وكما مدح بن جهور رؤساءه الاولين كذلك مدح بني عباد رؤساءه التالين فكانت مدائحه على غرار المدائح الاولى فهو يقول للمعتمد :

اعرض عن الخطرات انك ان تشأ
تكن النجوم اسنة لقناكا

الى غير ذلك من مدائحه في المعتضد والمعتمد ولا ريب ان لابن زيدون في رؤسائه سواء منهم بنو جهور او بنو عباد مدائح صادقة لا يمكن ان تقلس بغيرها فقد كان مصدرها شكران لنعمهم واعتراف بفضلهم فهي تعداد لما اولوه من اياد وتبيان لما غمروه من جميل فهو يقول في بني جهور :

ملوك لبسنا الدهر في جنباتهم
رقيق الحواشي مثل ما فوف البرد
بحيث مقيل الامن ضاف ظلاله
وفي منهل العيش المعذوبة والبرد

اليس ابو الحزم الذي غب سعيه
تبصر غاوينا فبان له الرشد
اغر تمهدنا به الخفض بعدما
اقض علينا مضجع ونبا مهد

فهو في هذا القول صادق كل الصدق فان بني جهور في اول عهدهم به رفعوه الى اعلى المناصب واغدقوا عليه اعظم الخيرات فكان مقيل امنه عندهم ضافي الظلال ومنهل عيشه عذب بارد ، ونال لديهم الخفض والدعة .

وكذلك هو ايضا حين يمدح بني عباد يقول للمعتضد :

انى اقوم بشكر طولك بعدما
ملأت يدي من الدنيا يداكا
بردت ظلال ذراك واحلولى جنى
نعماك لي وصفت جمام نداكا
وامنت عادية العدا الاقتال مذ
اعصمت في اعلى يفاع حماكا

وفيما عدا امثال هذه الابيات التي نراها مثبوتة في قصائده المدحية الكثيرة لا نجد في مدحه شيئا جديدا يمكن ان يدل على شخصيات ممدوحيه بل هو مبالغات مبتذلة مكررة تقال لكل ذي حول وطول ولا يشترط فيها الصدق والاخلاص ، ومن الطريف ان ابن زيدون نفسه يعترف بكذبه بمدائحه وانه كان يمدح طمعا ورجاء فاذا انقطع الطمع وذهب الرجاء لم يبق للمدح موضع اما ان يمدح لان الممدوح خليق بالمدح فذاك لم يكن يعرفه هو ولا معظم الشعراء . فانه

بعد ان وقع بينه وبين بنيجهور ما وقع قال مخاطبا ابا الحزم بن جهور :

قل للوزير وقد قطعت بمدحه
زمنا فكان السجن منه ثوابي
لا تخش في حقي بما امضيته
من ذاك في ولا توق عتابي
لم تخط في امري الصواب موفقا
هذا جزاء الشاعر الكذاب

وكما كان لابن زيدون مدائح في هؤلاء الرؤساء فقد كانت له مراثي فيمن توفي منهم ومن ينتمي اليهم وهذه المراثي لا تنطوي على شيء من صدق العاطفة فهي مراث اقتضتها المجاملات والتقاليد يبدؤها على عادة الشعراء بالمواعظ والحكم ويتخلص الى المرثي فيصفه بما يقتضي المقام ويناسب الحال ، ثم لا يتردد في ان يضيف نفس هذه الصفات الى مرثي اخر لا نسبة بينه وبين المرثي الاول الا نسبة الموت ومن المدهش ان ابن زيدون قد بز غيره في هذا الباب فشعراء المراثي يكتفون عادة بترديد المعاني الواحدة في كل مرثي لان الهدف مسايرة الظروف لا الاخلاص في العاطفة والقول وهذه المسايرة تقتضي التهوين والمبالغات وسوق المواعظ والحكم عند كل وفاة لا فرق بين شخصيات المتوفين ، وهذا هين في جانب ما اقدم عليه ابن زيدون في هذا الباب فقد فاق في ذلك المتقدمين والمتأخرين فانه لم يكتف باعادة المعاني وتكرارها بل راح يعيد القصيدة نفسها في اشخاص مختلفين متناقضين مع تغيير ما يجب

تغييره من الفاظ يقتضيها الموقف . فهو مثلا عندما كان يرتع في اكناف بني جهور ويعيش في نعمهم كان لزاما عليه ان يرثي امواتهم كما يمدح احياءهم فماتت ام ابن جهور فرثاها ابن زيدون بقصيدة رائية قال في مطلعها :

هو الدهر فاصبر للذي احدث الدهر

فمن شيم الابرار في مثلها الصبر

الى اخر التقليد المعروف من دعوة للصبر وتذكير بالموت ثم تخلص الى المتوفاة التي يقول فيها مثلا :

أأنفس نفس في الورى اقصد الردى

واخطر علق للهدى اهلك الدهر

فام ابن جهور في هذا البيت هي انفس نفوس الورى واخطر اعلاق الهدى وهي في الابيات الاخرى ذات صفات لا تقل عن هذه الصفات وقد كنا نرضى من ابن زيدون هذا القول لو انه ثبت عليه بالرغم مما فيه من الكذب الصراح ولكن ابن زيدون بعد ان يغضب عليه الجهوريون وينزح الى اشبيلية ويتصل ببني عباد ويصفو له العيش في ظلالهم يموت ولي نعمته الجديد المعتضد ويخلفه ابنه المعتمد . والمجاملات هنا تقتضي الرثاء وانشاد الشعر في المتوفى . وما دامت القضية قضية ظروف مؤاتية ومناسبات موافقة فليرجع الشاعر الى اوراقه يستخرج منها دفائن المراثي التي قيلت في حال كهذه وليس اقرب من القصيدة التي نظمها في ام ابن جهور فالمتوفى الجديد امير والمتوفاة القديمة اميرة ام امير ، وهكذا اخذ ابن زيدون قصيدته في رثاء ام ابن جهور وغير وبدل بعض ابياتها مما لا مناص

من تبديله ، وكان المعتضد ايضا كما كانت ام ابن جهور انفس نفوس الورى واخطر اعلاق الهدى ، ويمضي ابن زيدون بنقل القصيدة كلها مع تبديل اضطراري لبعض الابيات فهو يقول في رثاء المراة الجهورية مثلا :

هنيئا لبطن الارض انس مجدد
بثاوية حلته فاستوحش الظهر
بطاهرة الاثواب قانتة الضحى
مسبحة الاناء محرابها الخدر
حصان ان التقوى استبدت بسرها
فمن صالح الاعمال يستوضح الجهر
يطأطأ ستر الصون دون حجابها
فيرفع عن مثنى نوافلها الستر

وهذا القول لا يمكن ان يقال في رجل والمعتضد لا يمكن ان ينعت بهذه النعوت النسائية البحتة فلا بد من تحوير في مجرى بعض ابيات القصيدة لتأتي مطابقة للمقام وهكذا كان فقد قال في قصيدة المعتضد بدل هذه الابيات :

وابيض في طي الصفيح كأنه
صفيحة مأثور طلاقته الاثر
اعباد يا اوفى الملوك لقد عدا
عليك زمان من سجيته الغدر

فمن هذا المثال يتضح ان الرثاء كالمديح في شعر ابن زيدون لم يكن له اية صلة مع قلبه ونفسه ، وعلى ذلك فليست شاعرية ابن زيدون الصحيحة بارزة في هذا النوع من الشعر بل هي بارزة في الناحية الاخرى منه الناحية

التـــي عذبته طويلا فعانـــى اهوال الصدود وغوائل السجن وما الـــى ذلك من مرارات ولوعات وهـــي الناحية التـــي سنعرض لها في مقال اخر

علـــى ان لابن زيدون قليلا من الشعر الرثائي العاطفي الذي قاله في رثاء بعض اصدقائه كقصيدته في رثاء القاضـــي ابـــي بكر بن ذكوان التـــي لا تخلو من عاطفة صادقة وشعور صحيـــح .

غرام ابن زيدون

يقول ابـــن بسام صاحب الذخيرة في معرض حديثه عن ابن زيدون : (اصبح متيم ذلك الحي وعاشق ولادة لامي ، زاد علـــى مجنون ليلـــى وقيس لبنـــى) . الـــى اخر ما قاله ابـــن بسام علـــى طريقته السجعية المملة .

فمـــن هـــي هذه ولادة التـــي كان لها هذا الـــدور في حيـــاة هـــذا الشاعر وكـــان لها اثـــر اي اثر في ادبـــه وطراز عيشه وتفكيره بل هـــي التـــي وجهت ابن زيدون هذا التوجيه الوجدانـــي الرائع فحلق فيه ما شاء له التحليق .

ان ولادة هذه هـــي بنت المستكفـــي من اواخر الخلفاء الامويين في الاندلس والمستكفـــي هذا يحدثنا عنه مـــؤرخ الاندلس الشهير (ابو حيان) فيقول : (لقد اجمع اهـــل التحصيل انه لم يجلس في الامارة اسقط منه ولا انقص اذ لم يزل معروفا بالتخلف والركاكة مشتهرا بالشرب والبطالـــة سقيم السر والعلانيـــة ، اسير الشهوة عامل الخلوة ، فلـــم يكـــن فيه للخلافة ادنـــى كفاية وانمـــا ارسله الله علـــى الامة محنة وبلية) .

هذه هي النعوت التـــي اغدقها ابو حـــيان علـــى المستكفـــي ، ولعمـــري انه لبون شاسع بين هذا الخليفـــة وبيـــن اولئك الذين رفعوا شأن الاندلس الـــى الذرا .

اما ابنته ولادة فيقول المؤرخون (انها كانت اديبـــة

شاعرة جزلة القول حسنة الشعر ، تناضل الادباء وتساجل الشعراء ، ولقد عمرت عمرا طويلا ولم تتزوج ، وقد ابتذل حجابها بعد نكبة ابيها وقتله فصارت تجلس للشعراء والكتاب وتعاشرهم وتجادلهم ويتعشقها الكبراء منهم وكانت على خلق جميل وادب غض) .

ولقد انشطر مؤرخو الادب فيها الى رأيين يقول احدهما بانها كانت مستهترة في حياتها الخاصة كل الاستهتار وانها كانت تكتب على ثوبها ابياتا من الشعر تقول فيها :

انا والله اصلح للمعالي
وامشي مشيتي واتيه تيها
امكن عاشقي من صحن خدي
واعطي قبلتي من يشتهيها

ويقول الراي الاخر على عكس هذا القول ، وانها كانت على الرغم من تبذل مجالسها عفيفة مصونة ، وكانت علاقاتها بريئة لا تتعدى المطارحات الادبية والمساجلات الشعرية .

وقد المح ابن بسام صاحب الذخيرة الى ذلك فقال في معرض حديثه عنها : (على انها سمح الله لها وتغمد زللها طرحت التحصيل واوجدت الى القول فيها السبيل لقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها) .

ويقول احمد زكي باشا ان المؤرخين اجمعوا على عفتها وصونها . ودعوى الاجماع هذه دعوى غريبة فان قول ابن بسام وهو اقرب المؤرخين الى عصرها واكثرهم معرفة بدقائق الامور هناك

يناقض قوله كل المناقضة بل ان ابن بسام يتهمها صراحة وان كان اراد ان يجيء بالتهمة ناعمة رقيقة ولكنها على كل حال تهمة !!

ونحن لا نستطيع ان نؤمن بهذا الاجماع على صونها ، ومن العسير علينا ان نذهب معه الى ذاك الحد بعدما عرفنا عن مجالسها ونواديها ، وكيف يريدنا على ذلك وابن زيدون محبها المفتون وعاشقها الموله لا يتردد بالاشارة التي ما كان بينه وبينها والى ما صار بينها وبين مزاحمه ابن عبدوس بعد هجرها له :

لقد قالوا ان ولاده اعرضت عن ابن زيدون حينا من الاحيان ومالت الى مزاحمه ابن عبدوس وكان يلقب (بالفار) فقال ابن زيدون في ذلك :

اكرم بولادة ذخرا لمذخر
لو انها فرقت بين بيطار وعطار
قالوا ابو عامر اضحى يلم بها
قلت الفراشة قد تدنو من النار
عيرتمونا بان قد صار يخلفنا
فيمن نحب وما في ذاك من عار
اكل شهي اصبنا من اطايبه
بعضا وبعضا صفحنا عنه للفار

وفي هذا القول ما فيه وما كان ابن زيدون ليقوله لولا انه يعلم من الامر ما يعلم ، وما كان ابن بسام ليقول ما قال لولا ان ذلك كان معروفا ومشهورا .

وعلى كل فنحن لا يسعنا الا ان نقول مع ابن بسام : (سمح الله لها وتغمد زللها) .

اما حب ابن زيدون لها فقد بلغ حده الاقصي وعاد تدلها وشغفا فقد علقها على اعنف ما يعلق المحبون فكان ذلك سبيلا لاذكاء عاطفته واشعال قريحته فجاءنا برائق الشعر وخالد القوافي ، وبرز في ذلك ما شاء له التبريز . ولقد كان لهذا الحب العميق فضل اي فضل على ادب ابن زيدون وشعره فقد احب ونجح ثم فشل ثم نجح وقد تداوله هذا الفشل والنجاح فكان بينهما القيثارةالعامرة تشجي النفس وتهيج القلب اذا ناحت واذا شدت ، فهو طورا شاد طروب يهتف :

ما للمدام تديرها عيناك
فيميل من سكر الصبا عطفاك
هلا مزجت لعاشقيك سلافها
ببرود ظلمك او بعذب لماك

وها هو طورا باك حزين ينشد :

انا قرأنا الاسى يوم النوى صورا
مكتوبة واخذنا الصبر تلقينا
لا اكؤس الراح تبدى من شمائلنا
سيما ارتياح ولا الاوتار تلهينا

او ينشد :

يا نازحا وضمير القلب مثواه
انستك دنياك عبدا انت دنياه
الهتك عنه فكاهات تسر بها
فما تمر ببال منك ذكراه

عل الليالـــي تبقيني الــى امل
الله يعلـــم والايـــام معنـــاه

او ينشـــــد :

يـــا دمع صب ما شئت أن تصوبـــا
ويـــا فـــؤادي آن ان تـــذوبا
اذ الرزايـــا اصبحـــت ضروبـــا
لـــم ار لـــي في اهلـــها ضريبـــا
قد مـــلأ الشـــوق الحشـــا ندوبا
في الغـــرب انرحـــت به غريبـــا
عليـــل دهـــر سامنـــي تعذيبـــا
ادنـــى الضنا اذ ابعـــد الطبيبـــا

احب ابن زيدون ولادة فبادلته حبا بحب وما ندري هل صدقت في حبها واخلصت في هواها ؟ ولكننا نعرفه هو محبا صادقا لا يصدف عنها ولا تزيده الايام الا هوى وصبابة . اما هـــي فقد سايرته حينا واعرضت حينا اخر ، فقد نال في اول الامر رضاها ووقع من نفسها ووقعت من نفسه وكانت بينهما مزاورات وجلسات . وقد كتبت اليه يوما تضرب له موعدا :

تـــرقب اذا جـــن الظلام زيارتـــي
فانـــي رايـــت الليـــل اكتم للســـر
وبـــي منك ما لو كان بالشمس لم تلح
وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يســـر

وما ندري مقدار ما هذا القول من صدق العاطفة وهل كانت حقا شغوفة به الـــى هذا الحد ام انه الشعر ونوازع النفس ، واننا لنشك كل الشك ان يكون بيتها الاخير معبـــرا

عن حقيقة ما يختلج في قلبها لابن زيدون وان كانت سايرته الى حد ما فما نظنها كانت مخلصة لأنه كان لابن زيدون شركاء في ذلك القلب الذي ما نحسبه عرف الهوى الصحيح الخالص ، وقد كانت بينهما مراسلات كثيرة وقد كتبت اليه ايضا :

الا هل لنا من بعد هذا التفرق
سبيل فيشكو كل صب بما لقي
الى ان قالت :
تمر الليالي لا ارى البين ينقضي
ولا الصبر من رق التشوق معتقي
سقى الله ارضا قد غدت لك منزلا
بكل سكوب هاطل الوبل مغدق

ولا شك ان في هذه الابيات عاطفة جياشة ولكننا نحسبها عاطفة بنت ساعتها اثارتها ذكرى عذبة حلوة ولو كانت صادقة مخلصة لما رأيناها ترتمي على خصمه ابن عبدوس .

بلى لقد فاز ابن عبدوس حينا بولادة واقصى عنها ابن زيدون فوقع ذلك من نفسه امر الوقع لانه كان محبا مفتونا فعمل جهده على اقصائها عنه وتفنن ما شاء التفنن وتفتحت قريحته على ضروب من النظم والنثر جد رفيعة فكتب اليه رسالته الهزلية الشهيرة على لسان ولادة وقد عبث فيها به اي عبث ، فاشتهرت هذه الرسالة في المشرق والمغرب وشرحها الكثيرون شروحا مختلفة ، كما انه ارسل اليه قصيدة قال فيها :

وغـــرك مـــن عهـد ولادة
ســراب تــراءى وبــرق ومض
تظــن الــوفاء بهـــا والظنــو
ن فيــها تقــول على مــن فرض
هـــي الماء يأبى علـــى قــابض
ويمنـــع زبـــدته مـــن مخـــض
ونبئتهـــا بعـــدي استحمـــدت
ســيري اليـــك لمعنـــى غمـــض
ابـــا عامر عشـــيرة فاستقـــل
لتبـــرم من ودنـــا مـــا انتقض

ولقد جاء قول ابن زيدون مصداقا لما قلناه عن الشك في اخلاص ولادة في حبها وبيته (تظن الوفاء) والذي يليـــه يعبران عن ذلك احسن تعبير . ولقد وقعت رســالـــة ابـــن زيدون علـــى ابن عبدوس وقعا مرا امسك معه ابن عبدوس عـــن التعرض اولادة الى ان انتقل ابن زيدون من قـــرطبة الـــى اشبيليـــة .

ولم يكن ابن عبدوس المزاحم الوحيد لابن زيدون على ولادة بل كان له مزاحمون آخرون اشهرهم ابو عبـــد الله البطليموســـي وقد كتب اليه ابن زيدون كمـــا كتب الى ابن عبـــدوس .

ومن العجيب ان ابـــن زيدون بالرغم مما كان يـــراه من تقلب ولادة وميلها الـــى خصومه كان لا ينفك عن التعلـــق بهـــا بل كان ذلك يزيده ولها وشغفا . وفي الواقع فان هذا الحـــب قد خلق ابن زيدون خلقا جديدا وكان اثره كبيرا في

مناحيه الشعريـــة ورفعـــه الى تلك المنزلة بين الشعراء .

ولا ريب ان الألم اذا حل بالشاعر الحساس يذكـــي قريحته فتفيض بكل نفيس ثميـــن فلولا الم المتنبـــي النفسي مثلا لما جاء بالروائع الخالدات ولولا شجونه لما انشد تلك الميمية العصمـــاء في حضرة سيف الدولة ولا وسم كافورا بداليـــته الغـــراء .

ولولا الاسر لما رأينا روميات ابي فراس الحمـــدانـــي الرنانة ، وبالتالـــي لولا هذا الحب العنيف والهجر الطويل ، والفراق المديد لما تمتعنـــا بروائع ابن زيدون فكانت غـــذاء لارواحنـــا وسميرا في اشجاننا وعزاء في شدائدنا بل لما كان للادب العربـــي تلك النونية الساحرة التـــي لم تستطع حتى اليـــوم قصيدة عربيـــة ان تزاحمها .

صحافيو الماضي

اذا كانت العصور الماضية لم تعرف الصحافة فانها عرفت مظهرا من مظاهرها كان يسد الفراغ الذي تملؤه الصحافة اليوم ان من ناحية الخير او ناحية الشر ..

وما دامت الدعامة الاولى للصحافة هي (الكلام) وحسن استخدامه في الدفاع والهجوم والترهيب والترغيب، فان الاقدمين الذي عرفوا من الكلام افانين عجيبة استغلوها في التأييد والخذلان والمدح والقدح هم كصحافيينا اليوم سواء بسواء ، فقد كان لكل جماعة لسان يدفع عنها ويدعو لها ، ولكل فكرة فم يشيد بها ويزري بخصومها ، ولكل حكومة مؤيدون ومعارضون ، وبين هؤلاء وهؤلاء من يؤيد او يعارض عن عقيدة ومن يفعل ذلك مأجورا فيؤيد فلانا في الحكم ثم يتجنى عليه بعد الحكم ، وينصر عقيدة منتصرة ثم يخذلها اذا انهزمت !. اي ان الامر بالامس كان كما هو اليوم تماما ..

لقد كان الشعراء في الماضي مكان الصحفيين في الحاضر ، فلا بد للحاكمين من دعاية ولا بد للطامعين بالحكم من دعاية ولا بد للثائرين من دعاية ولا بد لكل حزب ولكل فرد من دعاية ، وافضل الدعاة هم الشعراء فان لهم من اساليب الكلام ما ليس لغيرهم ولكلامهم من الاثر ما ليس لاحد ، وقد كانوا يعرفون لانفسهم هذه القيمة فيستغلونها

امضى استغلال ، فمن لم يكن له فكرة خاصة او بالاحرى من لم تكن تهمه الفكرة الخاصة كان يبيع نفسه غاليا فيتهافت على القصائد الوف الدنانير ويعيش عيشة الاثرياء المنعمين، وهو لا يجد اية غضاضة في ان يذم اليوم من مدحه البارحة ولا ان يفعل العكس ما دام في ذلك مورد رزق ومنبع مال !

ومن كان ذا عقيدة في المدح والذم وهم قليلون كانوا يعارضون الحكم القائم معارضة عنيفة ينالهم بسببها انواع الاذى ولكنهم يصمدون في الميدان حتى النفس الاخير ، وبعضهم كان يعارض يائسا فهو لا يأمل ابدا ان تحكم جماعته ولكنه مؤمن بهذه الجماعة فهو يتحمل كل شيء في سبيلها .

وكما يتعرض الصحافيون اليوم للاعتداء عليهم بالضرب والجرح احيانا فكذلك كان حال الشعراء . ولكن الامر على كل حال لن يصل الى الحد الذي كان يصل فيه مع الشعراء فان اعداءهم لم يكونوا يرضون لهم باعتداء بسيط بل كانوا يطلبون ارواحهم ويفوزون بهذه الارواح ، وكلنا نعلم ان شاعر العرب العظيم (المتنبي) قضى بسيف (فاتك الاسدي) وكذلك كان حال ابن الرومي ودعبل الخزاعي وغيرهم ممن شعراء الجاهلية والاسلام ..

ولم يكن هؤلاء الشعراء يصطنعون الجد دائما فكما ان في الصحافة اليوم صحافة جدية وصحافة هزلية وصحافة تمزج الجد بالهزل فكذلك كانوا ، وكما ان في الصحفيين من يرى (الكاريكاتور) افضل الوسائل في التعبير عن المقصود فيصور خصومه صورا مضحكة فكذلك كان في الشعراء من يصور الخصوم بأمتع الصور الكاريكاتورية فيخزيهم ويعود عليهم بسوء الحالة . واني في هذه الكلمة

سأعرض لصورة او لصورتين مما يخطر على البال الان على ان اعرض في كلمة اخرى لشاعر معارض عنيد كانت وسيلته الوحيدة في محاربة (الحكومة) ورجالها الصور الكاريكاتورية العجيبة التي كان يضحك لها ويعجب بها حتى انصار الحكومة انفسهم .

فمن الصور اللطيفة تلك الصورة التي رسمها احد الشعراء لامير اسود اللون كان يكرهه الشاعر ويحاربه فرآه مرة على منبر الخطابة وقد لبس على جسمه الاسود ثوبا ابيض لم يظهر منه الا يداه ووجهه فتأمله مليا وانشد :

ترى منبر العبد اللئيم كأنما

ثلاثة غربان عليه وقوع

ومنها قول الشاعر فيمن اسمه (عمرو) ويظهر ان حال عمرو هذا كان كحال من تظاهروا في الزمن الاخير بالإيمان بالعروبة والوطنية بعد ان كفروا بهما وحاربوهما طوال حياتهم :

ارفق بنسبة عمرو حين تنسبه

فانه عربي من قوارير

وكم فينا اليوم من هم عرب من قوارير !..

ولعل مما يلحق بهذا الباب قول ذاك الشاعر الذي هجا محمد بن يزيد الثمالي وقبيلته ثمالة بقوله :

سألنا عن ثمالة كل حي

فقال القائلون ومن ثماله

فقلت محمد بن يزيد منهم

فقالوا زدتنا بهم جهاله

ادبــاء انتهازيون وآخرون مبدعون

هذه النقمة العارمة علــى الظلم الاجتمــاعي ، وهذه الاقلام الغاضبة لما تعانيه الكثرة الكاثرة من حرمان وعقوق واهتضــــام .

هذا الغليــان الذهنــي التي تتفجر به اقلام الكتاب بيــن الحيــن والحيــــن .

هذه النقمة وهذا الغضب وهذا الغليان له اشباه في ماضينــا الادبــي في كل عصر ، ومن المؤسف ان تاريخنــا هو تاريخ ملوك وجبابرة ومتسلطين ، لا تاريخ شعب وعباقرة وكادحين ، لذلك ضاعت اصوات الشعب وصرخات المحرومين في غياهب الاهمال ، ولم تصلنا منها الا همسات حفظتهــا صحف التاريخ لا عمدا ولا قصدا ، ولكن صدفة وعرضا !

فالذيــن كانوا يكتبون ويدونون كانت تند من اقلامهم جمــل قد تقصر وقد تطول ، ولكنها في قصرها وفي طولهــا تشير الــى ان الشعب كان يحيى غير حياة البذخ والتــرف التــي كان يحياها الحكام ومن مت اليهم بصلة او سبب . وان السواد الاعظم كان يكابد في سبيل العيش اشق الاهوال وان رجال الفكر والقلم كانوا بيــن مدلس متزلف وصولي لا يبالــي في سبيل الثروة ان يركب كل مركب ، وبين ابي كريم لا يتنزل الــى دركات الهوان ، فكان حتمــا عليــه ان يعيش

عيش الفقـر ، ويحيـى حياة الضنك !.

وقد كان لكل ذلك صدى في اقلام الكتاب والشعراء ، ودوي في آفاق الادب تتصادم فيه الافكار وتتناقض الدعوات

والمتتبـع يجد الكثير من هذا القبيل ، ولعل ما حدث قبل ثمانية قرون بيـن ابـن ابـي حصينة المعري وبيـن مواطنه ابـن الزويدة المعري قريب مما نراه يحدث اليوم . فقد كان ابن ابي حصينة شاعرا اديبا ، ولكنه آثر طريـق الوصولييـن الانتهازيين فسعـى بكل جهده ليكون امـيرا فخريـا فكان له ما اراد بعد ان تذلل بالشعر وتضرع وبعد ان اكثر من مثل قوله :

اشفنا عداكم واهوى ان ادين لكم
فللعدى دينهم فيكم ولي دينـي

ثم شجعه وصوله الـى الامارة الفخرية التـي لـم يكن له منها الا اللقب ، شجعه ذلك الـى الوصـول الـى الامارة الفعليـة بعد الامارة الفخرية ، فقال مثل هذا القول:

ابـا صالح اشكو اليـك نوائبـا
عرتني كما يشكو النبات الى القطر
فهب هبـة يبقـى عليـك ثناؤها
بقاء النجوم الطالعات التي تسـري

فوهبت له الاراضـي والاموال ثم ولـي الامـارة وشـارك في الحكـم .

ولم ير الادباء في نجاح زميلهم مغنمـا بل عـدوه منقصة فنقموا عليـه طريقه التي سلكها ، وصدف ان توصل الـى الدخول في الجندية رجل يصفه المؤرخون بانه « مـن

رعاع الناس واسافلهم»، وكان يلقب بالزقوم ، فصار شيئا يذكر في المعرة فقال ابن الزويدة المعري :

اهل المعرة تحت اقبح خطة
وبهم اناخ الخطب وهو جسيم
لم يكفهم تأمير ابن حصينة
حتى تجند بعده الزقوم
يا قوم قد سئمت لذاك نفوسنا
يا قوم اين الترك ؟ اين الروم ؟.

ولما شاعت الابيات وانتشرت ذهب الامير ابن ابي حصينة الى بيت ابن الزويدة يعاتبه ، فقال له ابن الزويدة: الان كان عندي الزقوم ، وقال لي : ان اعظم ما نالني من هجوك هو انك قرنتني بابن ابي حصينة !. فقال ابن ابي حصينة : هذه اشد علي من هجوك !.

على ان هذا الشاعر الانتهازي الوصولي لم يلبث ان وقف مواقف طيبة فرثى ابا العلاء المعري بقصيدة مؤثرة مطلعها :

العلم بعد ابي العلاء مضيع
والارض خالية الجوانب بلقع

ومما يمكن ان يذكر في هذا الموضوع قصة الحسن بن صافي الذي لقب نفسه (ملك النحاة) لتخصصه بعلم النحو ، فقد كان يرى انه وهو من رجال الفكر ، منكور الفضل محروم النعمة فصدف ان الامير نور الدين محمود خلع عليه خلعة سنية ونزل ليمضي الى منزله فرأى في طريقه حلقة عظيمة فمال اليها لينظر ما هي ؛ فوجد رجلا

قد علـم تيسا استخراج الخبايا . فلما وقف عليه ملـــك النحاة ، عرفه الرجل فقال لذلك التيس : ان في حلقتـــي رجـلا عظيـم القدر شائع الذكر ، ملك في زي سوقة ، اعلم الناس واكرم الناس واجمل الناس فارنـي اياه !..

فشق ذلك التيس الحلقة ومضـى حتى وضع يـده علـى ملك النحاة !.. فلم يتمـالك ملك النحاة ان خلـع تلك الخلعـة ووهبها لصاحب التيس ، فبلغ ذلك نور الدين فعاتبه ، وقال استخففت بخلعتنا حتى وهبتها لمثل ذلك الرجل .. فقـال : يا مولانا عذري في ذلك واضح لان في هـــذه المدينــة زيادة علـى مائة تيس ، ما فيهم من عرف قدري الا هذا التيس فجازيته علـى ذلك .

فضحك منه نور الديـن وسكـت .

هذه ملامح من حياة الادباء والمفكريـن في تلك العصور ، ومن يحاول استقصاء ذلك يجد لها كثيرا من النظائروالامثال .

الوزير المهلبي

بعض الوزراء الادباء في عصرنا القديم كانوا كالواحة الخضراء في صحراء الحكم الجديب ، فالحكم الذي لم يكن يصله بالشعب الا ما يستطيع ان يستغل به هذا الشعب والحكم الفردي الاستبدادي الذي هان فيه الناس بدمائهم وكراماتهم واموالهم ، هذا الحكم المظلم كان يومض حينا بخيط من النور تقر به العيون وتطيب النفوس ..

الفقير المعدم

فالوزير المهلبي الحسن بن محمد الذي كان اديبا شاعرا رقيق الحاشية ، والذي مضى في يوم من الايام قبل الوزارة في رحلة فاشتهى اللحم فلم يقدر على نيله فقرا وفاقة فقال يائسا :

الا موت يباع فاشتريه
فهذا العيش ما لا خير فيه
الا موت لذيذ الطعم يأتي
يخلصني من العيش الكريه
اذا ابصرت قبرا من بعيد
وددت لوانني مما يليه

الا رحـــم المهيمـــن نفس حـــر
تصدق بالوفاة علـــى اخيـــه

فهز الشعـــر اريحيـــة مسافر في الركب فاشترى له لحمـــا بدرهم وطبخه واطعمه .

هذا الشاعر المعدم حين ولـــي الوزارة في بغداد ، كان كالنبتة الغضة في الرمضاء الوقيـــدة .

حـــوار

فاذا جلس في شهر رمضان والزمان صائف والحر لافح في بلد كالاهواز تنضج حرارته الجلود ، فيلوذ الوزيـــر ونداماه بمـــا يلطف هواءهم ويلطف اجسادهم من وسائل ذاك العصر(١) حتـــى اذا سمع صوت رجل ينادي على الناطـــف يقول الوزيـــر لجليسه القاضـــي ابـــي بكـــر بن عبـــد الرحمـــن بن خزيمة : اما تسمع ايها القاضـــي صوت هذا البائس في مثل هذا الوقت والشمس فوق رأسه وحرهـــا تحت قدميـــه ونحـــن نقاســـي في مكاننا هذا البارد مـــا نقاسيـــه مـــن الحـــر ؟

ثم يأمر باحضار المنادي فيرى امامه شيخا ضعيفا عليه قميص رث وهو بغير سراويل وفي رجله تاسومة مخلقة وعلى رأسه مئزر ومعه نبيخة فيها ناطف لا تساوي خمسة دراهم . فيكتئب الوزير للمشهد الذي كان في الحقيقة صورة الشعب ولكـــن الوزير مع اكتئابه وحنانه يحسب ان الناس يملكـــون من اوقاتهم مثل ما يملك ، فيختارون الساعة التـــي فيهـــا

---

١ ــ يقول راوي الخبر : ... (ونحن في خيش بارد) والخيش : نسيج من الكتان كان يعلق في مجاري الهواء ويرش بالماء فيبرد ما وراءه .

يعملون والساعة التي فيها يقيلون ، يحبب ذلك وينسى لطول ما عرف من النعيم ان البؤساء لا خيار لهم فيقول للشيخ :

الم يكن لك ايها الشيخ في طرفي النهار مندوحة عن مثل هذا الوقت ؟ فيتنفس الشيخ ويجيب باروع جواب واشجاه : ما اهون على الراقد سهر الساهد . ثم ينشد :

ما كنت بائع ناطف فيما مضى
لكن قضت لي ذاك اسباب القضا
واذا المعيل تعذرت طلباته
رام المعاش ولو على جمر الغضا

يهتز للشعر

وهنا يذهل الوزير عن الموقف كله ولا يذكر الا انه اديب شاعر ، وان بين يديه من ينطق بالشعر بعد أن اجاب باحسن النثر ، فلا يسأل الناطفي عما الجأه الى حرفته وساقه الى طيته ، بل يسأله : اراك متأدبا فمن اين لك ذلك ؟ فيجيبه الرجل : اني ايها الوزير من اهل بيت لم يكن فيهم من صناعته ما ترى ..

فيهب الوزير للرجل مائة دينار وخمسة اثواب ، ويجعل له ذلك رسما في كل عام .

الصاحب القديم

اما صاحبه الذي اعانه على القرم فوهب له درهم

اللحم ، فقد ناله الدهـــر هو الاخر بسياط الحاجة ولما علم بما صار اليـــه حال الرفيق القديم ، مضـــى الى بابه وجعل وسيلتـــه اليـــه الشعر فكتب اليه رقعة فيها :

الا قل للوزير فـــدته نفســـي
مقـــال مذكـــر ما قـــد نسيه
أتذكـــر اذ تقول لضنـــك عيش
الا موت يبـــاع فـــاشتـــريه ؟

لقد تذكر الوزير فدعا بصاحب العسرة ، بعد ان وقـــع في رقعتـــه : (مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبـــة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء) ونفذ منطوق الاية فوهبه عوض الدرهم سبعمائـــة درهم ، ثم ضاعف له فخلع عليـــه ، ثم زاده فقلـــده عمـــلا يـــرتفـــق بـــه .

انـــي لعلـــى يقيـــن بان المعية الشعر التـــي توسل بها السائل هـــي التـــي هزت المسؤول ، فلو لم يكن الوزير اديبا لاعيت السائل الوسائل التـــي يثير بها في المسؤول ما همـــد مـــن ذكـــرياتـــه ، لقـــد كـــان أمـــره حتمـــا سيكون امر ذاك الاخر الذي نسيه الرفيق القديـــم حيـــن اناله الدهـــر ما كان يروم ، فلم يجد بدا من أن يقول :

قل للوزير ادام الله دولتـــه
اذ كرتنا ادمنا والخبز خشكار
اذ ليس في الباب بواب لدولتكـــم
ولا حمار ولا في الشط طيـــار

تطـــور حيـاتــه

ولد ابو محمد الحسن بن محمد الذي اشتهر باســم الوزيــر المهلبــي سنة ٢٩١ هـ في البصره وعاش حــتى سنة ٣٥٢ . وبدأ حياته فقيرا حتى استطاع بكفايته ان يكون وزير بغداد ومدبر الحكم فيها لمعز الدولة البويهــي ولم يطغه الحكم ولم يصرفه في كثير من الحالات عن تحسس حيـــاة الشعبوايثار ذوي المواهب وازالة المظالم، فقد كان مشدودا الـــى ماضيه فاستحق ان يصفه ابـــن الاثير : « فاحسن السيرة وازال كثيرا من المظالم خصوصا بالبصرة فــــان البريديين كانوا قد اظهروا فيها كثيرا من المظالم فازالها » .

المفتــش

لم يقف عند هذا الحد بل تجاوزه الى (التفتيش) ليعرف حقيقة ما يجري خارج العاصمة فتجول في البلاد على ما يصف ابن الاثير : «فتنقل في البلاد لكشف ما فيها من المظالم وتخليص الاموال » وهذا شــــيء فريد يقوم به حاكم في تلك العصور اذ يجعلمن نفسه (مفتشا) جوالا يفاجيء الاداريين في مراكزهم ، ويعرض نفسه علـــى الناس ليتقدم اليه ذوو الشكـــــاوى ...

علـــى ان خير ما وصفه به ابن الاثير قوله : « وقرب اهل العلم والادب واحسن اليهم » . وهذا التقريب والاحسان جعل شاعرا كالحسيـــن بـــن الحجاج ، يرثيه بعد وفاتـــه رثاء لا يدفعه اليه الا الوفاء بل انه رثاه وهو يخشــــى الانتقام ويتوقع العقاب لان الامر كان قد فسد بينه وبيـــن ولاة الامور

فمات وهم غير راضيـــن عنه . فلما مات قال ابـــن الحجاج:

يا معشر الشعراء دعوة موجع
لا يرتجـــى فرج السلو لديـــه
عزوا القوافي بالوزير فانهــــا
تبكـــي دمـــا بعد الدموع عليـــه
مات الذي امســـى الثناء وراءه
وجميل عفو الله بيـــــن يديه
هدم الزمان بموتـــه الحصن الذي
كنا نفر مـــن الـــزمان اليــــه
وتضاءلت همم المكـــارم والعلـــى
وانبت حبل المجد مـــن طرفيـــه

والواقـــع ان في هذا الرثاء دلالة خاصة فهــــو ليس رثاء تقليديا كالذي عرفناه من منظوم الشعراء . ذلك اولا: لان الراثـــي لم يكـــن يرجو شيئا بل كان يعرض نفسه لنقمة السلطان فضلا عن انه لم يكن للمرثي اهل يتقرب اليـــهم الرائي بالرثاء ، بل ان ابنـــه الصبي كان قد اخذ فور وفاة والده وصودر هو ووالدته كما اخذ اهله واصحابه وحبسوا . ثم هذا التفجع المخلص والتوجه بالخطاب الى من يعتبـــرون المفجوعين الحقيقيين به وهم الشعراء ، ثم الاقرار بانه كان ملجأهم الذي اليه يفرون من الزمان . واذا كان غيرهم من المتسلطين لم يقصروا في اغداق المال على الشعراء المادحين فالفرق بينه وبينهم كما يعرضه لنا ابن الحجاج ، ان الشعراء كانوا يبيعون لغير المهلبـــي كرامتهم حين يقبضـــون المال ، اما هـــو فقد كان يصون لهم تلك الكرامة .

واذا كان هذا حال الشعراء ، فحديث ابن الاثير يدل على ان حال العلماء كانت الحال نفسها . فلم يكن العلماء بحاجة لشيء كحاجتهم لذي سلطان يقربهم تقريبا لا يبغي منه الا صيانة العلم وحملته . ولذلك رأينا الخليل بن احمد يرفض دعوة المتسلطين مع فقره وفاقته لانه يدرك ان لها اهدافا لا تطيقها نفسه الكريمة . ورأينا المهلبي يوصف بتقريب اهل العلم والادب .

السرف

على ان هذا العاطف على الفقراء الحاني على البؤساء المقرب للعلماء والادباء ، كان لا ينسى انه هو الاخر متسلط كالمتسلطين فيسرف اسرافا فاحشا كهذا الذي تحدث عنه في معجم الادباء قائلا : وحدث القاضي ابو علي التنوخي قال : شاهدت ابا محمد المهلبي قد ابتيع له في ثلاثة ايام ورد بألف دينار ، فرش به مجالس وطرحه في بركة عظيمةكانت في داره ولها فوارات عجيبة يطرح الورد في مائها وينفضه ، وبعد شربه عليه وبلوغه ما اراد منه انهبه ..

ولا شك ان هذا السرف واشباهه هو الذي اضطر الشيخ البائس الى الخروج حمارة القيظ مناديا على الناطف وان الامر كما قال علي بن ابي طالب عليه السلام : ما رأيت اسرافا الا كان وراءه حق مضيع .

شعره

كان المهلبي اديبا موهوبا وله شعر جيد لا يتجاوز

المقطوعات الى القصائد ، وجله شعر ترف تتمثل فيه حياة المجتمع الثري الخلي ، وتبدو فيه احيانا روح عدم المبالاة بالشؤون العامة اذا تحققت الامنيات الخاصة ، مما كان طبيعة الحكم منذ اليوم الذي استحال فيه حكم الاسلام الى حكم فردي استبدادي مطلق تسخر فيه كل امكانيات المجتمع لمصالح الطبقة الحاكمة وحدها . ولعل في شعر هذا الحاكم افضل صورة لحال الحكام منذ العام ٤١ الهجري الى عهده وما بعد عهده :

اذا تكامل لي ما قد ظفرت به
من طيب مسمعة او ظرف ندمان
وقهوة لو تراها خلت رقتها
ديني وحافز من ان شئت غناني
فما ابالي بما لاقى الخليفة من
بغي الخصي وعصيان ابن حمدان

ومن الطريف ان سرية من الجند جهزها معز الدولة لقتال بعض بني حمدان ، وناط قيادتها بمملوك تركي جميل . فلم يثر اهتمام الوزير الشاعر من كل ذلك الاجمال القائد فقال فيه :

طفل يرق الماء في
وجناته ويرق عوده
ويكاد من شبه العذا
رى فيه ان تبدو نهوده
ناطوا بمعقد خصره
سيفا ومنطقة تؤوده

جعلــــوه قــائد عسكـــر
ضـــاع الرعيـــل ومن يقـــوده

وصح ما تنبأ به فكانت الهزيمة نصيب القائد الجميل . وقد مرت ابياته التـــي تمنى فيها الموت لما يكابده مـــن الفقر والخمـــول ، وهذه ابيات اخرى نظمها في عهده الاول محروما ضعيفا ، وهـــي تصف حجرة له كان يسكنـــها . ويتحـــدث هو نفسه عمـــا كان عليـــه وكانت عليه تلـــك الحجرة فيقول : ... فاصبحت يوما وقـــد جاء المطـــر وازدادت الحجرة اظلاما وصدري بها ضيقا فقلت :

انا في حجرة تجل عن الوصف ويعمى البصير فيها نهارا
هي في الصبح كالظلام وفي الليل يولي الانام عنها فرارا
انا فيها كأننـــي جوف بئـــر
اتقـــي عقربـــا واحذر فـــارا!
واذا ما الريـــاح هبت رخـــاء
خلت حيطانهـــا تميد انتشـــارا
رب عجل خرابها وارحنـــــي
من حذاري فقد مللت الحـــذار

وهذا الذي يقول هذا الشعر اليائس الكئيب في يـــوم مطر ، يقول من بعد في يوم مطر آخر جاء لا بالمطر وحده ، بل بالثلـــج بعد المطـــر :

الورد بيـــن مضمخ ومضـــرج
والزهر بين مكلـــل ومتـــــوج

والثلـــج يهبـــط كالنثار فقم بنا
نلتـــذ بابنـــة كـــرمة لم تمـــزج
طلـــع النهار ولاح نور شقائق
وبدت سطور الورد تلو بنفســـج
فكان يومك في غلالة فضــــــة
والنبت من ذهب علـــى فيروزج

وهكذا بعد الحديث عـــن العقارب والفئران يعـــود الحديث عـــن البنفسج والفضة والفيروزج . وبعد الاكتئاب بالغيـــوم وما تدجي من الحـــجـــرات يعود الامر الـــى الانبساط بتلـــك الغيـــوم وما توحـــي من الخيـــال الطلق المـــــرح :

ويوم كأن الشمس والغيم دونهـــا
حجاب بـــهصينـــت فمـــا يتهتـــك
عـــروس بدت في زرقـــة مـــن ثيابها
يجللها فيـــها رداء ممســـــك

علـــى ان هذا الذي كان قد وصل الـــى مطامحه من الحياة ، وظفر بكل المنى فقال :

لقد ظفرت والحمـــد لله منيتـــي
بما كنتاهوى في الجهارة والنجوى
وشارفت جـــري الشمس فيما ملكته
من الارض واستقررت في الرتبة العليا

عاد وهو في قمة ظفره وذروة امانيه يقول :

اشكو الـــى الله احداثا من الزمن
يبرينني مثل بري القدح بالسفـــن

لم يبق بالعيش لـــي الا مرارته
اذا تذوقته والحلو منـــه غنـــي
يا نفس صبرا والا فاهلكـــي جزعـــا
ان الزمان علـــى ما تكرهيـــه بني

لا تحسبـــي نعمـــا سرتك صحبتها
الا مفاتيـــح ابواب الـــى الحزن

هكذا يؤكد لنا ان الظفر الحقيقي ليس هو الظفر بالمنى المادية التـــي ليست الا بهارج زائفة لاغناء فيها عند النفوس الطـــامحـــة الـــى الرســـالات .

ومن العجيب ان هذا الذي تمنـــى الموت فقرا وخمولا ، يتمنـــاه اليـــوم غنـــى واشتهارا فقد كتب الـــى بعـــض الرؤساء(١) بيتين يرى بعضهم انهمـــا له ويرى اخرون انهما لابي نواس ، وانه ليس له منهمـــا الا التضمين وايا كان الامر فهمـــا يمثلان حاله في ساعة مـــن ساعات عهـــده الجديد وما اعتقد هو واعتقد الناس معه انه فيه السعيد كـــل السعيـــد :

ولـــو انـــي استزدتك فوق مـــا بي
من البلـــوى لاعـــوزك المزيـــد

ولو عـــرضت علـــى الموتـــى حياة
بعيش مثل عيشـــي لم يريدوا

---

١ ـ ابـــن خلكان .

صلتـه بمعـاصريـه

عدا عــن تقريبه للعلماء والادباء كما روى ابن الاثير وقد كان عصره غاصا بهم ، فان ذلك العصر كان حافلا ايضا بفريق من الكبراء ، كان العلم حليتهم التــي بها يفاخرون ، والادب زينتهم التــي بها يتباهون . فقد كان هناك امثال ابن العميـد والصاحب بن عباد الوزيران الاديبان الكاتبـــان وامثال ابــي اسحاق الصابــي . وقد كان له بهؤلاء وبغيرهم صلات ادبيــة ومواصلات شعرية ونثرية .

وكان ابو الفرج الاصبهانــي صديقا حميما له يكثر من مجالسته ومحادثته ويحتمل منه ما لا يحتمل من غيره .

من مذكرات سلمان الفارسي

سلمان الفارسي من اشهر اصحاب النبي (ص) ومن اكثرهم نضالا في سبيل الاسلام ومن اقربهم الى محمد (ص) ، حتى لقد قال فيه : (سلمان منا اهل البيت) .

ولما في سيرة هذا الرجل من مغامرات في سبيل الوصول الى الحق ، كان المسلمون الاولون يحبون ان يسمعوها منه فقصها يوما على ابن عباس ، وتداولها الراوون ، حتى نقلها صاحب (اسد الغابة) باسانيدها .

قال سلمان : « كنت رجلا من اهل فارس من اصبهان، ابن رجل من دهاقينها ، وكنت احب الخلق اليه ، فاجلسني في البيت ، فاجتهدت في المجوسية ، فكنت في النار التي توقد فلا تخبو » .

هكذا بدأت حياة سلمان : ابن رجل مترف يحبه اشد الحب ، ويحرص عليه فلا يجهده بعمل بل يجلسه في البيت، ويندفع سلمان في المضمار الديني فيكون ركنا في المجوسية وعاملا في نارها التي لا تخبو .

ولكن سلمان هذا الذي لم يشغل باله التفتيش عن الرزق ، ولم يرهقه العمل : سلمان الخلي الثري اشغل باله التفتيش عن شيء آخر وارهقه القلق !. فهو في اول امره لم يرض حياة الهمود والركود بل سعى

متطلعا الــى ما هو فوق الماديات فاجتهد في الدين المجوسي حتــى كان من حفدة النار الازلية !.

ولكن العقل المتفتح والقلب المتألق لم يكونا يرضيـــا بالمجوسيــة مستقرا ونهاية . والفتى الذي لم يبطره النعيم، ولم يقعده الدلال بل مضــى في الافاق الرحيبة ينشد الحقيقة الضالة ، هــذا الفتــى لم يكن ليرضــى عبادة النــار حقيقــة منشودة !.

ويقول سلمان عن نفسه في هذا الدور من حياته :

كان ابــي صاحب ضيعة وكان له بناء يعالجه في داره فقال لــي يوما يا بني قد شغلنــي ما ترى فانطلق الــى الضيعة ولا تحتبس فتشغلنــي عــن كل ضيعــة بهمــي بــك .

هكذا انطلق سلمان من البيت ، وكان الذي اطلقه ابوه دون ان يدري انه قد اطلقه لا من البيت الــى الضيعة ، بل من البيت الــى الدنياالعريضة التــي ستضيع اثاره فيهــا علــى ابيه . وكانت الخطوة الاولــى التــي خطاها مــن بيت ابيه خطوته الاولــى الــى الخلود الدائم والمستقبــل المتألق فقد تابع سلمان حديثه قائلا :

فمررت بكنيسة النصارى وهم يصلون فملت اليهــم واعجبنــي امرهم وقلت والله هذا خير من ديننا !.

هنا تبدو (تقدمية) سلمان ، وهنا يظهر تحرره تحررا يعز مثيله . فالذين ولدوا ونشأوا علــى الاديان ابائهــم ليس مــن السهل ان تقنعهم بتغيير هذه الاديان ، مهمــا كان شأنها ، فالوثنيون والصنمــيون وعباد النار والكــواكــب

ليسوا باقل استمساكا وايمـــانا باديانهم من الموحدين .ولكن سلمان طالب حقيقة اينمـــا كانت هذه الحقيقة ، فهو يدرك لاول وهلة ان هذا الذي يراه في الكنيسة هو خير مما كان فيه ، وهو في هذا الادراك لم يحتج الى مبشر وهاد بل نفذت الحقيقـــة الـــى قلبه وعقله لانه لم يسدل دونها حجابـــا من التعصب والتقليـــد !

وفي يقينـــي ان سلمان في هذا فذ من افذاذ الانسانية وان حياته وتطور حياته جديران بكل درس وتحقيق .

ثم يكمل سلمان حديثه :

فاقمـــت عندهم حتـــى غابت الشمس ، لا انا اتيـــت الضيعـــة ولا رجعت الـــى ابـــي فاستبطأنـــي وبعث رسلا في طلبـــي ، وقد قلت للنصارى حيـــن اعجبنـــي امرهم اين اصل هذا الديـــن ؟. قالوا بالشام . فرجعت الـــى والدي فقال يا بنـــي قد بعثت اليك رسلا ، فقلت قد مررت بقـــوم يصلون في كنيسة فأعجبنـــي ما رأيت من امرهم وعلمت ان دينهم خير من ديننا .

وكانت الصدمة علـــى الاب صدمة عنيفـــة فان الابن المدلل المرموق الذي كان يخشى عليه ابوه حتى من وهـــج الشمس وهبوب الهواء ، قد القـــى بنفسه في اتون متقـــد ، وخاض في عاصفـــة عاتية !. وكان الامر اقوى من ان يصبر عليـــه هذا الاب المسكيـــن ، فحاول اولا ان يقابله باللـــين ، ويتم سلمان حديثه فيقول :

فقال يا بني دينك وديـــن ابائك خير من دينهم فقلت كلا

والله !.. وهنا رأى الاب ان اللين لا يجدي فمال الى الشدة ، يقول سلمان :

فخافني وقيدني !.

ولكن سلمان لم يكن ممن يثني عزمه مثل هذا التهويل والترويع ، فقد استطاع ان يتصل بجماعة الكنيسة ، وكان قد سألهم من قبل عن اصل هذا الدين فقالوا له انه الشام ، والتقى الان في نفسه عاملان فهو عندما سأل عن اصل هذا الدين كان يريد ان يأخذه من منابعه، ثم جاء العامل الاخر عامل الفرار من وجه الاب الغاضب !

يقول سلمان :

فبعثت الى النصارى واعلمتهم ما وافقني من امرهم وسألتهم اعلامي من يريد الشام ففعلوا وألقيت الحديد من رجلي وخرجت معهم حتى اتيت الشام فسألتهم عن عالمهم فقالوا الاسقف ، فأتيته فاخبرته وقلت : اكون معك اخدمك واصلي معك ، قال: اقم فمكثت مع رجل سوء في دينه ، كان يأمرهم بالصدقة فاذا اعطوه امسكه لنفسه حتى جمع سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا فتوفي فاخبرتهم بخبره فزجروني فدللتهم على ماله فصلبوه ولم يغيبوه ورجموه واجلسوا مكانه رجلا فاضلا في دينه زهدا ورغبة في الاخرة وصلاحا فألقى الله حبه في قلبي حتى حضرته الوفاة.

هكذا انفصل سلمان عن ابيه واهله سعيا وراء الحقيقة وآثر العيش غريبا ، متخليا عن الثراء والترف ليخدم رجال الدين ويعيش معهم حياة التقشف والزهد ، ولكنه وقد استقرت به الارض هل يستقر هو فيها ام سيظل يطوف

مستزيدا من المعرفة مستكثرا من الايمان ؟.

انه هو نفسه يجيبنا عن هذا السؤال ويتمم سرد (مذكراته) فقبل ان يموت ذاك الاسقف الفاضل الذي احبه سلمان واخلص له لما رأى من تقواه وصلاحه ، كان حب الرحلة يعتلج في قلب سلمان ولكنه خشي ان يرحل فلا يهتدي الى الصالحين بل يبتلى بمثل ما ابتلي به مع الاسقف الاول كانز الذهب فسأل معلمه الصالح عمن يثق به ليرحل اليه . يقول سلمان :

فذكر رجلا بالموصل وكنا على امر واحد حتى مات فأتيت الموصل فلقيت الرجل فاخبرته بخبري وان فلانا امرني باتيانك فقال اقم فوجدته على سبيله وامره .

وهكذا لم يخيب اسقف الموصل ظنه بل كان على ما اعتقد به اسقف الشام فاطمأن قلب سلمان واستراح الى هذا المعلم الجديد .

على ان الذي لم يفصله سلمان في ذكره رحلته الى الشام هو امر البلد الذي قصده في الشام ، فالشام اسم قطر لا اسم بلد فهل اقام في القدس ام في دمشق ام في غيرهما ؟.

ويبدو ان سلمان كان لا يصل الى هؤلاء الصالحين الا وهم في سن عالية ، فكانوا يموتون الواحد بعد الاخر وهو لا يزال في عنفوان شبابه فمات صاحب الموصل واوصاه قبل موته ان يلحق باسقف نصيبين فكان كصاحبيه تقى وصلاحا .

ويروي الذين نقلوا حديث سلمان ــ كما جاء في اسد الغابة ــ : ان الصومعة التي تعبد فيها سلمان بنصيبين كانت باقيا الى يومهم .

ويقول سلمان : ثم احتضر صاحب نصيبين فقلت لـــه أوصني ، فاوصاه باللحاق بصاحب عمورية من ارض الروم : فاتيتـــه بعمـــورية فاخبرته بخبري فأمرنـــي بالمقام .

وفي هذه المرحلة من تطواف سلمان يظهر انه كان قـــد تقـــدمت به الســـن فشعر بانه محتاج الـــى شـــيء مـــن الاستقرار ، وان هذا الاستقرار لا يمكن ان يتم اذا لم يستعن عليـــه بمورد مالي يطمـــئن اليه اذ يقول :

فثاب لـــي شـــيء واتخذت غنيمة وبقرات ..

ثم حضرت الوفاة صاحب عمورية دون ان يكون قد دله علـــى صاحب آخر ، ثم توفي وسلمان لم يقرر الرحيل الـــى بلد بعد عمورية ، ويبدو من شرائه الغنم والبقر انه كان قـــد وطد العزم علـــى الاقامة بعمورية علـــى ان هذه الاقامـــة لم تطل فقد عاوده الحنيـــن الـــى البحث والتطلع ، اذ انـــه يحدثنا فيقول :

فمر ركب من العرب من كلب فقلت اصحبكم واعطيكم بقراتـــي وغنمـــي هذه وتحملوني الـــى بلادكم .

لم يكن سلمان يعرف ما قد خبأ له القدر في هذه الرحلة الجديدة ، ولم يكـــن يدري ان الحياة ستتعاوره بيـــن اقصى الشقـــاء واقصـــى السعادة ، وانه سيعود بعد السيـــادة والعز عبدا رقيقا يباع ويشرى . وهذا ولا ريب اقســـى دور في حياة سلمان . ونستطيـــع ان نحس المرارة التـــي احسها هذا الرجل طالب الحقيقـــة وناشد الخير حيـــن يصطدم بواقع النـــاس الشريـــر المبطل !.

لقد عرض علـــى الكلبيين ان يهبهم ثروته علـــى ان

يحملوه الى بلادهم ، وكان العرض سخيا كريما فما نحسب ان (اجور النقل) قافلة الكلبيين كان يمكن ان تكون مرتفعة الى الحد الذي يمكن ان يستغرق مثل هذه الثروة التي مهما ضؤلت فهي على كل حال ثروة . ولم يكن يهم سلمان المساومة على المادة فقد هجر الثراء العريض ، ورضي واقعه الفقير لان ما ينشده كان اسمى من الثروات المادية ، لذلك فقد عرض التخلي من كل ما يملك مقابل ان تنقله هذه القافلة الى عالم جديد يجد فيه المزيد من المعرفة !.

استولى الكلبيون على الغنمات والبقرات، وحملوا هذا الغريب على دابة من دوابهم ممعنين في السير .

ويظهر ان ما رأوه من تفريط سلمان بثروته اغراهم به ؛ وحملهم على الاستخفاف بحاله معتقدين ان من يعرض هذا العرض انما هو اكلة هينة ..

يقول سلمان :

« فحملوني الى وادي القرى فلما بلغناها ظلموني وباعوني من رجل من اليهود » هكذا لقي رجل الحق أفجع مصير يلقاه انسان : اصبح عبدا لليهود !

ولم يكن سلمان يعلم حتى تلك الساعة الى اي ارض وصل به السير ، وهل بلغ بلاد العرب ام لا فهو يقول :

فكنت اعمل له (اي لليهودي الذي اشتراه) في نخله وزرعه ، ورأيت النخل فعلمت انه البلد الذي وصف لي .

واقمت عند الذي اشتراني وقدم عليه رجل من بني قريضة (وهي قبيلة يهودية تسكن المدينة) فاشتراني منه وقدم في المدينة فعرفتها بصفتها فاقمت معه اعمل في نخله» .

بهذا ينتهي هذا الدور من ادوار حياة سلمان الذي خطا فيه الخطوة الاولى للقاء النبي محمد (ص) .
والادوار التالية لا تقل عن هذا اثارة فلعلنا نوفق لتسجيلها .

شعراء شعبيون

ثلاثة شعراء مصريين كانوا في عصرهم صورة الشعب المصري ظرفا وادبا وثورة ، وهم كغيرهم ممن عاشوا للشعب وفي الشعب فضاعت اخبارهم وطمست اثارهم ولم يصلنا منها الا النزر القليل، وهذا الذي وصلنا على ضآلته يرينا جانبامن حياة الجماهير في هاتيك العصور وما انطوت عليه معايشهم، وما كانوا يعالجون به امورهم من تمازح وتندر ، ومن هزل هو في جوهره الجد كل الجـد .

ورّاق وحمّامي وجـزار

هؤلاء الشعراء الثلاثة هم : سراج الدين عمر بن محمد بـن حسن الوراق الذي عرفه ابناء جيله باسم السـراج الوراق ، ونصير الديـن الحمامي الذي عرفوه باسم النصير الحمامـي ويحيى بن عبد العظيم الجزار ، الذي عرفوه باسم ابو الحسـين الجزار .

ولقب كل واحد من هؤلاء مأخوذ من مهنته فقد قالوا عن الوراق انه كان يكتب الدرج لوالـي مصر ، فاساس مهنته الورق ، ونصير الديـن كان يشتغل في حمّام عام ، ويحيـى كان جـزارا يبيـع اللحوم .

وهكذا نرى ان الثلاثة كانوا يمتهنـون مهنا بسيطة ، تجعلهم من همـوم الشعب في الصميـم .

واذا كنت قد خصصت هذا المقال بالجزار فلا بد من الالمام اولا بكل واحد منهم ثم بما كان يربط بينهم من روابط الادب وعلائق الشعر وبما كانوا يتشاكون به من نوائب الزمن ومتاعب الحياة . فان اجتماع مثل هؤلاء الثلاثة في وقت واحد وتوثق الصداقة بينهم شيء فريد كان لا بد له ان ينتج ما انتج .

مساجلات بينهم

فمن ذلك ان السراج كان يقيم في « الروضة » في القاهرة ، فكتب اليه النصير الحمامي :

كم قد ترددت للباب الكريم لكي
ابل شوقي واحيي ميت اشعاري
وانثني خائبا مما اؤمله
وانت في « روضة » والقلب في نار

فأجابه السراج :

الآن نزهتني في روضة عبقت
انفاسها بين ازهار واثمار
اسكرتني بشذاها فانثنيت بها
وكل بيت اراه بيت خمار
فلا تغالط فمن فينا السراج ومن
اولى بان قال : ان القلب في نار

وكتب الوراق الى الجزار في عيد الاضحى :

اجبت بعيد النحر من كان سائلي
عن الحال في عيدي وقد مر ذكره

اذا بطل الجزار والعـــيد عيـده
فلا تسأل الوراق فالعــذر عـــذره

ويبدو انهم كانوا اذا لم يداعب بعضهم بعضا داعب كل منهم نفسه بنفسه ، فان السراج كان اشقر ، ازرق العينيــن فقال :

من رآني والحـــمـــار مركبــــي
وزرقتي للروم عــرق قد ضـــرب
قــال وقد ابصر وجهـــي مقبـــلا
لا فـــارس الخيــل ولا وجه العــرب

وقال السراج ايضا :

بنــي اقتــدى بالكتاب العــزيــزَ
وراح لبــري سعيـــا وراجــــا
فمـــا قال لـــي اف مذ كان لـــي
لكونـــي ابا ولكونـــي سراجـــا

ومن شكاوى الوراق :

اصون اديم وجهـــي عن انـــاس
لقـــاء الموت عندهـــم الاديـــب
ورب الشعـــر عندهـــم بغيـــض
ولـــو وافـــى به لهـــم حبيـــب

وقال بعد ان شاب :

وكنت حبيبا الـــى الغانـــيات
فالبسنـــي الشيـــب بغض الحبيـــب
وكنت سراجا بليـــل الشـــبـاب
فأطفأ نـــوري نهـــار المشيـــب

وقال وهي تصف لونا من حياته :

كم قطع الجود من لسان
قلد من نظمه النحورا
وها انا شاعر سراج
فاقطع لساني ازدك نورا

السراج والضياء

ومن طرائفهم ان السراج خاطب من اسمه ضياء الدين :

امولانا ضياء الدين دم لي
وعش فبقاء مولانا بقائي
فلولا انت ما اغنيت شيئا
وما يغني السراج بلا ضياء

ويبدو ان ضياء الذين هذا كان ممن تستقضي به الحاجات ويقصد للعطايا والملمات ، فقصده السراج بهذا القول مستغلا تناسب الاسمين ليهزه بهذا التناسب ، ولكن ضياء الدين لم يكن ليهتز للادب ويستثار بالشعر فخاب رجاء السراج فيه فعاد يقول :

وها انا سائر في ليل خطب
تساوى الصبح فيه والمساء
فلا انا مثلما ادعى سراج
ولا هو مثلما يدعى ضياء

وهكذا دلنا الشاعر بهذا القول المرير على ما كان يكابده في حياته وهل اوجع من السير في ليالي

الخطوب التـــي لا يضـــيء فيها السراج ولا يشرق الضياء

السراج والشمس والبــدر

والتقـــى السراج من اسمه شمس الدين ومن اسمـــه بدر الديـــن فقـــال :

لما رايـــت الشمس والبــدر معـــا
قـــد انجلـــت دونهمـــا الديـــاجـــي
حقرت نفســـي ومضيـــت هاربـــا
وقلت مـــــاذا موضـــع الســـراج

وقال السراج ايضا موريا بصناعة الوراقة :

يا خجلتي وصحائفي سودا غـــدت
وصحائـــــف الابـــرار في اشـــراق
وموبـــخ لـــي في القيـــامة قال لي :
اكـــذا تكـــون صحائـــف الـــوراق

ويظهر ان آمال السراج كثيرا ما خابت في الرجال فكان يعود للذم بعد المدح متذمرا شاكيا :

مدحتـــه جهدي فمـــا اهتز مـــن
قولـــي وقال الناس كـــم تتعـــب
فقلـــت ارجو زبـــدة قـــال لـــي
فاتـــك ، ايـــن اللبـــــن الطيـــب

ثم يوغل في ذلك :

ومبخل بالمـــال قلـــت لعلـــه
يندى وظنـــي فيـــه ظـــن مخلـــف
جمـــع الدراهـــم ليس جمع سلامة
فاجابنـــي لكـــنـــه لا يصـــرف

الشعب الطيب

علـــى انه حين يرى البادرة الطيبة والفعل الجميـــل ، وحيـــن يواسيه الناس ويعطفون عليـــه يعود معترفا بالفضل مثنيا علـــى الاحسان :

مرضـــت في حـــي قـــوم
مـــا منهـــم مـــن جفـــاني
عـــادوا وعـــادوا وعـــادوا
علـــى اختـــلاف المعـــاني

وكلمة « عادوا » الاولـــى من العيادة والثانية من العود بمعنـــى العطاء والثالثة بمعنـــى الرجوع . وهو في هـــذا القول لم يخص شخصا بعينه ، ولا اثنـــى علـــى كبير قوم ، بل شمل سكـــان حـــي بأكمله قدر له ان يقيم بينـــهـــم وان يمرض عندهم ، فعرفوا حقـــه فقال ما قال ، ولنا هنـــا ان نستدل علـــى طيبة الشعب وكرم جمـــاهيره ، وعلـــى ما كان يتحلـــى به ذلك الشعب من تقدير للادب وتعاطف مع الشعـــراء حتـــى اذا مرض واحد منهم فقير لم يهملـــوه بل عاملوه بمـــا انطقه بالذي نطق ، علـــى العكس من الكبراء الذي شكـــى منهم الشاعر واضطر الـــى ذمهم افرادا احيانا وجمـــاعات احيانـــا !

يـــا بنـــي الآمال قـــد خاب الرجا
وقـــد اشتدت وقد عـــز العـــزاء
سفـــن الامال في بحـــر المنـــى
وحلـــت منـــا فأيـــن الرؤســـاء

همــوم الحمـــامــي

اما النصير الحمامي فقد ضمن همومه بيتين من الشعر ارسلهمــا الــى صديقــه الجــزار :

مــذ لزمت الحمــام صرت بــه
خــلا يداري مــن لا يداريــه
اعرف حر الاســى وبــارده
وآخــذ المــاء مــن مجاريــه

ولا اعرف صورة للكرب ابلغ من هذه الصورة ، فهــذا شاعــر مرهف الحس رفيع النفس يفد اليــه الثقيــل السمج ، والفظ الغليظ ، فيهب مرحبا ويندفع مؤهلا بمــن لو كان الامر اليــه لتناولهم باللطم وعاملهم بالصفع ، او على الاقل : لقعد عــن استقبالهم وابتعد عن احوالهم ، ولكنــه وهو : « الحمامي » ذو المهنة العامة مرغم لا على مداراة من لا يستحــق المداراة فحسب ، بل علــى مداراة مــن يتناولونه بزرايتهم فلا يدارونه بل يشتطون عليــه .

خل يداري من لا يداريه ، هكذا كان امر هذا الشاعر ، فلا بدع ان يكون اساه فوق اسى الناس ، فاذا عــرف الناس الاســى الحار وحده فهو قد عرف اسى لم يعرفه احد من الناس الــى جانب الاســى الحار الذي عرفوه : عــرف الاســى البارد !.. وهو اذا كان في مهنتــه « يأخذ الماء من مجاريه » فلم يكــن يأخذه ليروي ظمأ ويبل اواما ، بــل ليزيد هذا الماء من لوعته فيثير ببرودته طورا وحرارته طورا الاســى باردا طورا وحارا طورا آخر ...

وهمـــوم الجــزار

وقد تأثر صديقه الجزار بهذا القول فاجابه مواسيا ، داعيـــا ايـــاه الـــى الصبـــر :

حسن التأنـــي مما يعيـــن علـــى
رزق الفتـــى والحظـــوظ تختلـــف
والعبـــد مذ صـــار في جزارتـــه
يعرف مـــن ايـــن تؤكل الكتـــف

ولكـــن صاحبنا الجزار هذا اذا كان عرف بتجاربـــه ولطول ما مارس وعانـــى ، اذا كان قد عرف من اين تؤكل الكتف ، فقد كانت معرفته نظرية بحتة لم تصل به الـــى حـــد التطبيـــق والعمل ، فهو حقا يعرف من اين تؤكل الكتف ، ولكنـــه لا يأكلها ، بل يدعها للمستطيعيـــن الذيـــن يقدرون علـــى دفـــع الثمـــن مهما غلا ، اما هو فله منها المعرفة وله منها النظر والتأمل ، وليس منها وحدها بل من كل ما كان يوجـــد في يديه من لحوم، فلم يكن مستطيعا ان يتخير شيـــئا من اطايبها لنفســـه :

اصبحت لحامـــا وفي البيـــت لا
اعرف ما رائحـــة اللحـــم
واعتضت مـــن فقري ومن فاقتي
عـــن التذاذ الطعـــم بالشحـــم
جهلتـــه فقرا فكنت الـــذي
« اضلـــه الله علـــى علـــم »

ويكرر هذا المعنى قائلا :

حسبـــي ضياعا بحرفتي حسبي
اصبحت منهـــا معـضب القلـــب
موســـخ الثوب والصحيفة مـــن
طول اكتسابـــي ذنبـــا بلا كسب
اعمـــل في اللحـــم للعشاء ولا
انال منه العشـــا فمـــا ذنبـــي
خلا فـــؤادي ولـــي فم وســـخ
كأننـــي في جزارتـــــي كلبـــــي

ويقول متغـــزلا :

يقول اذ اشكو لـــــه زفـــرتـــي
لا بد للجـــــزار من « زفــــره »

ويتأمل بين الحين والحين حاله فيقول مثل هذا القول :

اكلـــف نفســـي كل يوم وليلـــة
هموما علـــى من لا افوز بخـــيره
كما سود القصار في الشمس وجهه
حريصا علـــى تبييض اثواب غيره

لا يتحـــاســـدون

ونحن نرى ان هؤلاء الشعراء قد خرجوا علـــى ما عرف من تحاسد الشعراء المتعاصرين وتنافسهم ، فتآلفوا وتوثقت بينهم روابط من الود والزمالة جعلت منهم اخـــوانا متحابين واصدقـــاء متراسليـــن يثني بعضهم علـــى بعض ويؤازر بعضهم بعضا فسمعنـــا الوراق يثنـــي علـــى الحمامـــي :

شاقنـــي للنصير شعر بديـــع
ولمثلـــي فـــي الشعر نقـــد بصير
ثم لما سمعت باسمـــك فيـــه
« قلت نعم المولـــى ونعم النصير»

ويصاب الوراق برمد فيهدي اليه الجزار تفـــاحـــا وكمثرى ويكتب معها اليه :

اكافيـــك عن بعض الذي قد فعلتـــه
لان لمولانـــا علــــــي حقوقـــا
وان حـــال منـــك البعض عما عهدته
فمـــا حال يوم عـــن ولاك وثـــوقا
بنفســـج تلـــك العين صار شقائقا
ولؤلؤ ذلك الدمـــع عـــاد عقيقـــا
وكـــم عاشق يشكو انقطاعك عندما
قطعـــت علـــى اللذات منه طريقـــا
فلا عدمتـــك العاشقون فطالمـــا
اقمت لاوقـــات المســـرة ســـوقـــا

وفي هذه الابيات اقرار بفضل واعتراف بجميل ممـــا يشعر بتعاون علـــى الدهر وتآزر في الحياة عدا عما فيها من مدح وتقدير .

الجـــزار

وصاحبنا الجزار ولد سنة ٦٠١ هـ وتوفي سنة ٦٧٢ هـ علـــى قول «١» او سنة ٦٩٧ علـــى قول آخر(٢) ودفـــن

---

١ ــ اعيان الشيعـــة .
٢ ــ شذرات الـــذهب..

بالقرافة . وقد ورث الجزارة عـــن ابيه فهو فيها عــريق ، وعلـــى غير عادة الاباء الذيـــن هم في حال مثل حال ابيه ، فقــد شجعه ابوه علـــى نظم الشعر ، وصحبه الى الشاعر ابـــي الاصبــع ليسمعه شعره ويبدو انه كان لا يزال في طور الصبا لم تكتمل له ادوات الشعر اكتمالا صحيحا ، فقال له ابو الاصبع « انت عوام ماهر » . فسر الاب الامي بهــذا القول ولما سئل ابو الاصبع عمـــا يعنيه بكلمته قال : « انــه ينتقل في الشعر من بحر الـــى بحر » . ويفهم من قـــول صاحب الشذرات انه امتهــن الجزارة اول امره ثم تخلـــى عنها وتفرغ للشعر وللمدح بخاصة . ولا يفهم من الشـــذرات انه عاد فتخلـــى عـــن الشعر راجعا للجزارة ، ولكن اقوال الشاعر تدل علـــى ان تعاطيـــه الشعر لم يستمر ، بل رجـــع جزارا كما بدأ ، رجع شاكيا ذل المديح وهـــوان المدّاح وان هناك من لامه علـــى هذا الرجوع وهو صديقه شرف الديـــن فقال له :

لا تلمني يا سيـــدي شرف الديـــن اذا ما رأيتنـــي قصّابـــا
كيف لا اشكر الجـــزارة ما عشـــت زمانا واهجر الآدابـــا
وبها صارت الكلاب ترجينـــي وبالشعر كنت ارجو الكلابـــا

ثم يكرر هذا المعنـــى ويؤكده :

لا تلمنـــي بصنعة القصـــاب
فهـــي ازكـــى من عنبر الاداب
صار فضلـــي علـــى الكلاب ومـــذ
كنت اديبـــا رجوت فضل الكلاب

ويصفه صاحب الشذرات بهذا القول : « كان جزارا ثم

استرزق بالمدح وشاع شعره في البلاد وتناقلته الرواة وكـان كثير التبذيـر لا تكـاد خلتـه تسد » .

جزارة وشعر وفقـر

واذا كان قد عاد للجزارة فان ذلك لم يمنعه عن قول الشعر ، بل لم يمنعه عن المزاح بين الحين والحين ، وعن الاشارة الـى شاعريته والـى جزارته معا ، هاتيـن المهنتيـن اللتيـن يبدو انهما لم تغنيا عنه لا مجتمعتين ولا متفرقتيـن :

يا اميرا يرجـى ويخشـى لبأس
ونـوال في يوم حـرب وسلـم
انت موسى وقد تفرعن ذا الخطب فغرقهمـن نداك بيم
لي من حرفـة الجـزارة والا
داب فقر يكاد ينسينـي اسمـي

ويخاطب آخر قائـلا :

ولا تغرنـك منه (جـوخـة)
فصلهـا وهو عليـها نـادم(١)
وبيعهـا في البرد غير ممكن
ورهنهـا لا يرتضيـه الحـازم

ويطيل شكاياته الـى من لا يرحم ولا يعطف ثائرا على مجتمـعه الذي سيطر فيـه اهل الثراء فاشتغلوا بثرائهـم

---

١ ـ هذا يدل على استعمال كلمة (جوخة) من ذلك العاصر .
ويقال ان اصل الكلمة تركي ماخوذ من كلمة (جوقة) . ومعناها نسيج من الصـوف .

عـــن التفكير بالفقراء ومعالجة فقرهم ، مصرحا ان ما يكتمه من سوء احواله هو اضعاف ما يبديه خوف الشامتين :

اطيـــل شكاياتـــي الـــى غير راحم
واهل الغنـــى لا يرحمون فقـــيرا
واشكـــر عيشي للورى خوف شامت
كذا كل نحس لا يزال شكـــورا

ويقـــول :

طاب عيشي والحمدلله اذ كنت له حامدا على كل حـــال
ما لباس الحرير مما ارجيه فيرجى ولا ركوب البـــغال
راحة السر في التخلف عن كل محل اضحى بعيد المنال
ان عز الانسان في تركه العز لذل في مبـــدأ الاحوال

جـــــد صـــــارم

وينتقل شاعرنا بين الجد والهزل فهو طورا جدي جدية صارمة يأخـــذ نفســـه بهـــا اخذا كاملا حتـــى ليخيل اليك انه ليس ذاك الشاعر الفكه المزّاح ، وحتى لتحسب ان رجلا من نوع آخر هو الذي يقول في رثاء الحسين بن علي عليهما السـلام :

ويعود عاشـــــوراء يذكرنـــي
رزء الحسين فليت لـــم يعـــد
او ان عينـــا فيـــه قد كحلـــت
بمسرة لـــم تخـــل مـــن رمـــد
ويـــدا لشـــماتـــة خضبـــت
مقطوعة من زنـــدهـــا بيـــدي

يوم سهيلي حين اذكره
ان لا يدور الصبر في خلدي

شاعر الكنافة

اما حين يسترسل في لطائفه وفكاهته فانه ينغمر فيهما انغمارا ينسيه كل وقار ويبعد به عن كل جد ، فقد كان مولعا بالكنافة محبها لها ، وكانت عزيزة المنال عليه لما تتقاضاه من مال فاذا اقبل رمضان ولم يصب منها شيئا قال :

فمالي ارى وجه الكنافة مغضبا
ولولا رضاها لم ارد رمضانها
عجبت لها في هجرها كيف اظهرت
علي جفاء صدّ عني جفانها
ترى اتهمتني بالقطايف فاغتدت
تصد اعتقادا ان قلبي خانها
ومذ قاطعتني ما سمعت كلامها
لان لساني لم يخالط لسانها

وكتب في العشر الاخير من رمضان الى جمال الدين بن يغمور :

ما رأت عيني الكنافة الا
عند بيعها على الدكان
ولكم ليلة شبعت من الجو
ع عشاء اذ جزت بالحلواني
حسرات يسوقها الطرف
للقلب فويل للفكر عند البيان

كم « صدور » مصففات وكم من
شبك دونهـــا وكم صـــوانـــي

ويلح به الشوق الى الكنافة ولا وصول له اليها . فبعد ان كان يناجيها هـــي ويتوسل اليها نفسها يعود مستجديا صديقـــه شرف الديـــن مطالبا له بها ، لا يرى غيرهـــا جائزة للشعر ومكافأة علـــى المدح :

ايا شرف الدين الذي فيض جـــوده
براحتـــه قد اخجـــل الغيث والبحرا
لئـــن محلت ارض الكنافـــة انني
لارجو لها من سحب راحتك القطرا
فعجل بها جودا فمالـــــي حاجـــة
سواهـــا نباتا يثمـــر الحمد والشكرا

حتـــى اذا تراءت له في صحافها وابصرها امامه عيانا دعا لها الطف دعاء ورجا لها اظرف رجاء . فالكنافة لا بد لها من القطـــر او من السكر ، اما اذا اجتمعا معا فذلك غايـــة المقصود ومنتهـــى المطلوب ، فاذا وقف الشعـــــراء علـــى الديار وسألوا الله لها الري واغداق المطر ، وقف هو علـــى الكنـــافـــة وقـــال :

سقـــى الله اكناف الكنافة بالقطـــر
وجاد عليـــها سكرا دائم الـــذر

ثم يتذكر ايام الحرمان ، ايام كان « المخلل » هو ادامه وحلواه فيصرخ من الاعماق :

وتبا لاوقات المخلـــل انهـــا
« تمر بلا نفع وتحسب من عمري »

ثم ينطلـــق في تغزله بالكنافة متجاوزا اياها الـــى حلوى اخـــرى يسميها « القاهرية » ولا نعلم نحـــن من امرها شيـــئا :

ولـــي زوجـــة ان تشتهـــي قاهرية
اقول لها ما القاهريـــــة في مصـــر

مـــداعبـــــات

وقد يحلو لبعض المتأدبيـــن ان يداعبه كمـــا جـــرى لما مات حمـــار له فكتب اليه بعض اصحابه حاسبا انـــــه يستطيـــع النيـــل منه :

مات حمـــار الاديـــب قلت لـــهم
مضـــى وقـــد فـــات منـــه ما فاتـــا
مـــن مات في عزه استراح ومـــن
خلف مثل الاديـــــب مـــــا ماتـــــا

ولكـــن رد الجزار كان حاسما :

كـــم مـــــن جهـــول رآنـــي
امشـــــي لاطلــــب رزقــــا
فقال لـــي صـــرت تمشـــي
وكنـــت تغشـــــى وتلقـــى
فقلت مــــات حمـــــاري
تعيـــــش انــــت وتبقـــــى

وعندما كان يرى تعاظم المتعجرفيـــن وترفع المتكبرين كان لا يرى في السخرية من الدهر الذي جعل منه وهـــو الشاعـــر جزارا ، لا يرى خيرا من ان يقول :

الا قل للذي يسأل
عن قومي وعن اهلي
لقد تسأل عن قوم
كرام الفرع والاصل
ترجيهم « بنو كلب »
وتخشاهم « بنو عجل »

وبنو كلب وبنو عجل هما قبيلتان كبيرتان من العرب ، وهو في مهنته ترجوه الكلاب وتخشاه العجول .

وقد استغل هذا القول مجاهد الخياط فقال يهجو الجزار :

ان تاه جزاركم عليكم
بفطنة عنده وكيس
فليس يرجوه غير كلب
وليس يخشاه غير تيس

وقال الجزار بعد ان عجز الشعر عن ان يؤمن له ما كان يأمله من رخاء العيش :

اصبحت في امري ولا
اشكو لغير الله حائر
فاللحم يقبح ان اعو
د لبيعه والشعر بائر
يا ليتني لا كنت جزا
را ولا اصبحت شاعر

وضايقته يوما عجوز فقال فيها :

لـــو بـــرزت صورتها في الدجى
ما جســـرت تتصـــورها الجـــن
كـــأنهـــا في فرشها رمـــــة
وشعـــرها من حولها قطـــــن

وقائل قل لهـــا : ما سنها ؟
فقلـــــت ما في فمها ســــــن

وقال يخاطب ممدوحا مشيرا الـــى انه كان شاعـــــرا غطريـــا لم يدرس علـــى احد غير نفسه :

وان الشعر دون علاه قـــدرا
ولا سيمـــا اذا ما كان شعـــري
لانـــي ما قـــرأت لـــه صحـــاحا
ولا نحوا علـــى الشيخ ابن بري

وقد شاركته في لغة ونحـــــو
بـــلا علـــم وشاع بذاك ذكـــري
وعيشـــك لست ادري ما طحاها
وقد اقررت انـــي لست ادري
كانـــي مثـــل بعض الناس لمـــا
تـــعـــلم آيتيـــن فصـــار مقري

ومن طرائفه انه بعد ان تـــرك الجزارة الـــى الشعر ، خرج يوما للنزهـــة مع رفقـــة له فرغبوا بشراء لحم فكلفوه بذلك لخبرته ، فعاد اليهم باردأ لحم ، فلما تعجبوا مــــن ذلك قال لهم : « لما رآني صاحب اللحم عرف بي زميلا قديما

له ، فأقسم علــي بان اقطع اللحم بيدي من حيث اريــد ، فنسيت نفســي وغلب علــي لؤم الجزارين ».

هذه لمحة عــن شاعر يمثل جماهير شعبه التمثيــل الصحيــح ، وما اكثر هؤلاء الشعراء الذين عفــى عليهــم الزمن واغفلهم مؤرخو الادب فضاعوا وكانوا الاجدر بالحفظ.

ملامح الملحمة العربية في شعر شاعري الشام

لم يكن بدعا ان تنتج الحروب الصليبية في اوروبا ادبا ملحميا مستوحى مما حفلت به تلك الحروب من احداث وخطوب ، ولم يكن عجبا ان نرى في الآداب اللاتينية سواء في لغة الشمال chanson d'oil او لغة الجنوب chanson d'oc ملاحم لامثال جفري اللومباردي ويوسف اكستر وجنتر باسل وكذلك مثل انشودة انطاكية البروفنسالية chanson d'antioche التي الفها غريغوري بشاده ، وقصيدة بودريه وانشودة غرايندور دوياي ، وغيرها .

ولكن كان العجيب ان لا تخلق تلك الحروب الملاحم العربية ، لا في حال تدفق الجيوش الفرنجية وانتصاراتها وما رافقها من فجائع واهوال ، وما عاناه العرب فيها من هوان وانكسار . ولا في حال انحسار المد الفرنجي واجتماع القوى الوطنية مستخلصة الوطن منه دفعة وراء دفعة حتى انتهت بتلاشيه .

وفيما عدا قليلا من القصائد والمقطوعات اعرب فيها اصحابها عن احزانهم ايام الهزائم وافراحهم ايام الانتصارات، فان تلك الحروب لم تنل ما كان يجب ان تناله من الشعر العربي ، ولا اوجدت الملحمة في ادبنا ، وكانت بذلك جديرة.

عماد الديـن ونور الدين

علـى انني وانا اقرأ وقائع عماد الديـن زنكـي ثم وقائع ابنه نور الديـن محمـود مع الصليبيين ، حيـن بدأ الاول مهاجمة الافرنج ، فكانت انتفاضته اول انتفاضة فيوجه المحتليـن بعـد نوم طويل علـى الضيم .

اننـي وانا اقرأ ذلك وجدت شعرا عربيا يسجل تلك الوقائع ويتغنـى بها معبرا عمـا كانت تنضح به نفـوس العرب من الابتهاج والحبور ، وما كانت تفيض به بيئاتهـم مـن الاستبشار والسرور .

واذا كان مما يقلل من قيمة اصحاب ذلك الشعر فـي اعيننا انهم لم ينظموا شعرهم ابتداء ، ولا كان بنتيجـة تحسس بالشعور العام ، ولا تعبيرا عن حقيقة امورهـم ، بل جـاء في معرض المدح والاسترزاق . فانهم وهم يعيشون في كنف عماد الديـن ونور الديـن ويحيون في سلطانيهمـا، كان لا بد لهم من ان يمدحوهمـا استدرارا للعطاء ، وسواء اكان عمـاد الدين ونور الدين غـازيين منتصريـن ، او متخاذليـن متـواكليـن فانهـم سيمدحـونهمـا حتمـا . اذا كان الامر كذلك فان حسـن حظهم جعل مدحهم غـير منكور ولا ممجـوج ، وجعلهم دون ان يقصدوا لسان الحياة العربيـة والاسلاميـة في تلـك الفتـرة ، فعبروا عـن مشاعـر الامة ونطقوا بلسان الاحداث فاكتسبوا بذلـك خلودا لم يكـن ليتأتـى لهم لو ان عمـاد الديـن ونـور الديـن لم يكونا مدبري تلك الوقائع وقائدي تلك المعامع .

شـــاعـــرا الشـــام

وابرز شعراء تلك الفترة شاعران لقبهمـــا معاصروهما بشاعري الشام همـــا محمد بن نصر القيسراني واحمـــد ابن منير الطرابلســـي ، ولهمـــا في عمـــاد الديـــن ونور الديـــن مدائح تقليديـــة ككل مدائح الشعراء في الامراء ، ليست هي التـــي تعنينـــا فـــي حديثنـــا هـــذا ، وانمـــا الـــذي يعنينا هـــو تلك القصائد التي نظماهـــا في الانتصارات فكانت مظاهـــر للملحمة العربيـــة جديرة بالعناية والاذاعة .

والقيسراني مولود سنة ٤٧٨ ومتوفى سنة ٥٤٨هـ وهو منسوب الـــى مدينـــة قيسارية علـــى الساحل الفلسطيني، ولم يكـــن الشعر وحده الصفـــة الغالبـــة عليـــه ، بل يبدو انـــه كـــان علـــى مشاركة حسنـــة ببعض العلوم حتـــى ان ابـــن عساكر سمع منه وذكره بين من ذكرهم من شيوخه.

والطرابلســـي مولود سنـــة ٤٧٣ ومتوفـــى سنـــة ٥٤٨هـ وهو منسوب الـــى طرابلس علـــى الساحل اللبناني وهـــي المدينـــة التـــي عرفت في التاريخ العربي باســـم طرابلس الشام تمييزا لها عـــن طرابلس الافريقيـــة التي عرفت باسم طرابلس الغرب .

ونحـــن نرى من ذلك ان الشاعرين من منطقتيـــن نكبتا بالاحتـــلال الصليبـــي وسقطتا في قبضـــة الفاتحين ، فقـــد عانـــت قيسارية كمـــا عانت طرابلس مرارة الذل ، وهوان الفتـــح ، ولكننا لا نرى في شعر الشاعريـــن ما يدل علـــى تحسسهما بمـــا كان يشكو منه بلداهمـــا ، وهذا يدلنا على ان الشاعريـــن سيقا الـــى شعر الكفاح سوقا ، ولما لم يكن

لوقائع عماد الدين ثم لوقائع نور الدين صلة لا بقيسارية ولا بطرابلس بل كانت البلدتان بعيدتين عن ميدان الصراع ، لذلك لم يذكرهما الشاعران ولا استجاشتهما همومهما ، بل اقتصر الشاعران على ما باشره القائدان من المعارك في المناطق النائية لان فيها المادة الوافرة لموضوع المديح ، وهو الاصل في نظمهما هذا الشعر .

لم يكونا متوافقين دائما

ولم يكن هذان الشاعران متوافقين متصافيين دائما ، بل كثيرا ما تهاجيا وتشاتما ، وفي اثناء ذلك قد تقوم بينهما مطارحات طريفة فمن ذلك ان ابن منير كان يبكت القيسراني بانه الشؤم مجسما ، وانه يكفي ان يطل على مجلس ليصاب اصحاب المجلس بداهية ، وانه ما صاحب احدا الا نكب ، فصدف ان عماد الدين غناه مغن على قلعة جعبر وهو يحاصرها قول ابن منير :

ويلي من المعرض الغضبان اذ
نقل الواشي اليه حديثا كله زور
سلَّمت فازور" يزوي قوس حاجبه
كأنني كأس خمر وهو مخمور
حُرفن الصدغ مسبول ذوائبه
لي منه وجدان : ممدود ومقصور

فاستحسنها عماد الدين وقال : لمن هذه الابيات ؟ فقيل هي لابن منير وهو بحلب ، فكتب باحضاره ، فليلة وصل ابن منير اغتيل عماد الدين . فقال القيسراني : هذه بجميع ما كنت تبكتني به !..

يومنـــا كـــذلـــك الامس

وكان الوضع قبل نهوض عماد الدين وضعا مذلا سيطر فيه الافرنج سيطرة كاملة علـــى البلاد الممتدة من ماردين الـــى عريش مصر . ولم يكـــن ناجيا من ربقة الاحتـــلال في هذا المدى الواسع الا المدن الاربع : حلب وحماه وحمص ودمشق . علـــى ان هذه المدن اذا كانت قد نجت من الاحتلال فانها لم تنج من الهوان . فقد كان الفرنج يرسلون وفودهم الـــيها فارضة ما تشاء من الفروض ، فضلا عمـــا كانـــت عليه بقيـــة المدن والقرى . ولعل مما يصور وضع البـــلاد يومئذاك ما قاله صاحب كتاب (الروضتيـــن) : « وكـــان الفرنـــج قد اتسعت بلادهم وكثرت اجنادهم وعظمت هيبتهم وزادت صولتهم وامتـــدت الـــى بلاد المسلمين ايديهم وضعف اهلها عـــن كف عاديهم وتتابعت غزواتهم وساموا المسلميـــن سوء العذاب واستطار في البلاد شر شرهم » .

ثم يزيد في وصف الحال قائلا : « وكانت سراياهم تبلـــغ من ديار بكـــر الـــى آمد ومن الجزيرة الـــى نصيبين ورأس عيـــن ، اما اهل الرقة فقد كانوا معـــــهم في ذل وهوان ، وانقطعت الطرق الـــى دمشق الا علـــى الرحبة والبر ، ثم زاد الامر وعظم الشر حتى جعلوا علـــى اهل كل بلد جاورهم خراجا واتاوة يأخذونها منهم ليكفوا اذيتهم عنهم » .

ولا يفوتنا أن نشير الى ما كان عليه العرب من تشاحن وتقاتل وصراع مما كان يحول دون النهوض نهوضا يـــرد للامة كرامتها وحريتها .

طــلائع الانعتــــاق

هذا هو حال الوطــن حيــن كان قد استطال امر عماد الديــن زنكي ورسخ سلطانه فكان ان هب لمناجزة المحتلين ومقارعتهم ، ثم اخذ ينتصر عليهم انتصارات متتابعة ، اذا كانت في اول امرها هينة النتائج فانها كانت مفتاحا للوثوب ، كهذا الذي جرى حيــن ردهم عن حصن (شيزر) وحين فتح حصــن (الاثارب) وحصن (عرقه) وحصن (بارين) ثــم ضرب ضربته الكبــرى بفتــح مدينة (الرها) .

وكانت الرها (ايدسا القديمة) محكومة من الارمن ، وبعد استيــلاء الفرنــج في حملتهم الاولــى التي تلــت حمــلة بطرس الناسك ، علــى مدينة (نيقيا) سنة ١٠٩٧م ثم مدينة دوريلايوم (اسكــي شهر) من السلجوقييــن انفصل بلدويــن اللوريني عن الجيش الصليبي الرئيسي وتقــدم نحو الرها واستولــى عليها بالاتفاق مع حاكمهــا الارمنــي (توروس) سنة ١٠٩٨ وانشــأ فيــها اولــى الدويلات اللاتينيــة . ومنها تقدم الفرنج الــى سميساط وسروج والبيرة وغيرها ، فقامت لهم امارة في حوض الفرات الاعلــى من مرعش في الشمال الــى منبج في الجنوب غربي الفرات ، ثم تمضــي شرقــي الفرات فتشمل بهسنا والرها وسروج . وكان تمركز بلدوين في الرها مما اعاق القــائـد السلجوقــي (كربوقا) امير الموصل عن الوصول في الوقت المفيــد لنجدة انطاكيــة التي كان يحاصرها الجيش الصليبي الرئيســي . ثم كان قيام هذه الامارة تهديدا متواصــلا للموصل وما يتبعها مثل نصيبيــن وماردين وحران ، وكذلك

لديار بكر وما اليها علـى اعالـي نهـر دجلة ، بل كـان تهديدا ايضا لشمـال العراق كله .

واذا كانت الرها اول دولة لاتينية تقوم ، فقد كانـت كذلك اول دولة لاتينيـةتسقط . وبين قيامها وسقوطها ست واربعون سنة ، اذ كانسقوطها بيد عمـاد الديـن ، عام ١١١٤ بعد حصار داماربعة اسابيـع .

صدى الفتـح

كان لفتـح الرها وقع عظيم هز النفـوس بالبهجـة والغبطة ، ولم يكن اجدر من الشاعريـن ان يكونا صـدى لما كان يعتمل في نفوس العرب من السرور وما كانت تجيش به قلوبهم من الامال العراض . لذلك رأيناهما يسجـلان هذا الفتـح بشعر يمكن ان نقول ان فيه ملامح الملاحـم وجوهرها ، فان القيسرانـي يقول فيمـا يقول من قصيـدة طويـلة :

مدينة افك منذ خمسين حجـة
يفل حديد الهند عنـهـا حداده
تفوت مدى الابصار حتى لو انهـا
ترقتاليه خان طـرفا سـواده
وجامحة عز الملـوك قيـادهـا
الـى ان ثناها من يعز قيـاده

وكانت الرها حقيقة بهذا الوصف لانها ظلت طـوال ما يقرب من خمسيـن سنة ، منذ ان عجز كربوقا عـن فتحها وهو فيطريقه لانقاذ انطاكيـة ، فأوقفه حصارها ثلاثة

اسابيع بدون جدوى ، وكانت هذه الاسابيع كافية لوصوله الى انطاكية والقضاء على الجيش الصليبي المنهوك الجائع المحطم النفس ، لو انه لم يتوقف عند الرها فيتيح بذلك للصليبيين استمادة معنوياتهم ودخول انطاكية فلا يصل كربوقا الا بعد سقوطها ، ثم يعجز بعد ذلك عن استردادها فيكون فتحها فاتحة الشرور ومبدأ الهزائم . ظلت الرهاطوال خمسين سنة منيعة ومصدرا للشر ، ومن هنا اوحت للقيسراني بما اوحت من وصفها ثم بتصوير الشعور العربي بالانتصار عليها .

وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا
سناها وان فاتت العيون اتقاده
وفتح حديث في السماع حديثه
شهي الى يوم المعاد معاده
اراح قلوبا طرن من وكناتها
عليها فوافى كل صدر فؤاده
فيا ظفرا عم البلاد صلاحه
بمن كان قد عم البلاد فساده

ثم بما احيا هذا النصر من الامال البعيدة :

ولله عزم ماء « سيحان » ورده
وروضة « قسطنطينية » مستراده

ومطلع هذه القصيدة :

هو السيف لا يغنيك الا جلاده
وهل طوق الاملاك الا نجاده

وهو مطلع خارج عن الاسلوب التقليدي الذي كان

يفتتح القصائد بالغزل ، وانمـــا هو مطلع مستمد من روح الملحمـــة متأثر بجوهرها ، وهكذا بقية المديـــح في القصيده، فقد خرج عـــن كونه تعدادا لفضائل ابتذل تعدادها في كـــل ممدوح ، بل هو وصف لكفاح قاده الممدوح وحقق الظفر فيه ، وتعبير عـــن امال مكبوتة ، وهذا كله يعود الـــى جـــذور الملاحم واصولها .

وهذا عين ما نراه عند ابن منير الذي قال من قصيدة طـــويـــلة :

والرهـــا ان لـــم تكـــن الا الـــرها
لكفت حسمـــا لشـــك الممترين
هم « قسطنطيـــن » ان يفرعهـــا
ومضـــى لم يحو منها قسط طين
ولكـــم مـــن ملـــك حـــاولهـــا
فتحلـــى الحيـــن وشما في الجبين

ثم ينتقل الـــى الحديث عن نتائج فتحها واثر هـــذا الفتـــح عند الفريقين :

ان حمت (مصر) فقد قـــام لهـــا
واضح البرهان ان (الصين) صين
برنست راس «برنس» (١) ذلـــة
بعدما جاست حوايا «جوسلين» (٢)
«وسروج» مذ وعت اسراجـــه
فرقت جمـــاعـــها عنـــها عضيـــن

---

١ ــ هو أمير انطاكيـــة يومذاك

٢ ــ هوجوسليـــنالثانـــي امير الرهـــا .

تلـك اقفال رمـاهـا انله مـن
عزمه الماضـي بخير الفاتحيـن
سل بها « حران » كم حرى سقت
بردا من يـوم ردت « مارديـن »
سمطت امس « سميساط » بهـا
نظمجيشمبهـج للناظريـن
وغـدا يلقـى علـى « القدس » لها
كلكل يدرسـها درس الـدريـن

بعـد عمـاد الديـن

ويموت عماد الدين اغتيالا ويليه ابنه نـور الديـن ويستطيع السيطرة علـى رقعة ممتدة من اعالـي دجلـة شـمالا الـى منابع الاردن جنوبا ، ويكون الشاعران لـه كمـا كانا لابيه ، ويصطدم نور الدين بالفرنج ويفوز عليـهم في معركة « انب » ويقتل « البرنس » صاحب انطاكيـة في المعركة ، وتتحققبشارة ابـن منير المتقدمة « ويتبرنـس » راس « البرنس » لا بالذلة وحدها بل بالمنية ، وهكذا نـرى كم كان ذلك الشعر صدى للوجدان العربـي والضمـير الاسلامـي في تخيل الامال البعيدة والتلهف علـى المطامـع القصيـة . فقد كان « البرنس » كمـا يقول ابن الاثـير : « عاتيا من عتاة الفرنج » وكان الخلاص منه احدى اكبـر الامنيـات .

وقد رأينا كيف ان القيسراني كان يلوح في قصيدتـه الداليـة لا بالخلاص في الوطن فحسب بل بالنفاذ حتـى الى القسطنطينيـة :

ولله عزم مـــاء سيحان ورده
وروضـــة قسطنطينيـــة مستراده

كمـــا لوح ابـــن منير بالنصر علـــى البرنـــس ثـــم بالنفـــاذ الـــى القدس :

وغـــدا يلقـــي علـــى القدس لها
كلكل يـــدرسهـــا درس الدريـــن

وتتالت بعد الرهـــا المراحل المرجوة مرحلة مرحلـــة وستظل تتوالـــى ولكـــن دون ان يقـــدر للشاعريـــن ان يعيشا ليريا تواليها ، اذ انهمـــا ماتا قبل نور الدين .

واستأثرت معركة انب ومقتل البرنس بشاعريـــة الشاعريـــن وقفزت بالمطامح من القدس والقسطنطينية الى روما نفسها فقال ابـــن القيسراني من قصيدة طويلة جـــرى فيها علـــى ما جرى عليه في القصيدة الدالية من الافتتاح بالشعـــر العسكري لا الغزلـــي :

هذي العزائم لا ما تدعـــي القضب
وذي المكارم لا ما قالـــت الكتـــب
وهذه الهمم اللاتـــي متـــى خطبـــت
تعثـــرت خلفها الاشعار والخطـــب

وفيهـــا يقـــول :

اغرت سيوفـــك بالافرنـــج راجفـــة
فؤاد « رومية » الكبرى لها يجـــب
قل للطغاة وان صمت مسامـــعها
قولا لصم القنـــا في ذكـــره ارب
اغركم خـــدعـــة الامـــال ظنكـــم
كم اسلم الجهل ظنا غـــره الكـــذب

اجسادهم في ثياب من دمائهم
مسلوبة ، وكأن القوم ما سلبوا
انباء ملحمة لو انها ذكرت
فيما مضى نسيت ايامها العرب
فملكوا سلب « الابرنس » قاتله
وهل له غير « انطاكية » سلب
فانهض الى المسجد الاقصى بذي لجب
يوليك اقصى المنى فالقدس مرتقب

ونحن نلمس في هذا الشعر شيئا فوق المدح . اننا نلمس احساسا متأججا يثيره الذل الذي استحال عزا والهوان الذي عاد فتحا ، اننا نسمع اهازيج النصر راعدة مدوية وهتافات الظفر صارخة متوعدة تزري بالغاصبين وتدل الى هلمهم وتتغنى بالراجفة التي وجب لها حتى قلب (رومية الكبرى) القصية ، ويجيء ذكر روما هنا طبيعيا سائغا ، لا نبو فيه ولا دلالة تبجح فارغ مستكره . ثم هذه الاشارة الى الخطوة التالية المأمولة الى (سلب الابرنس) ، هذا السلب الذي يسمو عن المادة ومغرياتها ، ان السلب في هذا الصراع الرهيب هو اغلى ما ملك (البرنس) وقوم البرنس : « هو انطاكية » التي كان سقوطها فاتحة السقوط العام وسيكون نهوضها فاتحة النهوض العام ثم الطريق الى المسجد الاقصى بالجيش الهادر المزمجر ذي اللجب ، فالقدس ترتقب اهلها وتنتظرهم.

اننا نرى في هذا الشعر ، الشعب كله ينطلق في صوت واحد وشعار واحد : الى الامام ، الى انطاكية ،

الـــى القــــدس ..
ينطلق بذلك لا غرورا وغباء ، وجهلا ، بل يقينــــــا وعقـــلا وتفهمـــا .

ويقول ابن منير من قصيدة طويلة افتتحها كزميله لا بالغزل بل بمـــا يناسب حالة الكفاح التـــي كانت فيها البلاد :

اقوى الضـــلال واقفرت عرصاته
وعلا الهـــدى وتبلجت قسمـــاتـــه
فتـــح تمهمت السمـــاء بفخـــره
وهفت علـــى اغصانـــها عذباتـــه
وسقـــى « البرنس »وقد تبرنس ذلـــة
بالروح ممقر ما جنت غـــدراتـــه
تمشـــي القناة برأسه وهو الذي
نظمت مـــــدار النيريـــن قناتـــــه

وتتابع الفتـــوح ويلـــي النصر النصر فينطلق ابـــن منير حاملا في قصيدة واحدة قصص الاحداث متنقـــلا من مكان الـــى مكان :

اعدت بعصـــرك هـــــذا الانيـــق
فتـــوح النبـــي واعصـــارهـــا
فجددت اســـلام « سلمانهـــا »
وعمـــر جـــدك « عمـــارهـــا »
ومـــا يـــوم « انـــب » الا كتيســ
ـــك بـــل طـــال بالبوع اشبارهـــا
ولمـــا هبـــبت « ببصرى » سمكـ
ـــت باهبـــاء خيلـــك ابصارهـــا

ويــوم علــى الجــون « جون السـ
مراة » عز فسعطهــا عــارهــيــا
صدمت « عريمتهــا » صدمــــة
اذابــت مــع المــــاء احجــــارها
وفي « تل باتـــــر » باشرتهــم
بزحف تبســــــور اســوارهــــا
وان دالكتهم « دلـــوك » فقــد
شـــددت فصدقــت اخبارهــــا

واستمر نور الدين في صراعه مع الصليبيين واستمـر الشاعران في تسجيل انتصارات نور الدين مما يمكن ان يعد مجمـوعه ملحمة من الملاحم العربية وتاريخا شعريا لفترة معينـــة من فترات الحروب الصليبيـــة .

الشيخ جعفر الخطي شاعر الخليج

هذا الخليـــج الطيب ، الذي تطل منه مجلة « العربي » في مطلع كل شهـــر فتتلقفها الايدي العربيـــة شغوفة ، كان جديرا بمجلة مثل « العربـــي » لما في ماضيه من صفحـــات مشرقة بالعلم والادب والشعر ، وبما ساد في ربوعه من شغف بالمعرفة وتفوق في الفقه وتقدم في القريض ، وبما اطلع من كواكب مضيئة في سماء العرب علـــى مر العصور ، وبما خلـــف افذاذه من تراث فكري زاخـــر .

انه بذلك كان خليقا بان يتابع مجرى ماضيه ، فيطلـــع علـــى دنيـــا العرب باقباس من النور تضـــيء حوالك السبل وداجيات المسالـــك .

ما حققتـــه مجلـــة العـــربـــي

وها هـــي ذي مجلة « العربـــي » اليوم تحقق لمحبـــي الخليـــج ، ممن خبروا ماضيه وعرفوا مآتيه ما تمنـــــــوه للخليج من دوام الماضـــي بقيادة نهضات طالما عرفها الخليج ، فمنـــذ ميثـــم البحرانـــي ، واحمـــد المتوج ، وسليمـــــان الماحوزي ، ويوسف آل عصفور ، وعشرات غيرهم كانـــوا في تاريخنـــا العلمـــي وتراثنا الادبـــي من انضر الوجوه وارفع الرؤوس .

منذ هؤلاء وغيرهم كانت القطيف يوما والاحساء يوما والبحريـن يوما ، هـي القاعدة والمنبت ، طورا هـذه وطورا تلك تسلم كل منها الزمام الى الاخرى او يتولينه معا . وها هـي الكويت اليوم بمجلتها الرفيعة تقبض علـى الزمام وتحمل اللواء فبتفيأ ظلاله ، لا الخليـج وحده بل العـرب حيثمـا حلـوا .

واذا كانت هذه المجلة قد حققت ما لم تحققه اضخـم الجهود ، فألفت بيـن منازع الفكر العربـي من اقصـى شرقه الـى اقصـى غربه ، واذا كانت قد استطاعـت ان تكـون رسول الثقافة الاسلامية الـى انأى ديار المسلمين، وبريد النهضة العربيـة في شتى ديار العرب ، فانهـا في واقعهـا صورة لما كان عليـه هذا الخليـج ولما نحب ان يظل عليـه من بروز في ميادـن الادب العربـي ومجالات الفكـر الاسلامـي .

شعـر الخليـج

والشعر بخاصة كان له في هذا الخليج التفوق والاجادة منذ طرفة بـن العبـد واخته ، الـى علـي بـن المقرب الاحسائـي ، الـى من ظلوا علـى طول العصور حتى هذا العصر ، شعراء من احب الشعراء الـى قلوبنا واقربهم الى نفـوسنـا .

ومن خير ما اختصهم الله به في شعرهم هو هذا الوفاء لارضهم والحنيـن لبلدهم والتشوق لمولدهم ، ولعل ارادة الله شاءت ان تمتحنهم بالنزوح عن الاوطان والهجرة الـى

شتـــى البلدان ، لا لشر اريد بهم ، بل لخير اريد بشعرهم، فكان لنا منـــه ذخيرة من اللوعة والوجد واللهفة ، تدفقـــت شعرا رقيقا وقصائد صافية تلذ للسامع وتطيب للقارىء .

فمنذ انشد طرفة بـــن العبـــد :

لخـــولـــة اطـــلال ببرقـــة ثهمـــد
تلـــوح كباقـــي الوشم في ظاهر اليد
وقـــوفا بها صحبـــي علـــي مطيهم
يقولون لا تهلـــك اســـى وتجلـــــد

وانشـــــد :

وبنو بكـــــر اذا ما اجتمـــعوا
دوحة الحرب وجـــرثوم الكـــرم
وشبـــاب وكهـــول بيننـــــا
كليوث ضاريـــات في الاجـــــم
نـــردع الجاهـــل في مجلسنـــــا
فترى المجلس منـــا كالحـــــرم

ومنذ انشد قبلـــه عمرو بن قميئة :

الـــى دار قوم حسان الوجـــوه
عظام القباب طوال العوالـــــي
فوجهتهـــــن الـــى مهمـــــه
قليل الوغـــــى غير صوت الرئال
سراعـــا ذرائـــب ما ينثنيـــن
حتـــى احتللن بحـــي حـــــلال
بسعـــــد بـــن ثعلبـــة الاكرمين
اهل الفضائل اهـــل النـــــوال

وانشد ابو زياد الكلبـــي :

اراك الـــى كثبـــان « يبرين » صبة
وهذا لعمـــري لو قنعـــت كثيـــب
وان الكثيب الفرد من ايمـــن الحمى
الـــــي وان لم آتـــه لحبيـــــب
وانشدت الشاعرة الخليجية المجهولة :
أيا جبلـــي وادي « عريعرة » التي
نأتعـــنثوى قومي وحم قدومهـــا
الا خليا مجرى الجـــنوب لعلهـــا
يداوي فؤادي من جـــواه نسيمهـــا
منذ اولئك توالـــى الانشاد تغنيا بالخليج وتمدحـــا بظلاله وحنينا الى تخيله وتشوقا الى شطوطه ، فانشد علـــي بن المقرب الاحسائي :
يـــا حبـــذا وادى « الحساء » وانه
لـــو ساءنـــــي واد الـــي محبـــب
بل حبـــذا « درب الثليم » وحبـــذا
ذاك القطين بـــــه وذاك الملعـــب

ثم انشد ماجد الصادقـــي :
يا ساكنـــي « جد حفص » لا تخطفكم
ريب المنـــــون ولا نالتكم المحـــــن
ولا عـــدت زهرات الخصب واديكم
ولا اغـــب ثراه العـــارض الهتـــن
الدهـــر شاطـــر ما بيني وبينكـــم
ظلمـــافكـــان لكم روح ، ولي بدن .
ثم انشد علـــي شبانه :

والــى « أوال » تروع قلبــي كلمــا
سرت الصبا من تلكـم الساحــات
والــى نواحــي ارضها وربوعهــا
ولما بها قــد مــر مــن اوقـــات
وعراصها الفيــح التي قد طــرزت
اطرافــها ببواســـق النخـــلات
ثم انشد علــي البحرانــي :
يا نسيــم الريح ان جئت « المقاما »
فابلغــن عنــي احباي الســلامــا
سفر قد صــار مـــن اهوالــه
فيه كـــل المستحبــات حــرامــا
طال حتــى ملـــت الروح بـــه
الجسم والقلب بـــه حل « المقاما »
ثم انشد عبد العزيز المبارك :

طـــال ليلــي في « ابي ظبــي » ولا
ظبــيلي فيه يضاهــي البدر حسنــا
واصيحاب !ناجيـــب لهـــم
اصبح المجــد كمــا شاؤوه قنـــا
اوطنــوا « الاحساء » فارتاحت بهم
واكتســى الدهر بهم زينا وحسنا
« بالقبيليات » لا زالت بـــهم
جنة مـــنها ثمـــار الخــير تجنـــى
يا نداماي بذيـــــاك الحمـــى
بلغ الله بكــم مـــا نتمنـــى

ثم انشد عبدالله عبد القادر :

لئد غادرت في « هجر » فـؤادي
وان امسـيت في ارض سـواهـا
بها اهلـي وجيرانـي وصحبـي
سقاهـا الله مـن بلـد سقاها

ثم انشـد علـي التاروتي :

سمعا مهفهفة « الهفوف » من «هجر»
انغمة الصـوت ذا أم رنـة الـوتـر
وذا الذي عطر الافـاق فائحـه
ترديـدنفسـكذا أم نفحـة العطـر

ثم قال الشيـخ عبد الحميد الخطي :

قالوا القطيف فقلت غايـة قصدنا
الـق المراسـي ايهـا الـربـان
السفـن اسراب تـروح وتغتدي
نـوعـان ذا وان وذا عجـلان
والشرع خافقـة الشعاع كأنمـا
نفضت جناحا في الفضـا العقبـان
يـا حسنه من منظر خلب النهـى
يعيـا برسـم جمـالـه الفنـان
مـا عادني ذكر الشطوط وطيفها
الا وعـاد فـؤادي الخفقـان

ثم قـال عبد الرسول الجشـي :

ما زلـت لؤلؤة «الخليج » ولم يزل
للآلىء (البحـريـن) ذكـر سـائر

وهب الحياة ثراك فهي جنائن
وكسا الجمال رباك فهي مناظر
وتأشبت فاذا السباخ خمائل
وتفتحت فاذا الرمال ازاهر
وتفجرت فاذا الصخور جداول
وتضاحكت فاذا الخرير مزاهر
وتطاولت فاذا النخيل عرائس
وتخطرت فاذا الغصون غدائر
دنيا اقام الفن فيها عرسه
وازيح عن صور الجمال ستائر

ثم قال فاضل خلف يخاطب البحرين :

بلاد اللآلي المشرقات تقبلي
شعوري وشعري والهوى يتدفق
يجوب بنوك البحر هذا مغرب
يسطر امجادا وهذا مشرق

فهل ترى ارضا عربية ذكرها اهلها وغنى بها شعراؤها بمثل ما فعل اهل الخليج بخليجهم حين انشدوا في حنينهم شعرا تفجره وطنيتهم ، ويبعثه وفاؤهم ، معبرين عما في الخليج من المعيات واريحيات ، وممثلين طيب ارضه وصفاء سمائه وسؤدد ابنائه .

هكذا نرى الخليج على افواه الشعراء في كل العصور نغما عذبا وشدوا رقيقا ، خالدا ذكره خلود الادب دائرا اسمه في الناس ما دار الشعر وجال النثر .

الشيـخ جعفـر الخطـي

وهذا واحد من شعراء الخليـج ، بل هذا شاعـر الخليج في عصره ، ولد في مغانيه وتنقل بيـن اقطاره ثـم ترحل عنه فهفا اليه وتلهف عليه . ذاك هو الشيـخ جعفـر الخطـي المتوفـي سنة ١٠٢٨ هجرية ، ١٦١٨ ميلادية لقـد عاش بيـن القطيف والبحرين ثم سافر الـى اصفهان حيث كان النابغة العربـي بهاء الديـن محمد العاملـي الذي جمـع الـى الحكمة والعلم ، الشعر والادب ، وقد كان لقاء العلميـن في اصفهان مجالا لتساجلهمـا بالشعر ، فعارض الخطـى قصيـدة العاملـي التـي مطلعها :

سرى البرق من نجد فهيج تذكاري
عهودا بحزوى والعذيـب وذي قار

فقال الخطـي :

هـي الدار تستسقيك مدمعك الجاري
فسقيـا ، فأجـدى الدمـع ما كان للدار

وفيها يحـن الـى الخليـج :

اموسم لذاتـي وسـوق مآربي
ومجنـى لباناتي ومنهب اوطـاري
سقتـك برغم المحل اخلاف مزنة
تلف اذا جـاشـت سهولا باوعـار

وتشاء الاقدار ان تنتهـي حياة الشاعـر في ايـران فيمـوت بعيـدا عـن الخليـج وارضه ، تلك الارض التي طالما تغنـى بها واشتاقها .

شعره

اجمل شعر الخطي واخلده هو ما كان صدى لعواطفه ومظهرا لحنينه ، ففيما عدا الشعر التقليدي الذي عرفه كل الشعراء في تلك الفترات ، فان الخطي نظم في الحنين الى القطيف حين هجرها الى البحرين ، ثم في الحنين الى كليهما حين رحل الى ايران . وهو في كل ذلك يذكر الاماكن ويتشوق الى المنازل :

هلا سألت الربع من « سيهات »
عن تلكم الفتيان والفتيات
ومجر ارسان الجياد كأنها
فوق الصعيد مسارب الحيات
ومجدفات السفن ادنى برها
من بحرها ومبارك الهجمات
حيث المسامع لا تكاد تفيق من
ترجيع نوتي وصوت حداة
ان « القطيف » وان كلفت بحبها
وعلت على استيطانها زفراني
اذ حيث جزت رأيت فيها مدرجي
طفلا واترابي بها ولداتي
لاجل ملتمسي وغاية منيتي
اني اقيم بتلكم الساحات
فسقى الغمام اذا تحلب ركبه
تلك الرحاب الفيح والعرصات

واجتابت المزن العشار فطبقت
بالسقي من « عتك » الى « نبكات »

وهكذا فان « سيهات وعتك ونبكات » هي مطمح انظاره ومثار هواه ، ومرابع الخليج وما فيها من حياة بحرية برية تلتقي فيها اصوات الحداة باصداء النوتية ، وتمتزج مجاديف السفن بارسان الخيل ، ان حياة الخليج هذه يشغف بها شاعر الخليج فيصورها لنا ويحدثنا عنها فنرى في شعره صورة وطنه .

ولا عجب ففي الخليج درج طفلا ، وجال يافعا وشابا بين الاتراب واللذات كما يحدثنا هو في هذا الشعر الذي نحس انه شعر « خليجي » بكل ما في الخليج من طبيعة واحياء وحياة .

واذا كان وهو في البحرين يحن الى بلده الاول القطيف ، فكيف به وقد نأى عن كليهما ونزح عن الخليج وبعد عن « مجدفات سفنه » و « مجر ارسان خيله » وحل بشيراز سنة ١٠١٢ هجرية .

ان جواه في هذا ليطول ووجده ليثور فيقول :

يا هل ترون لنازح قذفت به
ايدي البعاد « لجد حفص » ايابا
لا تحسب « البحرين » اني بعدها
متبوىء دارا ولا اصحابا
ما اصبحت « شيراز » وهي حبيبة
عندي بأبهج من اوال « جنابا »

ولكن البحرين ليست وحدها الان هي التي تشوقه

فهو موزع الفؤاد في الخليج كله ، فاذا فكر البحرين تداعى الحنين عليه من كل جانب ، فالقطيف قبل البحرين كانت مدارج صباه وملاعب هواه ، انه لم ينسها وهو في البحرين غير بعيد عنها ، اينساها وقد شطت دارها وبعد مزارها:

يا ساكني « الخط » في قلبي لكم خطط
معمورة بمعانيكم مغانيها
يا هل ترون لحني الضلوع على
ذكر الديار وقوفا في محانيها
ماذا على الطير اذ أبلى الضنا جسدي
فخف لو حملتني في خوافيها
ان يقعد الطير عن حملي لكم وسرت
ريح الصبا فاطلبوني في مساريها .

وهكذا يتداوله الشوق من القطيف الى البحرين الى افياء الخليج من حيث امتدت تلك الافياء :

عج بالمطي على معالم (بوري)
لمحل لذاتي وربع سروري
لم تجعل العبرات خدي معبرا
الا على مري بها وعبوري
هل لي الى تلك المنازل عودة
يخبو بها وجدي وفرط زفيري
يا من اسير كل يوم نحوهم
كتبي اذا اعيا علي مسيري
آه وقل على (اوال) تأوهي
فاذا جننت بها فغير كثير

هيهات مـــا (شيراز) وافيـــة بمـــا
في تلـــك لـــي من نعمـــــة وحبـــور

ويظل يتشوق ويتأوه :

حمـــامات شيراز رفقـــا بنـــا
لهجتن بالنـــــوح مـــــا عـــندنـــا
الا قـــل لسكـــــان (وادي المحـــل)
هـــل وردوا في الهـــوى وردنـــــا
فيـــا هـــل علمتـــم وانـــتم هنـــاك
ما عنـــدنـــــا فيكـــم هـــا هنـــا
فيـــا صاحبـــــي والفتـــــى ربمـــــا
احال علـــى خلـــــــه مـــا عنـــا

لسكـــــان (ظهـــر منى) من (اوال)
اول مطـــــلبنـــــــا والمنـــــــى
الا رب قـــــــوم اباحـــوا لنـــــا
مـــــن الوصـــل اطيـــب ما يجتنى
وفيهم مـــن الحسن مـــــا فيـــهم
فلـــم نـــر ذلـــــك مستحسنـــــا
يـــريـــدون سلواننـــــا عنكـــــم
وان كـــان ذلـــك لـــم يسلنـــــــا
فـــلا تنكـــرن علينـــا الرحيـــــل
غـــداة نـــأى الركـــب عنكـــم بنـــا
فبالرغـــــم ان يستقـــــل المحـــــب
عمـــــن يحـــب وان يظعنـــــا

هذه ملامح من شعر شاعر الخليج الشيخ جعفر الخطي كان فيها وفيا للخليج برا به . وهذا الشاعر لا تقوم بالتعريف به هذه الصفحات القليلة ولكنها اذا استطاعت ان تدل عليه وتشير اليه فحسبها ذلك .

الشيخ محمد رضـا الشبيبي

محمـد رضا ابـن محمد جواد بن محمد بن شبيب ابن ابراهيم بن صقر الجزائري(١) النجفي مولدا ومنشأ . وكان الجد الاعلى لاسرته اي الشيخ شبيب فقيها على طريقة المحدثين ، وهي الطريقة التي كانت ذائعة لدى فقهاء العراق في عصره . وقد سجل الشيخ شبيب نسبه بخطه على ظهر نسخة من كتاب الحدائق المشهور في الحديث . وهذه النسخة من جملة كتبه الموقوفة . وكانت ضمن محتويات مكتبة الاسرة .

نشأته ودراسته واساتذته

ولد في مدينة النجف عام ١٣٠٦ هـ ونشأ فيها ، وكذلك ختم القرآن قراءة فيها على سيدة صالحة مقرئة هي السيدة (مريم) البراقية وتعلم الخط على الشيخ هادي حصير (بتشديد الياء) وكان للمعلم المذكور كتاب يتعلم فيه الاحداث : وآ (حصير) بيت من بيوت النجف عرفوا بهذه المهنة مهنة المكتبيين او المؤدبين كما كانت تسمى في عصور الدولة العباسية مع ملاحظة الفارق البعيد في طبيعة هذا العمل وما كانت عليه في

---

١ ـ نسبة الى اقليم الجزائر المعروف من ملحقات لواء البصرة .

عصور المتقدمين ، وما آلت اليه في أزمنة المتأخرين .

اما علوم اللغةالعربية من نحو وتصريف وبلاغة وبيان فانه قرأها على اكثر من شيخ واحد في طليعتهم الشيخ (محمد حسن المظفر) ولعله اجل اساتذته في علم النحو ومن مشايخه في هذا العلم الشيخ محمد جواد الجزائري ، وكان استاذا في فنون اللغة العربية . واما علم المنطق فانه قرأه على اكثر من استاذ كذلك ، في مقدمتهم السيد (مهدي الطباطبائي) من السادة المعروفين بآل بحر العلوم ، وكان السيد مهدي معروفا بحدة الذهن والذكاء الوقاد ثم على السيد حسين الحمامي قرأ عليه في كتاب (شرح المطالع) . والسيد هبة الدين الشهرستاني من اوائل اساتذته في المنطق قرأ عليه سنة ١٣٢٣ (كتاب الجوهر النضيد في شرح منطق التجريد) وهذا الشرح من اجل شروح العلامة الحلي في هذا العلم اما المتن الذي يسمى (منطق التجريد) فهو من مصنفات الحكيم نصير الدين الطوسي وكان كتاب القراءة الاول الذي يدرس في (علم المنطق) كتابا موجزا يقال له (شرح التهذيب) لمصنفه الملا عبدالله اليزدي ، اما متن التهذيب فهو من مصنفات سعد الدين التفتازاني ويقرأون بعده اي بعد كتاب التهذيب (شرح الشمسية) المتداول في المنطق للقطب الرازي . اما متن الشمسية فهو من مصنفات عمر بن علي المعروف بالكاتبي القزويني تلميذ (نصير الدين الطوسي) اهداه الى (شمس الدين الجويني) وزير المغول ، ويعد الجويني كما لا يخفى من خيرة وزراء المغول الذين

عنـــوا بشؤون الاسلام والمسلميـــن في محنتهم بعد غلبةالقوم علـــى الديـــار الاسلامية وهذا الكاتبي القزويني احـــــد الحكمـــاء الستة التـــي اختارهم نصير الدين الطوســــي لمعاونته في تأسيس (مرصد مراغـــة) والمعهـــد العلمـــي وخزانة الكتب الكبيرةفي تلك المدينة المغولية وكان مـــؤرخ العراق ابـــن الفوطـــي مصنف كتاب (مجمع الاداب) في معجم الاسمـــاء والالقاب قيما علـــى مكتبة (المرصد) وقد عنـــي في كتابه المذكور بتاريخ المرصد والمدرسة والمكتبة وكل ما يتصل بشؤون النهضة العلميـــة الكبرى في مراغة وتعد هذه النهضة من مآثر المغول في مستهل دولتهم في المشـــرق والعراق وقد عقـــد ابـــن الفوطـــي فصلا لطيفا في كتابه ترجـــم فيـــه للكاتبـــي القزوينـــي الحكيم .

واما علم الفقه وعلم الاصول فقد قرأهما المترجم علـــى اكثر من استاذ ففـــي الاصول قرأ كتاب المعالم للشيـــخ زين الديـــن العاملـــي وكتاب القوانيـــن للقمـــي وفي الفقـــه قـــرأ كتاب شرايع الاسلام للمحقق الحلـــي وكتاب الروضة البهيـــة في شرح اللمعة الدمشقيـــة قرأه علـــى الشيـــخ عبـــد الكريم آل الشيـــخ صالح الجعفري . وتخـــرج في الادب وعلومه علـــى اشهر مشاهير ادباء تلك المدينـــة وفي طليعتهم السيد حسيـــن عميـــد آل القزوينـــي وكـــان شاعرا خبيرا بفنـــون الادب مجددا بعيدا عن الجمود يفضل دراسة الكتب القديمة الاصيلة علـــى كتب المتأخريـــن .وعلى الشيـــخ هادي نجل الشيـــخ عباس من آل الشيـــخ جعفر الكبـــيـــر .

وكان الشيخ الهادي اديبا ذواقة للشعر معنيا بروايته . وقد عني هذا الشيخ بشؤون التربية واقتنى مكتبة ثمينة غنية بالمخطوطات وقلما توثقت علاقة بين اثنين كالتي كانت بين والد المترجم الشيخ جواد والشيخ هادي المذكور . ولا عجب فان تلك العلاقة كانت ذات جذور عميقة يغذيها اخلاص متبادل وصفاء لا تشوبه شائبة . ولما توفي الشيخ عباس والد الشيخ الهادي سنة ١٣١٥ رثاه الشيخ جواد بثلاث قصائد تعد من عيون شعره وهذه القصائد الثلاث يشعر من يقرأها بمتانة تلك العلاقة ، فهي بمثابة تعبير جميل عن شعور صادق واخاء وثيق وصحبة اكيدة ، وقرأ المترجم في الادب ايضا على اساتذة آخرين عدا ما اخذه عن والده واقرانه في ذلك الزمان . وكانت تعقد في النجف مجالس تلقى فيها بحوث ودروس بشكل محاضرات في الفقه والاصول يختلف اليها عدد كبير من الطلاب ومن اشهرها مجلس يعقد للشيخ الملا كاظم الخراساني الاستاذ المدرس المشهور في علم الاصول وآخر يعقد للشيخ فتح الله المعروف بشيخ الشريعة وهو خاص بالبحوث الفقهية وكان الشبيبي يختلف الى هذه المجالس العلمية .

عمله في الاصلاح

وكان ذلك كله في اواخر عصور الدولة العثمانية . اي قبل نشوب الحرب الكونية الاولى . وهو عصر امتاز بيقظة فكرية ظهرت في الاقطار التابعة للدولة العثمانية ومن جملتها العراق . وكان هدف تلك اليقظة المطالبة باصلاح

شؤون الدولة حيث اسهم المترجم له مع شباب ذلك العصر من عراقيين وغيرهم في الدعوة الى الاصلاح . ثم كانت له جولات معروفة في الصحافة خصوصا السورية والمصرية ومن يتصفح بعض صحف مصر وسورية ولبنان والعراق الصادرة في ذلك العصر يقرأ له فيها شعرا اجتماعيا او سياسيا غير قليل ومقالات ادبية وتاريخية ولغوية وكان لجمهرة المتأدبين شغف بالغ بقصائده وحفظها وروايتها في تلك الفترة حمل المترجم لواء الدعوة الى الاصلاح السياسي والاجتماعي في شعره ونثره منذ نشأ وكانت له رسالة من هذا القبيل في بلاد العرب والعراق وفي اقاليم الامرات خاصة .

ويقول مؤرخو الادب العراقي الحديث انه من اوائل من طرق الموضوعات الاجتماعية وتناولها في شعره بين شعراء العراق واولهم على الاطلاق بين شعراء النجف . وكان ذلك حوالى سنة ١٣٢٠ للهجرة (١٩٠٥) كما كان عمره اذ ذاك حوالي الخمس عشرة سنة . واشهر الصحف والمجلات التي نشرت ما نشرت له من منظوم ومنثور في ذلك الحين : المقتبس (مجلة وجريدة في دمشق الشام) والبرق البيروتية ومجلة العرفان ومجلة الزهور المصرية وصحف عراقية اخرى معروفة ، وله ديوان شعر عنوانه (ديوان الشبيبي) طبع في القاهرة سنة ١٩٤٠ .

بحوثه ودراساته

وللشبيبي دراسات وبحوث تاريخية وادبية وسياسية

بعضها مطبوع واكثرها مخطوط من ذلك بحث عنوانه (فن التربية في الاسلام) القاه على طلبة كلية التربية ببغداد سنة ١٣٧٧ ـ ١٩٥٨ ودراسة في اللغة عنوانها (اصول الفاظ اللهجة العراقية) واخرى في الادب موضوعها ادب المغاربة والاندلسيين في اصوله المصرية ونصوصه العربية(١) وهي محاضرة القاها على طلبة معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة هذا الى بحوث غير قليلة في التاريخ والادب واللغة القيت في دورات مؤتمر المجمع اللغوي في القاهرة وعددها خمس عشر دورة.وقد نشرت محاضر الدورات المذكورة وفيها امثلة من تلك البحوث والمحاضرات . واخر مجهود ظهر له كتاب عنوانه (رحلة في بادية السماوة) نشرت اخيرا في بغداد .

مساهمته في الحرب الاولى

ولما اعلنت الحرب الكونية الاولى واندلعت في العراق سنة ١٩١٤ شارك في هذه الحرب الى جانب الجيش العثماني وحضر معركة الشعيبة الطاحنة التي خذل فيها الجيش المذكور ، ومن ثم انتحر على الفور قائده امير اللواء (سليمان عسكري) وكان الى جانب القائد المذكور في ميدان الشعيبة ابان هذه الحادثة النكراء . ومن ثم عاد مع فلول الجيش المتقهقر الى مدينة الناصرية .

كان القائد سليمان العسكري شجاعا مقداما غير انه لم يزود بمعلومات كافية عن معاقل الانكليز ومناعتها

---

١ ـ طبع كتاب ادب المغاربة والاندلسيين في القاهرة سنة ١٩٦٠ .

في ميدان الشعيبة ، ولذلك خابت محاولاته في الاستيلاء على المواقع المذكورة ومني الجيش بخسائر كبيرة بعد هجمات انتحارية ضارية اشرف عليها سليمان عسكري القائد العام بنفسه ، وكان المترجم له معه فعلا في ذلك الميدان وقد خصص له سلاح وركوبه . ولمشاركة الشبيبي في حرب (الشعيبة) الناشبة بين البريطانيين والاتراك في العراق قصة نادرة لا يخلو ايرادها من فائدة وذلك على الصورة التالية :

كانت رياسة هيئة اركان الجيش التركي انشأت في بغداد سنة ١٩١٤ مدرسة عسكرية عالية سميت (مدرسة ضباط الاحتياط) حشروا ممن حشروا فيها فريقا من طلبة المدارس الدينية ، وكان الشبيبي من بينهم ، كما كانت التركية لغة التعليم في هذه المدرسة ومعظم الاساتذة ضباط اتراك كان تدريبهم على جانب من العنف والشدة ، على ان الشبيبي استطاع اقناع السلطات التركية ببغداد باستثناء طلاب المدارس الدينية واعفائهم من الانتساب الى مدرسة الضباط فصدر الامر بتسريحهم على ان يلتحقوا بفرق المجاهدين المتطوعين في تلك الحرب وجلهم من افراد القبائل العراقية عربا واكرادا فالتحق في بعثة مرسلة الى عشائر الاكراد في الجنوب قوامها فريق من رجال الدين وضباط الجيش اتجهت من مدينة (بدرة) الواقعة على واد يسمى وادي (بادرايا) الى المنطقة الجبلية الواقعة شرقي العراق وسكانها من الاكراد التابعين لايران وذلك لمنع الانكليز واعوانهم من التغلغل

الى تلك الجهة من منطقة البصرة والاهواز وتطويق الجيش التركي المحارب في مواقع الكوت والفلاحية المشهورة ، وهناك اجتمع بامير الاكراد الذي استجاب الى الطلب وتعهد بان يقف سدا دون تسرب طلائع البريطانيين على شرط تزويده بالسلاح وبمبلغ من المال وقد زود فعلا بذلك وقد تم الاجتماع بهذا الامير الكردي في مخيم له على ضفاف واد عريض يسمى (باكسابا) وكانت ضفاته خصبة مزدهرة وهذا الوادي ووادي (بادرايا) الذي قبله ينحدران من سفوح الجبال الشرقية او الكردية المذكورة ويمران في السهول حتى مصبهما في نهر دجلة وهما تابعان اداريا للواء العمارة . وجل الزراع العاملين في هذه الجهات ينتمون الى بني لام . يقول الشيخ الشبيبي في بعض ما كتبه : وقد سرنا على ضفاف الواديين من سفوح الجبال حتى السهول المنتهية بشواطىء دجلة ولا تخلو كتب البلدانين من ذكر (بادرايا وباكسابا) ومن ذلك معجم البلدان لياقوت . وبعد مكث الشبيبي مدة في تلك الجهات دعي ببرقية تدعوه الى مرافقة هيئة القيادة العامة للبعثة العسكرية المجهزة لاسترداد البصرة ، وكانت قد وصلت الى مدينة الناصرية ولا مناص له من المرور على مدينة (الكوت) وعلى الغراف في طريقه الى الناصرية وهي مسافة بعيدة ، وكانت الطرق كلها مغمورة بالمياه في فيضان قلما شهد العراق نظيره بل اصبحت اليابسة وكأنها بحر لا ساحل له فاضطر ان يخوض الماء على ظهر جواده حتى مدينة (الكوت) وكانت مهددة بالغرق وواصل رحلته منها بطريق الغراف حتى التحق بمقر قيادة

الجيش التركـي وقائده امير اللواء (سليمـان عسكري)
وصادف امير اللواء سليمـان عسكري وهيئة اركـان حربه
علـى شاطـىء الفرات في الناصريـة وهم على اهبـة
الحركـة الـى (الشعيبـة) بطريق بحيرة الحمـَّار وفي
زوارق بخارية فاستقبلوه في زورق القائد العام ولنحـدرت
السفـن الـى سوق الشيوخ ومنها الـى منطقة الاهوار
والبطائـح المشهورة حيث اجتازوا في المنطقة علـى سدود
زراعيـة يقيمها الفلاحون وتوهم الاتراك لسوء فهمهم ان
غرض الفلاحيـن سد الطريق علـى سفنهم وكانوا علـى
اهبة الاشتباك بالسلاح مع اولئك الفلاحيـن ومرد ذلـك
الـى نزق التركـي وهوسه فاسرع الشبيبـي الى الفلاحين
وطلب الـى الفعـلة بلطف ان يخلو الطريق للزوارق التركية
ولمركب القائد وافهمهم بان الجيش ذاهب للدفاع عـن البلاد
وان القائد العام من جمـلة ركاب الزوارق ففتحوا الطريق
وانحدرت السفـن في طريقها الـى ساحل البطائح الـى
معسكر (النخيلة) وهو قاعدة جيش الاتراك المنظم وفرق
المجاهديـن او المتطوعيـن العراقيين وقد اربـى عددهم
علـى ثلاثيـن الفا وكانت بعض الزوارق البخارية المذكورة
تقطر سفنـا شراعيـة موسوقة بخبز عفن مسود تعافـه
النفس وحسبك هذا دليلا علـى حالة المؤن والتموين ولـم
يخل مركز القيادة يومئذ من ضباط المان يغلب عليهم ضرب من
الوجوم والوحيرة وكان القائد العام سليمان عسكري قـد
امر بحشد الجيش فعلا في الخطوط الامامية من ميـدان
الشعيبـة وذلك في خطة مرتجلة غير مسبوقة بتبصر وروية ،
وامر بمهاجمة معاقل البريطانيين فيها ولم يعلم بحصانتهـا

ومناعتها الا بعد فوات الوقت وقد اسفر الهجوم عن خيبة مريرة وتراجع الجيش بخسائر فادحة . ومن ثم انتحر القائد العام في مأساة معروفة ، وكان اليأس من نجاحه في ادارة رحى المعركة سببا في انتحاره ، ولو بقي هذا القائد حيا لاسر فيمن اسر من ضباط وجنود في تلك المعركة الضارية. فان الجيش البريطاني شن هجوما مقابلا طوق فيه ذلك الميدان . اما المجاهدون او الذين سموا كذلك من افراد القبائل فكانوا اسرع من غيرهم الى الهزيمة .

وقد طورد المنهزمون بسيارات مصفحة ظهرت لاول مرة في حرب العراق حتى قاربت قاعدة الجيش التركي في النخيلة وكانت تطلق نيرانها الحامية في اقفية المتراجعين من افراد الجيش والمجاهدين وفي مساء ذلك اليوم شرع الاتراك بالانتقال الى قواعد جديدة في المنتفك لم تصمد ايضا ازاء تقدم البريطانيين وكان ظفر البريطانيين في الناصرية على الفرات ، وفي العمارة على دجلة مفتاحا لاكتساح العراق برمته . وكان امير اللواء سليمان عسكري يعتمد في ميدان الشعيبة على قائد باسل مثله اسمه (حمد بك) عهد اليه بادارة رحى المعركة وقيادة الهجوم في الخطوط الامامية الذي استمر يومين بدون انقطاع وبدون جدوى ايضا فاستدعاه سليمان عسكري من خط النار والحرب دائرة بعنف وسأله عن مصير الهجوم فكان الجواب والشبيبي يسمع ان معاقل العدو في غاية المنعة ومنذ تلك اللحظة قرر القائد العام سليمان عسكري الكف عن مواصلة الهجوم.

---

١ ــ راجع وصف معركة الشعيبة في ديوان الشبيبي ، طبع القاهرة .

وامر تحت جنح الظلام بالتقهقر الى قاعدة الجيش في غابة (البرجسية) الواقعة في ضواحي مدينة (الزبير) والغابة كلها من شجر الاثل والطرفاء .

بعد انتهاء الحرب العامة الاولى

ولما عقدت الهدنة العامة سنة ١٩١٨ اي بعد انتهاء الحرب الكونية الاولى باندحار المانيا وحليفتها تركية وعقب احتلال العراق قام المحتلون بانشاء حكومة قوامها فريق من ضباط الجيش .

ولم يحسب للشعب العراقي حساب في تأليف هذه الحكومة ، ومن ذلك التاريخ شرع العراقيون بمقاومة تلك السلطة الاجنبية وبدأوا يطالبون الانكليز بالجلاء والوفاء بعهودهم التي قطعوها للعرب بشأن حقهم في تقرير المصير . وهذه العهود عبارة عن مراسيم اصدرها في العراق قادة الحلفاء واذاعوها مذيلة بتواقيع رؤساء حكوماتهم بعد تقهقر الاتراك في ميدان الحرب العراقية الى شمال الموصل واحتلال بغداد . وفي هذه المراسيم ما فيها من الاماني المعسولة والمواعيد الخلابة في اسداء العون للعرب في كفاحهم لنيل حريتهم وبعث تراثهم المجيد في الحضارة . والح العراقيون على الانكليز بان تتكون في العراق حكومة مستقلة ذات سيادة . وكان للشبيبي في هذا العهد جهود معروفة في مقاومة دسائس المحتلين والمطالبة بما قطعوه للعرب والعراقيين من عهود ووعود . ولما اضطرت حكومة لندن الى تكليف

نائب الحاكم السياسي العام في العراق السر (ارنولدولسن) باستفتـاء العراقيين . وجه الحاكم العام المذكور بواسطة حكام الاقاليـم من الضباط السياسيين اسئلة معينة الـى اهل العراق في اجتمـاعات كانت تعقـد في مكاتب الحـكام المذكوريـن ويشهدها فريق من الوجوه والزعمـاء وكـان السؤال الاول عـن جنسيـة الحاكم الذي يريدونه والثاني عن شكل الحكم . والثالث عن حدود العراق. فكانت اجوبة العراقييـن مغايرة تماما لرغبة الانكليـز .

طالب الشبيبـي في الاجتمـاع الذي عقد في مدينـة النجف بحكومة دستورية يرأسها ملك عربـي . وعبـر بذلك عـن رغبات احرار العراق علـى صورة اثـارت امتعـاض الحاكم العام فقاطعه في تلك الجلسة ضاربا ـ اي الحاكم ـ بقبضة يده علـى المنضدة ولكن بدون جـدوى والواقع ان اشق ما كان يشق على البريطانيين يومـئـذ هو ذلك الشعور الحـي بالكرامة لدى ابناء العراق الاحرار ولنـا ان نقـول ان جمـلة من الحوادث التـي اريقت فيها الدماء نشأت في العراق عـن خشونة في اللهجة او عجرفة استعماريـة في اللقاء اعتبرها الجانب العراقي جارحـة لكرامته ، ماسة بشرفه وهكذا فان الشعور الحـي بالكرامة ونزعة الاستعماريين المعروفة في الشمـوخ والكبريـاء ضدان لا يجتمعان وما اكثر الشواهد علـى ذلك، فـي احداث العراق خلال فتـرة الاحتلال . ولا حاجة الـى القول بان للشبيبـي مواقفه المعروفة في هذا الدور الخطير من ادوار الكفاح بيـن الشعب العراقـي والسلطـة

المحتلــة خصوصا في بعض المراكز المعروفة كالحلة وكربــلاء والنجف والديوانيــة وبغداد فان الروح الوطنية التـــي بعثت يومئذ كانت قائمة علــى نشاط عدد من العلمــاءورجال الديــن والوجوه والزعمــاء والشباب في المدن والاريــاف المذكورة . وكان هو في طليعتهم . هذا ولما اخذت السلطات الانكليزيــة المحتلة تماطل وتسوف في تلبية مطالب العراقيين والاعتــراف بحقوقهم المشروعة ، وقد اعلنوها وطالبوا بها مرارا خصوصا بعد اجراء الاستفتــاء الذي تقدم ذكره . ولما كان قادة الثورة العربيــة في سورية والحجاز يجهلون ما يجــري داخل العراق من صراع عنيف بين احـــرار البـــلاد والسلطات الانكليزيــة . وكان من الضــروري اعــلام زعمــاء العرب خارج العراق بحقيقة الحال هناك — فكر صاحب الترجمــة بأن يقوم بهذه المهمة . وفاتـــح بذلك فريقا من اصدقائه وزمــلائه العامليــن من علمــاء ورؤساء وغيرهم من الشباب الناهض واقنعهم بضرورة تنفيذ هذه الفكــرة فوافقوا علــى رأيه .

رحلتــه الوطنيــة

ومن ثم قام برحلته الــى البلاد العربية منتدبا عــن العراقيين لدى الحكومتيــن العربيتيــن في مكة المكــرمــة ودمشق الشام اذ ذاك . وزود بوثائق مذيلة بتواقيـــع زعمــاء البلاد وعلمائها وقادة الرأي العام فيها تضمنـــت انتدابــه ليمثل العراق لدى الحكومتين المذكورتين وابلاغهما رغائب العراقيين وايقافهم علــى الاحوال الجــارية في

العراق . وقد بارح العراق في اواخر سنة ١٩١٩ الــى مكة المكرمة سالكا طريق البادية من البصرة الــى (جبل شمر) في الديار النجدية فالمدينة المنورة . ومن المدينة الى مكة .

وقد قاســـى الامريـــن في هذه الرحلة الشاقة وصحب قافلة من البدو المسلحيـــن واجتمع فور وصوله الــى مكة بشريفها الحسيـــن بـــن علـــي ملك العرب اذ ذاك وبانجاله الامراء ومنهم (علـــي) و (عبد الله) في مكة المكرمة وهـــذا هو ثانـــي اجتمـــاعله بهم اما الاجتمـــاع الاول فقد كان في الوادي الذي يسمـــى (وادي فاطمة) علـــى قيد مرحلـــة من مكـــة في مخيـــم لهم هنـــاك وكان الجميـــع بلـــبـــاس الاحرام ، ولا يخلو وادي فاطمة من خصب وفيه بساتيـــن يرويها جدول صغير ينحدر الــى الوادي في شبه قـــناة او صهريج من الطائف .

فـــي الحجـــاز

واستقبله الملـــك حسيـــن في قصر الامارة بمكـــة وخلا به حيث قدم له ما معه من الوثائق . وتحـــدث اليـــه واطلعـــه علـــى حقيـــقة الاحوال في العـــــراق ، وان العراقييـــن يعانـــون كثيرا من الضيم والارهاق تحت ادارة الاحتـــلال . ويطالبون اشد المطالبة بالحرية والاستقـــلال وانهم مستعدون لحمل السلاح واعلان الثورة والتضحيـــة في هذا السبيـــل بنفوسهم ونفائسهم كمـــا وقع ذلك فعلا . وقد طلب الشبيبـــي الــى الملك حسين ان يبذل جهـــده في سبيـــل تحقيـــق مطالب الشعب العراقـــي ، وتكليف رسله

وممثليه في مؤتمر الصلح الذي كان ملتئما في باريس بذلك. وكان (فيصل) يعاونه شباب اكفاء من السوريين وغيرهم يمثل والده في المؤتمر المذكور ، فما كان من الملك حسين الا ان اعلم فيصلا بالوضع الراهن في البلاد العراقية وبان يدافع عن حقوق العراق في مؤتمر الصلح استنادا الى تلك الوثائق التي تسلمها من الشبيبي في مكة المكرمة وقد ادعى بعضهم انها لم تصل اليه والواقع انها وصلت كما اخبره بذلك فيصل نفسه في الشام . ثم ان الملك حسين كتب بهذا المعنى رسائل اجاب بها العراقيين من علماء وزعماء واعلمهم بتسلم الرسائل والوثائق التي حملها الشبيبي ووعدهم وعدا قاطعا في كتبه بانه مستعد للتضحية بنفسه وعرشه في سبيل استقلال العراق بحدوده المعلومة . وقد وفى الحسين بوعده فانه توفي بعد ان اخرج من مكة واضطر للتنازل عن عرشه بسبب صلابته وثباته وهو الان يرقد في مثواه بفلسطين تغمده الله بالرحمة . وقد وصلت رسائل الملك حسين هذه الى كافة من كاتبه من قادة الثورة في العراق حملها اليهم حجاج عراقيون بناء على طلب الشبيبي . وبعد ان اقام الشبيبي مدة لا تقل عن ٤٠ يوما في مكة بارحها الى المدينة المنورة ومنها استقل القطار وكان بحالة يرثى لها من الخراب بعد الثورة وذلك الى حدود الشام . فلا جسر ولا مرافق اخرى ولا مستخدمين حتى ان رحلة القطار بين المدينة ودمشق استغرقت خمسة وعشرين يوما وهي لا تستغرق في العادة اكثر من ثلاثة ايام . هذا ولبعض الضباط البريطانيين فيما يقال ضلع في ذلك الدمار .

في دمشق

وفي دمشق اجتمع بالملك فيصل بعد عودته من لندن وبقادة الحركة العربية من عراقيين وسوريين وفلسطينيين وغيرهم وتأكد لديه منهم وصول تلك الوثائق العراقية . وهكذا مثل العراق في عدة جمعيات ومؤتمرات من اشهرها المؤتمر العراقي الذي التأم في الشام سنة ١٩٢٠ونادى — اي المؤتمر — على رؤوس الاشهاد باستقلال العراق استقلالا تاما على ان تقوم فيه حكومة دستورية . وتوجد وثيقة هذا المؤتمر مذيلة بتوقيع اعضائه من العراقيين المقيمين في سورية يومئذ ومنها توقيع الشبيبي ، هذا وقد اقيمت في دمشق وغيرها من الحواضر السورية كبيروت وصيدا في ذلك الحين حفلات تكريمية له . وقد انتهز فرصة وجوده في سورية فراح يدافع عن حقوق العراق ، وله في هذا المضمار مقالات وقصائد معروفة نشر منها في الصحف والمجلات الصادرة في دمشق وفي بيروت وصيدا في ذلك الحين ثم في ديوانه المطبوع . هذا ولا بد لنا من القول ان الشبيبي كان طول مكثه في الديار السورية يراقب تطور الوقائع والاحوال في الدولة المذكورة ، وقد تجلت في ذلك الحين نوايا الحلفاء وبيتوا غدرهم بالعرب وان البلاد العربية التي كانت تابعة للدولة العثمانية قسمت الى (مناطق نفوذ) بين انكلتره وفرنسا ، فكانت البلاد السورية من نصيب فرنسا ، ولذلك غادرها الانكليز الى فلسطين .

غدر الحلفـــاء

فوجهت فرنسا انذارا نهائيا الـــى الملك فيصل بالنزول علـــى مطالب الحكومة الفرنسيـــة المنتدبة من قبل عصبة الامم علـــى سورية ، وكانت الحكومة تميـــل الـــى الدخول في المفاوضات مع الفرنسيين اما الشعب السوري فقد هاج وماج وثارت ثائرة السوريين وتوالت المظاهرات في دمشـــق كمـــا شهدها المترجـــم بنفسه في احياء دمشق وجـــاءت الجمـــوع الـــى قصر الملك فيصل في حـــي (المهاجريـــن) و (الصالحيـــة) تطالب وتهتف بحيـــاة العرب ورفـــض الانتداب والمطالب الفرنسيـــة . ولما لم تتلق الحكومـــة الفرنسيـــة جوابا من حكومة دمشق امرت جيوشها المرابطة في لبنـــان بالزحف فزحفت بقيادة الجنرال (غورو) واجتازت حدود المملكـــة ووقعت الواقعة المعروفة بيـــن السوريين والفرنسيين .

وقعـــة ميسلـــون

وكانت قيادة الجيش السوري للبطل (يوسف العظمة) وقد قتل في واقعـــة (ميسلون) وشاهد الشبيبي وقلبه يتفطر الما نكوص المجاهديـــن من ابناء الشام واندحارهم في الواقعة المذكورة كمـــا شاهد دخول الجنرال غورو الـــى مدينـــة دمشق دخول الظافر الفاتح فاخترق الشوارع الـــى ســـوق الحميدية فالجامع الاموي ومنه اتجه الى مقبرة (صـــلاح الديـــن) علـــى شكل يشعر بضرب من التشفـــي والانتقام . ولا بد لنا من القول ان سلطات دمشق كانت كمـــا يقـــول

الشبيبـــي قد عرضت قيادة الجيش العامة في ساعة المحنة على بعض الضباط العراقيين المعروفين فاعتذروا بعد قيامهم بالكشف على وحدات ذلك الجيش وتفتيش الثكنات قائليـــن ان جيش دمشق او ما يسمـــى كذلك في ذلك الحيـــن لا يعول عليه ولا يعتقد به كمـــا وكيفا كما تحدث الـــى الشبيبـــي بذلك (ياسين الهاشمي) وهو اي الهاشمي ممن عـــرضت عليـــه رياسة (ديوان شورى الحرب) فاعتذر بعد جولة قام بها في المعسكرات والثكنات واجتمـــع على اثرها بالشبيبـــي في منزله بصالحية دمشق واعرب له عن رأيه بكفاءة ذلـــك الجيش ، ومن ثم ركـــن الـــى العزلة ، وكانت عزلة هـــذا العسكري العراقـــي المعروف سببا في مجاملة الفرنسيين المحتليـــن له ، وهناك اسباب اخرى لهذه المجاملة ومنها ان (ياسين الهاشمي) كان يكن ضربا من الولاء للاتراك خلافا لغيره من الضباط العراقيين الذيـــن شاركوا في ثورة العرب عليـــهم بزعامة الملك حسيـــن وانجاله ، وفي هذا الصـــدد يقول الشبيبـــي : كنا نلاحظ انزعاج الانكليز من اسناد بعض المناصب اذا اسندت اليه اي الهاشمي ياسين . والخلاصة كان (ياسين) يتردد على الشبيبي في منزله (بالصالحيـــة) وكانا متجاوريـــن في تلك الضاحية وما اكثر عدد الذين كانوا يترددون علـــى الشبيبـــي في ذلك المنزل من ابناء دمشـــق ولبنـــان والعراق وغيرهم(١) .

---

١ ــ ومن وحـــي هذه الاحداث نظم قصيدته (دمشق وبغـــداد) المنشورة في ديـــوانـــه .

عوده مــن الشــام

هذا وقد آثر العودة من دمشق الــى الوطن فــور الاحتــلال الفرنســي وذلك قبل غيره من ابناء العــراق وبعد ان مكث في ارجاء الشام مدة سنة كاملة ، وفي هــذا الصدد يقول : (رغب الــي (ياسين) وهو يودعنــي ان لا تنقطــع المراسلة بيننا واتفقنــا علــى استخدام ضرب مــن الاشارات الرمزية في الكتابة في محاولة لكتمــان الاسرار عن علم السلطات المحتلة الغاشمة وسماسرتها في العــراق والشــام) .

ولم تطل اقامة الشبيبــي بعد ذلك في سورية فبارح دمشق في خريف سنة ١٩٢٠ عائدا الــى العراق بطريــق البادية علــى ظهور الجمال(١) ، وقد قطعوا المسافة بيــن دمشق وبغداد في خمسة وعشريــن يوما ووصل بغــداد مع رفيق له من الضباط العراقيين متنكريــن ووجد كثيرا من اصدقائه مبعديــن الــى خارج العراق او معتقليــن داخل البلاد ، او مشرديــن . ولما اطمأن في بغداد اتصل باهله واخوانه واجتمــع بكثير من قادة الرأي ورجال الاحــزاب والجمعيــات السياسيــة .

في العــراق

هذا وفي هذه الفتــرة الصاخبة من تاريخ البــلاد ظهر للجميــع ان الانكليــز لم يجدوا بدا من انهاء عهد الاحتلال. والموافقة على قيام دولة مستقلة ذات سيادة وفقا لما تقرر في

---

١ ــ في وصف هذه الرحلة كتب رسالة تعتبر من اطرف ما كتب في الرحلات

مؤتمـر القاهـرة الذي عقـد سنة ١٩٢١ حيث مـثل شرشل وغيره من البريطانيين الحكومة الانكليزية ومثـل العراق كل من السر ساسون حسقيل والسيد جعفـر العسكري ، وفي صيف السنة المذكورة وصل فيصل وحاشيته ومن جملتهم رستم حيدر علـى باخرة انكليزية اقلعت بهم من جدة الـى البصرة . ومنها توجهوا علـى السكـة الحديد فمروا في طريقهم بالديوانية والحلة وكربلاء الـى النجـف وارياف الفرات وهـي قلب العراق النابض وعرين الابطـال الاشاوس الذيـن اذاقوا قوى المحتليـن في الرارنجية والرميثة والشامية وابـي صخير وغيرهما مـا اذاقـوه ، وضحوا بارواحهم وجميـع ما ملكت ايديهم في سبيـل حرية البلاد وكرامتها ، وكان لفيصل باعتباره ثائرا عربيا استقبال باهـر يعجز التعبير عن وصفه في تلك المدن المجاهدة ، وقوبل بمظاهرات ترحيبية كبيرة وخطب ثوريـة بليغـة كمـا انه القـى عدة خطب في تلك المناسبات ،وكان الشبيبـي يجتمـع بفيصل وصحبه طول مدة اقامتـه فـي تلـك الجهات وخصوصا في النجف وبغداد بعد وصولـه اليها ولا يضـن عليـهم بالنصح ومواجهتهم بالواقع ، ولمـا نودي بفيصل ملكا علـى العراق في تلك السنة كان يستدعيه ويستشيره في الامور المهمة ، وقد رشـح لاشغال بعـض المناصـب العليـا في اوائل ايام العهد الفيصلـي ولكنـه كان يعتـذر ويفضل الانقطاع للدراسة والتأليف الـى ان كانت سنة ١٩٢٤ وفيها عهد الـى ياسين الهاشمـي بتأليف وزراته الاولـى فابرق اليه وهو مقيم في النجف قائلا

انه يسره التعاون معه وان يشغل منصب وزارة المعارف في الوزارة الهاشمية .

في مناصب الدولة

فتردد كثيرا في قبول الوزارة ولكن الحاح اصدقائه في بغداد والنجف اضطره الى القبول فاشغل منصب هذه الوزارة فترة لا تزيد على سبعة اشهر ، ولما عرضت اتفاقية النفط على مجلس الوزراء وكانت من الاتفاقيات المجحفة بحقوق العراق اقترح تعديل بعض بنود الاتفاقية على اساس يكفل للعراق في زيادة العوائد المالية فلم يجد من يعضده . وفي جلسة خاصة بينه وبين الهاشمي سأله عن موقفه الاخير من الموضوع فقال الهاشمي ان ابرام هذه الاتفاقية من واجب وزارته . وعلى اثر ذلك غادر الجلسة وذهب الى مكتبه في ديوان الوزارة وبعث بكتابه الذي يستقيل فيه من الوزارة لانه يرى ان الاتفاقية مجحفة بمصالح العراق . وقد تقلد الشبيبي منصب وزارة المعارف خمس مرات وان لم تكن مدة الاستيزار طويلة فيها ففي سنة ١٩٢٤ تقلدها كما قلنا اول مرة ، وتقلدها مرة ثانية سنة ١٩٣٥ وثالثا سنة ١٩٣٨ ورابعا سنة ١٩٤١ وخامسا سنة ١٩٤٨ واختير سنة ١٩٣٥ عضوا في مجلس الاعيان وانتخبه هذا المجلس رئيسا له سنة ١٩٣٧ وقد رشح في الانتخابات النيابية فكان عضوا في المجلس النيابي غير مرة وانتخب رئيسا للمجلس النيابي سنة ١٩٤٣ وامضى سنة في الرياسة ثم اعيد انتخابه لرئاسة المجلس المذكور

سنة ١٩٤٤ ولكنه استقال قبل انتهاء السنة بسبب دسائس استعمارية معروفة دبرت بليل .

هذا ومن يمعن النظر في سيرته الرسمية او السياسية منذ ان نشأت الدولة العراقية سنة ١٩٢١ الى اخر حياته تبدو له ظاهرة نادرة وهي ان تلك السيرة امتازت بكثرة الاستقالات والتخلي عن المناصب العليا التي تقلدها فقد استقال مرتين من منصب وزارة المعارف : المرة الاولى سنة ١٩٢٥ والمرة الثانية سنة ١٩٣٥ وذلك بسبب اختلاف وجهات النظر في تخطيط سياسة التعليم وفي تنظيم شؤون المصلحة واختيار الموظفين واستقال ايضا من رئاسة المجمع العلمي العراقي وعضويته سنة ١٩٤٨ واستقال من رياسة لجنة الترجمة والتأليف والنشر ومن عضويتها سنة ١٩٤٦ واستقال من عضوية مجلس النواب في اواخر سنة ١٩٥٠ مع من استقال من النواب وعددهم خمسة وثلاثون نائبا بسبب محاولة حاول بها بعض المرتزقة مس كرامة المعارضين في المجلس .وكان لهذه الحادثة اثرها البالغ في الخارج والداخل على حد سواء. وهذه كما قلنا ظاهرة نادرة اذا ما استطلعنا اسرارها تبين لنا أنه كان محاطا بشبكة من دسائس المستعمرين وأذنابهم ، فكان لا يقر لهم قرار اذا تقلد او أشغل منصبا عاليا من مناصب الدولة لان الاذناب ومطايا الاستعمار اعداء الخدمة الصحيحة واكبر خصوم للاصلاح ، وهما كما لا يخفى غايته القصوى من تقلد وظائف الدولة في جميع الاحوال .

وكانت آخر استقالة له ، استقالته من رئاسة المجمع العلمي العراقي قبيل وفاته .

في المناصب العلمية

وانتخب الشبيبي في كثير من المؤسسات والمجامع العلمية واللغوية داخل العراق وخارجه . فهو عضو نادي القلم العراقي(١) ورئيسه نحوا من عشرين سنة ورئيس المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٤٨ الى ان تخلى عن رئاسته لاسباب معروفة . وقد منح درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة القاهرة تقديرا لبحوثه في الادب والتاريخ وانتخب عضوا في المجمع العلمي العربي في الشام سنة ١٩٢٣ كما انتخب عضوا عاملا في مجمع اللغة العربية في القاهرة وذلك في اواخر سنة ١٩٤٧ وبارح العراق الى القاهرة واشترك لاول مرة في المؤتمر اللغوي الذي عقد في اول سنة ١٩٤٨ . واقيمت له حفلات في القاهرة منها حفلة استقباله في المجمع اللغوي ، وللاستاذ عباس محمود العقاد في هذه المناسبة خطبة معروفة كما ان

---

١ - انشىء هذا النادي - نادي القلم العراقي - ببغداد سنة ١٩٣٤ وقد نصت المادة الثانية من نظامه الاساسي على ما يلي : (تعارف المؤلفين وحملة الاقلام واحكام الروابط بينهم وتعزيز الادب العربي، وتعضيد البحث وايجاد الصلات بين حملة الاقلام في العراق وامثالهم في البلاد العربية . وقد انتمى الى النادي اشهر حملة الاقلام والصحفيين في ذلك التاريخ وواظب اعضاؤه على عقد جلساتهم والقاء البحوث والمحاضرات وقد احتفل اكثر من مرة بضيوف العراق من ادباء الاقطار العربية وتالفت من بحوث اعضائه ومحاضراتهم اكثر من مرة مجموعة نشرت منها المجموعة الاولى سنة ١٩٣٨ بعنوان (مجموعة نادي القلم العراقي) . وقد اعتبر النادي كغيره معطلا بموجب مرسوم تعطيل الاحزاب والنوادي والجمعيات الصادر سنة ١٩٥٨ ولم يتقدم احد من اعضائه بطلب لاستئناف نشاط النادي منذ ذلك الحين .

للشبيبي خطبة فيها ايضا ، ومن المحاضرات التي القاها في المؤتمر اللغوي محاضرة موضوعها (النهضة الادبية الحديثة في العراق) وقد لخصتها بعض الصحف المصرية وعلقت عليها . واقامت له كلية دار العلوم المصرية حفلة استقبله فيها الاستاذ ابراهيم مصطفى بخطاب ضاف والقى فيها محاضرة عنوانها (اقدم مخطوط وصل الينا في وصف جزيرة العرب) وكان لها وقع بالغ في نفوس الحاضرين . وفي هذه الحفلة القيت قصائد وخطب ترحيبية .

وهكذا لم يتخلف عن شهود دورة من دورات مجمع اللغة العربية منذ انتخابه عضوا فيه الا مرة واحدة . ولما الغي المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٦٣ وخلفه المجمع الجديد انتخب عضوا فيه ورئيسا له ولوحظ ان المجمع اخذ يجتاز بعهد رئاسته مرحلة من مراحل النشاط والاضطلاع باعباء المهام المطلوبة منه ، وقد اخرج جزءا جديدا حافلا بالبحوث من مجلته الخاصة . وظل في رئاسته الى ان استقال منها قبل وفاته بأيام . وقبل انتقاله الى جوار ربه كان يشارك في احتفالات الاسراء في المسجد الاقصى ، وفي عودته استقبل في بغداد استقبالا يعز نظيره . وكان هذا الاحتفاء آخر احتفاء يقدمه له الشعب في حياته اذ قضى نحبه في نفس الليلة التي عاد فيها وذلك ببغداد في الثالث من شعبان ١٣٨٥ في السادس والعشرين من تشرين الثاني ١٩٦٥ .

الهجرة العربية الى الشرق الاقصى

هجرة مجهولة من العرب وادبها مجهول منهم

اشتهر الادب المهجري اللبناني اشتهارا بعيدا ودوى في تاريخنا الادبي دويا شديدا . ونبغ فيه متفوقون سواء في الشعر او النثر سيظلون ابدا من انصع الكواكب في آفاقنا الادبية قديما وحديثا . وحسبنا ان نعد منهم في الشعر : الشاعر القروي والياس فرحات وايليا ابو ماضي ، وفي النثر جبران وامين الريحاني .

والشعر المهجري اللبناني لا يحتاج الى تعريف ولا تنقصه الشهرة وبعد الصيت ولكن هناك ادبا مهجريا عربيا آخر حمله فريق من مهاجري العرب الى منائيهم البعيدة ومهاجرهم القصية لم يكتب له من الذيوع والانتشار جزء مما كتب للادب اللبناني . بل يمكن ان نقول انه لم يعرف اصلا في اوساط العرب وديارهم ولم يقرأ في نواديهم ومعاهدهم اذا استثنينا قلة قليلة ، بل افرادا معينين وقعوا على هذا الادب صدفة او لظرف معين ومناسبة محدودة .

هذا الادب هو ادب الهجرة الحضرمية(١) من جنوبي الجزيرة العربيـــة الـــى الجزر الاندونيسية وغيرها من بلاد الشرق الاقصى ، واذا كانت الهجرة اللبنانية الى الامريكيتين هجـــرة جارفة حمـــلت عشرات الالوف من مدارج صباهم ومنابت اصولهم الـــى بلاد العالم الجديد سعيا وراء الرزق

---

١ ـــ قال رياض الريس يصف بعض مناطق حضرموت حيـــن زارها فـــي الستينات : وادي حضرموت يمتد كنهر كبير بين ضفتين مـــن الجبـــال العالية المتقاربة . وسيؤون (بفتح السين) تقبـــع في وسطه كمدينة اهملت التاريخ فتناساها . والـــى الجنوب منها تريم والـــى الشمال شيبام كانهما خرافيتان وسط لا شـــيء الا واحات كبيرة من النخيل وناطحات سحاب عالية مـــن الطيـــن .

كل ما في غراف (بضم الغيـــن) القرية الصغيرة التـــي تقع في منتصف الطريق تماما بيـــن سيؤون وتريم ، يوحـــي بالوهم ، وتحس بعزلة محببـــة عـــن الواقـــع ، فليس فيها ما يربطك بالعالم الذي نعرفـــه .

وتحمـــلك سيـــارة اللاندروفر عبر الوادي الاخضر المفتوح علـــى نهر جف منذ ما يزيد علـــى قرن . والنخيل هو الخضرة الدائمة ، والطريـــق بغراف ، القرية الصغيرة ذات الكهوف الطينية والبيوت الواطئة القليلة . وتدخل سيؤون عبر ممر من اشجار النخيل وكانك في حلم سينمـــائـــي افتعلته هوليود وتلمع القباب البيضاء ، وتبدو سيؤون من بعيد واحة من الالوان : البيوت خضراء وحمـــراء وبيضاء ، وزرقاء ، كلها زاهـــيـــة . الشوارع ترابيـــة مرصوفة ونظيفـــة ، والناس كانها لا تعمل الا في البناء والزراعة . كل شيء في سيؤون من الطين والالوان . لا حجر ولا اسمنت . الشوارع فسيحـــة ترابيـــة ونظيفة . والنظافة تلفت النظر في كل مكـــان وخاصـــة القادم من اليمـــن وعدن . فالهندسة صناعة محليـــة تكاد تكون اهم ما يميز حضرموت عـــن الجزيرة العربيـــة كلها . والزراعة هـــي الذرة والخضر ، هـــي مهنة الحضارمة المقيميـــن الذيـــن لم يسعدهم الحظ بركوب البحـــر الـــى ابعد .

وتتطلع الـــى اعلـــى لتـــرى البيوت الطينية ترتفع الى عشر طبقات او اكثر ، وتمتد كقصور من الف ليلة وليلة ، حولها حدائق خضراء وماء وفيها الـــوان والـــوان .

وطلبـــا للثروة ، فكذلك كانت الهجرة الحضرمية من الارض الجديبة والوطـــن الفقير الـــى عالم التجارة والغنـــى والاخـــذ والعطـــاء .

واذا كانت الهجرة الاولى قد انتجت ادبا مهجريا كثيرا، فكذلك كانت الهجرة الثانيـــة. ولكن الفرق بين الهجرتيـــن العربيتـــن ان الاولـــى كتبت لها الشهرة وطول الذكر وارخت في كثير من الموارد والمصادر ، بينمـــا لم يكتب للثانية شـــيء من هذا ، ولم تعرف ابدا ولم يشر اليها بحال من الاحوال شأنها في ذلك شأن ادبهـــا .

ولعلنافي هذه الكلمة نستطيـــع ان نرفع الستـــار عن بعض جوانب الهجـــرة الحضرمية ونزيل الحجاب عـــن شيء من نواحـــي ادبها فاتحيـــن بذلك الباب امام الباحثيـــن لا سيمـــا ممن عانوا تلك الهجرة وتحملوا اعباءها او بالاحرى من ابنائهم واحفادهم .

الهجـــرة الاولـــى

علـــى انه لا بد لنا من القول ان الهجرة العربيـــة الى اندونيسيا والشرق الاقصـــى كله ذات شقيـــن او ذات عهديـــن متباعديـــن ، هجرة بعيـــدة تعود الـــى تاريخ بعيد يصل الـــى العهـــد العباســـي حيث هاجـــر فريق مـــن العلويين طلبا للسلامة والامان فحل بعض احفاد علـــي العريضـــي بـــن الامام جعفـــر الصادق في جنوب الجزيرة العربيـــة اولا ثم امتدوا منها حتى وصلوا الى الهند والصين وملايا واندونيسيا والفليبيـــن وجزائر سليمـــان . وفـــي

الطليعة من هؤلاء كان احمد بن عيسى بن محمد بن علي ابن الامام جعفر الصادق ، هذا الذي رحل من العراق العام ٣١٣ وما زال يمضي حتى استقر في جنوب الجزيرة العربية . وربما لان هذا الرجل كان فاتح باب الهجرة ، عرف في التاريخ باسم احمد بن عيسى المهاجر . واذا كان احمد هذا قد استقر في الجنوب العربي فان احفاده هم الذين انتشروا بعد ذلك في كل مكان من الشرق الاقصى حاملين معهم الاسلام ينشرونه حيث حلوا . .

قال : المقريزي في الخطط (ج ١ ص ١٦) : « في جانب هذا البحر الشرقي مما يلي الصين ست جزائر ايضا تعرف بجزائر السبلي نزلها بعض العلويين في اول الاسلام خوفا على انفسهم من القتل » .

وقال المؤرخ الاندونيسي محمد تميم ابراهيم استاذ الدراسات الاسلامية والتاريخ الاسلامي في جامعة جاكرتا من محاضرة له : « ان اول مملكة اسلامية هنا يرئسها شخص يلقب بلقب شيخ كانت بايدي العرب من الهاشميين » .

وقد ذكر هجرات العلويين الى جزر الشرق الاقصى كل من المستشرقين الهولنديين « فن دين بيرخ ، وفرين ميس » في كتاب تاريخ البلدان الجاوية « سيجارة تانه جاوا » و «بيخمان» وكذلك نور الدين محمود عوفي . يقول فن دن بيرخ في كتابه (حضرموت والمستوطنات العربية في الجزائر الهندية) الصادر باللغة الفرنسية : « ان نجاح الدعوة الاسلامية في جاوا كان لان الدعاة كانوا من ذرية النبي .

ويقول نور الدين عوفي عن انتشار الاسلام في الصين : ان الاشراف العلويين هربوا الـى بلاد الصيـن ونـشروا الاسـلام فيهـا .

ويذكر محمـد تميـن في محاضرته التـي القاها فـي الندوة التاريخية في ميدان سومطرا الشمالية : ان الاشراف العلويين انتشروا في كامبودجا والصيـن وسيام وغيرها ، وان من الواصليـن الـى كامبودجا الحسيـن الملقب بجمال الديـن الاكبر . وانه كان للحسين هذا ولـدان ، احدهمـا ابراهيم ، وتقول الروايات الجاويـة ان ابراهيم وصـل مـع ابيـه الحسيـن الـى سيـام وجـاوا وتزوج اميـرة من جامبا اسمها باداو ولاق فولدت له ولديـن عليـا واسحاق كانا من انجح العاملين علـى نشر الاسلام، وان اعظم نجاح لاسحاق كان في بانيو وانغـي .

ووصل العلويون الـى الفلبيـن فاستوطنوها ونشروا فيها الاسلام ثم اقاموا فيها ملكا واستمر حكم العلويين فيها حتـى سنة ٨٨٥هـ (١٤٦٥م) وقيل الـى سنة ١٥٢١ حين هاجم الاسبان المسلميـن وفشل السلطان عبد القاهر في صـد هجومهم . وفي تاريخ الفلبيـن ذكر مجيء الشريـف اوليـاء بسفينـة طافت في تلك الجزر لنشر الاسلام . وجاء في كتاب (دراسات عـن المسلميـن المورو وتاريخهـم) المطبوع بمـانيلا سنة ١٩٠٥ ان مجيء الاسلام الفلبيـن كان بواسطة شريف عـلوي اسمه حسن بـن علـي من ذرية احمـد بـن عيسـى المهاجر . وقد عمل هـذا العلوي علـى نشر الاسلام اول الامر في جزائر (يوايـان)

الفليبينية فاسلم ملكها علـى يديه وانتشر الاسلام في (ميندانا ومافينيدانا وسبيو وسولو وكونا بارو وتمبارا وليبونفـان باكمبايان) .

وجاء في ذلك الكتاب أن هؤلاء العلويين كانوا اول مـن علم الاهليـن هنـاك الكتابة العربيـة .

ولا تزال المقابـر الاندونيسية تضم حتـى اليوم قبور احفاد اولئك الرواد الاوائل وقبور احفاد احفادهم ، ولا تزال تلـك الاجداث محجة للزائرين من كل مكان . ويمكـن ان نعـد منهم كـلا من مولانا ابراهيم المدفون في مدينـة قرسيء بجاوا ومولانا حسـن الديـن المدفون في مدينـة يانتـن بجاوا الشرقيـة ومولانا هداية الله المدفون في مدينة شربون بجاوا الشرقيـة ، وهو ابـن عبد اله المتوفـى في كامبودجا بالهند الصينية . ومولانا زيـن العابديـن المتوفـى بمدينة دماك بجاوا الوسطـى ومولانا رحمة الله المتوفـى بمدينة دماك بجاوا الوسطـى ومولانا رحمة الله الملقب بعيـن اليقيـن المتـوفى في مدينة قرسـيء بجاوا وكل هـؤلاء ينتهـي نسبهم الـى احمـد بـن عيسـى المهاجر . هذا المهاجر الذيـن نحسب انه اول من حمـل هذا اللقب في العالم العربـي كله .

علـى انه يبدو من بعض النصوص ان استقرار هؤلاء العلويين في الجزر الاندونيسية وشهرة مقامهم فيها قد حملت بعض الخائفيـن علـى التوجه اليها والحلول بين تلـك الجاليـات التـي تناسلت وتكاثرت ، وانه كان بين مـن نزحوا اليـها احد احفاد الخلفاء العباسيين المسمى عبدالله

والذي نجا بنفسه فرارا من مذابح المغول بعد سقوط بغداد على يدي هولاكو .

ومهما يكن من شيء فأن هذه الهجرة العربية الكبيرة قد انطوت في غمار التاريخ ولم تترك لنا من اثر سوى انها كانت من اكبر العوامل في نشر الاسلام في تلك الاقاصي وحسبه من اثر . وقد ذابت تلك الاصول العربية في المجتمع الاندونيسي وغير الاندونيسي من المجتمعات المهجرية التي عاشت فيها وغابت ملامحها غيبة كاملة وعادت اندونيسية خالصة حتى في اسماء الاعلام ، وان ظل بعض رجالها يسلسل اباءه مبتدئا باسمه الاندونيسي واسم ابيه وجده وهكذا حيث يعود الى الاسماء العربية . فهناك مثلا : ابوكو سنو حوكر وسويو سو الذي ينتمي الى آل عظمه خان الى ان تنتهي السلسلة الى علي بن عبدالله بن احمد بن عيسى المهاجر (١).

الهجرة الاخيرة

ان تلك الهجرة لا تعنينا في بحثنا هذا وليست هي

---

١ – يمكن ان نعد من المهاجرين حسين بن احمد بن عبدالله بن عبد الملك بن علوي بن محمد صاحب مرباط بن علي بن علوي بن عبيد الله بن احمد المهاجر الذي وصل مع اولاده العام ٧٥٠هـ ، وحسين ابن احمد هذا هو المعروف من سلالة آل عظمه خان .

وكذلك جاء بعده محمد بن عيد آل عيديد المتوفى سنة ٩١٩ هـ الذي وصل اولاده اجيه في اندونيسيا . واما محمد بن عبد القادر آل عيديد المتوفى عام ١٠٥٠هـ فان عقبه الذين وصلوا الى اندونيسيا موجودون الى الان في مدينة (كوبان) بجاوا الشرقية .

المقصودة بهذه الكلمات . بل ان المقصود هو الهجرة الاخيرة التـي انتجت الادب العربـي المهجري الشرقـي في مقابل الادب العربـي المهجري الغربـي .

وليس بيـن ايدينا ما يحدد لنا التاريخ الذي بـدأت فيه هذه الهجرة من الجنوب العربي الـى جنوب آسيا(١)، تحديدا دقيقا ، ولكننا نستطيـع القول استنادا الـى بعـض

---

١ ــ حديثنا هنا عـن هذه الهجرة وحدها ، والا فان هجرة الحضارمة كانـت الـى شتـى البلاد وفي زيارة لرياض الريس الـى حضرموت فـي الستينـات جـرى بينـه وبين احد كبار المسؤولين حوار جاء فيـه :

ــ ما هـي المشكلة التي تشغل بالك حاليا ؟ وقال مجيبا : مشكلة اللاجئيـن الحضارمة الذيـن وفدوا الـى المكلا من افريقيا . عددهم يفوق العشرة آلاف ، من العمال والبحارة والفقراء .فالعمل قليل عندنا ،والامكانات ضعيفة ، والارض ليس عندها من الغنـى ما يسمح لها باحتضان الجميع . انهم الحضارمة الذيـن ذهبت بهم الرياح في الاتجاه الخطأ . فرست سفنهم علـى شواطـىء افريقيـا ، بدل أن ترسو على شواطىء جنوب شرق آسيا فكان الفقر في افريقيا والغنـى في آسيـا .

ويكمل رياض الريس حديثه وهو يصف بلاد حضرموت متحدثا عن المكلا:

وخرجت الـى شوارع المكلا التـي تعج بالناس اسأل عـن مكتبة تبيع الصحف . فدلونـي علـى واحدة وجدت فيها كل مجلة تصدر في العـالـم العربي وكل كتاب لمؤلف لم اسمع به من قبل . ووجدتها اكثر الامكنة عملا في المكلا .صحفالعالم كله فيها ، من اندونيسيا وهونغ كونـغ الـى بيروت . ولما عرف صاحب المكتبة اننـي من لبنان ، ابتسم وقال : « نحن شعـب نقرأ بنهم،ونستمع الـى الراديو بنهم اكبر ، لان هناك حضرميا في كل بقعة ، مثلكم ايها اللبنانيـون ، بل ربما اكثر ، لاننا نحـن ما زلنا علـى صلةبهم»

وعلى الشاطـىء الرملـي كانت ثلة من الجنود الحفاة تاخذ التحية لمركب شراعـي كبير عليه عدد كبير من الناس يبحـر الـى ارض جديدة ــ اذا بقـي في العالم ثمة أرض ــ ليلقـي عليها حمولته ، فاما ان تثمر ، واما تعودبمراكبغارقةصغيرة الـى شاطـىء الصدف والاسماك والرمال ،فتلقي شباكها في فقـر بيوت الطيـن . ويكون التاريخ قد اوقف المد ومزق الشراع.

المصادر ان اول فوج من المهاجرين الحضارمة خرج من موطنه ، كان خروجه في اواسط القرن الثاني عشر الهجري . بل نستطيع ان نقول ان ذلك كان في حدود سنة ١١٥٠ هـ وكان هذا الفوج مؤلفا من اربعة مغامرين هم : حسين القدري الملقب بالحسني وعثمان بحسن ومحمد احمد القدسي ومحمد بن حامد . وكان الدافع الاول لهم للهجرة هو السعي وراء العيش الكريم وبلغ النجاح ببعضهم ان تزوجوا بالاميرات بنات السلاطين الاندونيسيين وكان المغري الوحيد بهذا الزواج ان المهاجرين كانوا من سلالة الرسول ، فرأى السلاطين في تزويج بناتهم من هؤلاء الغرباء العلويين شرفا لهم . ثم تطور الامر بعد ذلك فاذا ببعض ابناء المهاجرين واحفادهم يتولى الملك بنفسه لان السلاطين رأوا في الاسباط المتصلين بالنسب النبوي ما يفضلون به الاحفاد غير المتصلين بهذا النسب . وهكذا نجد ان من بين سلاطين سياك وفونتيانك وغيرهما من هم من الاشراف العلويين ابناء واحفاد اولئك المهاجرين .

على ان هذا التزاوج قد ادى الى ذوبان اعقاب المهاجرين في الوسط الاندونيسي فلم يعودوا يعرفون بالطابع العربي ولا باسم الاسرة العربي . اما الذين لم يقدر لهم مثل هذا الزواج فقد ظلوا محتفظين حتى اليوم باسماء عربية لاسرهم وهم من سنرى اسماء اسرهم في الآتي من القول .

واذا كنا قد ذكرنا فيما تقدم اسماء المغامرين الاربعة طلائع الهجرة العربية فلا يفوتنا ان نذكر اسماء

اخرى كـانت في اوائل المواكـب المهاجرة ونستطيع ان نعد من ذلك مهاجري آل كثير وال النهدي وال بلحمر وال بارجـاء وال العمودي وغيرهم .

قالت مجلة الرابطة الصادرة في جاوى (سنة ١٩٣٠) وهـي تنعـى السيد محمـد بن عبد الرحمان بـن شهـاب الديـن :

لقد هاجر في النصف الاول من هذا القرن من حضرموت الى الجهات الجاوبة عشرات الالوف من الحضارمة ، منهم من عاد الـى وطنه ومنهم من توفاه اله .

آل الجفـري

وابرز من خرج فيهم السيد عقيل بـن زين العابديـن الجفـري الذي كان عالما مرموقا خرج من اندونيسيا الـى تركيـا ودخل جامعة اسطنبول ثم سافر الى اوروبا وكثير من بلدان اسيـا واتصل بالكثيرين من عظماء العالم الاسلامي ، ثم صار من اقطاب السياسة الاندونيسية فقاوم الاستعمار الهولندي مقاومة شديدة ادت الـى ان تعتقله السلطات وتسجنـه سنـة ١٩٢٨ ثم صادرت املاكه وابادت مكتبته الكبيرة القيمة . ثم اطلقته فقيرا لا يملك شيئا . وعاش حتى ادرك الاستقلال فكانت فرحته فيه فرحة تتناسب مع نضاله وتضحيتـه . وتوفـي العام ١٩٥٢ عن عمر ناهز التسعين.

ويعتبر السيد عقيـل من الادباء المؤلفيـن باللغـة العربيـة . وقد ترك العديد من المؤلفات التي ظلت مخطوطة لصعوبة الطباعة العربيـة في تلك البلاد .

آل المحضار

وابرز من خرج فيهم السيد محمد بن احمد المحضار المتوفى سنة ١٩٢٤ في مدينة سورابايا وهو عالم وشاعر يعتبر في طليعة شعراء المهجر الاندونيسيين . وقد ترك ديوانا كبيرا وعدة مؤلفات . ولكنها ظلت كغيرها مخطوطة لم تطبع ولم تنشر . ومن آل المحضار ملوك وقضاة في جزائر القمر في افريقيا .

آل يحيى

وابرزهم السيد محمد بن عقيل الذي يعتبر في وقته من اكبر علماء العالم الاسلامي واعظم رواد الاصلاح فيه . وكانت دار هجرته جزيرة سنغافورا حيث اسس فيها دعوة اسلامية اصلاحية امتدت حتى شملت اندونيسيا وغير اندونيسيا . وكانت طريقته هي انشاء الجمعيات وتأسيس المدارس ونشر الصحف ويمكن ان نعد جريدته التي نشرها في سنغافورة اول جريدة عربية في تلك المهاجر وكذلك جمعيته ومدرسته التي حرص على ان تكون مدرسة عربية اسلامية . وكان تأسيس الجمعية سنة ١٣٢٢هـ وتولى رئاستها السيد احمد السقاف وكانت هي نواة جمعيات الاصلاح في البلاد الجاوية كلها ، ، وصارت مركزا عاما يقصده المثقفون ، بل كانت على حد تعبير احد الباحثين سببا لجمع شمل العرب الذي كان مفرقا . ثم اضاف الى ذلك اصدار مجلة عربية سماها (الامام) ، صدر العدد الاول منها في اول جمادى الثانية سنة ١٣٢٤ (١٩٠٦) وصدر اخر عدد منها في شهر ذي

الحجة سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨) . وقد سمى مدرسته مدرسة الاقبال ، ولم يكن من الميسور ايجاد مدرسين لها في المهجر فاستدعى لها المدرسين من مصر . وكان تأسيسها سنة ١٣٢٦ (١٩٠٨) ثم صدرت بمساعيه جريدة الاصلاح التي لم تعمر طويلا شأنها في ذلك شأن مجلة (الامام) اذ صدر العدد الاول منها في اول شوال سنة ١٣٢٦ وصدر آخر عدد منها في ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٢٨ .

وكانت هذه النهضة العربية في سنغافورا مدعاة لان تقوم مثلها في اندونيسيا وبلدان جنوب آسيا التي كانت تصلها مجلة الامام وجريدة الاصلاح فتأسست في جاكرتا جمعية خير سنة ١٣٢٤ وتأسست اول مدرسة لجمعية خير في جاكرتا وفي فلمباغ بمسعى السيد علي بن عبد الرحمان المساوي والسيد محمد بن عبد الرحمان المنور سنة ١٣٢٦ . كما تأسست مدرسة في سورابايا بنفس السنة بمسعى السيد شيخ بن زين الحبشي ومدرسة في جاكرتا بمسعى السيد عبدالله بن علوي العطاس . وكلها مدارس عربية التدريس اسلامية المناهج .

وكان ابن عقيل يزور اندونيسيا بين الحين والحين لدعم النهضة فيها وبث الاصلاح بين رجالها وكانت اخر زارة له لجاوا سنة ١٩١٨ .

وهكذا نستطيع ان نعتبر السيد محمد بن عقيل رائد نهضة وداعي اصلاح ومربي اجيال . واذا كان قد قدر لبعض كتبه ان تطبع خارج المهجر فان معظم تلك الكتب ظل مخطوطا .

وقد عاد من مهجره الــى الوطــن العربــي فاستقر فتــرة في الحجاز سنــة ١٣٣٩هـ ثم انتقل الــى الجنوب سنة ١٣٤٠ فسكــن المكلا(١) وعاود الدعوة الى الاصلاح

---

١ ـ قال رياض الريس وهو يصف بلاد حضرموت متحدثا عن المكلا :
شباك كثيرة ، ومراكب قديمة راسيــة ، وصيادون واشرعة ممزقــة وطريق يتيمة تمــر عبر منحدر جبلــي ضيق ، وشاطــىء واسع كلــه حبال وسوار وناس ، وناس ، لعلهم تجار او بحارة او ربمــا قراصنة .
كان هذا هو المدخل الــى المكلا ، نافذة حضرموت المفتوحة علــى العالم كل ما فيها يوحــي بالحركة ، وكل ما فيها كأنه ذكرى من ذكريات .

والطائرة لاتصلمن عدن الــى المكلا . فلا بد ان تهبط في الريــان ، وهــي قرية صحراوية علــى مشارف المكلا من الداخل . وانتظرنا في شمس الريان المحرقة بعــد طيــران اكثر من ثلاث ساعات في طائرة الداكوتــا القديمة ، أن يتراجع المد ويصبح من الممكــن لسيارة اللاندروفر أن تمشي بمساواة الشاطــىء في ساعات الجزر حتــى تصل بعد ساعة ، اذا لــم تغص في الرمال أو تتلف احدى عجلاتها ، الــى طريق المكلا الضيق .

واقلعت السيارة براكبيها اليتيميــن ، انا وزميل اجنبــي ، علــى الشاطــىء الاستوائي وهــي تغوص تارة وتقف تارة لاصلاح ما افســده الحــر مــن محركها ، أو حطمته الرمال في عجلاتها ، مرورا فوق الاف الاسمــاك الملونة القريبة التــي تركها المد علــى الضفــة قبل ان يرحل ، وحولها تمــوج مئات السلاحف الكبيرة الجميلة لتلتهمها ، وطيور البحــر تضرب زجاج نافذة السيارة بالاجنحــة والقوارب الفارقة ترسو بعيــدا عن الشاطــىء وقد سحبها المد معه ، فتعلقت بالشباك التــي تركها الصيادون علــى الــرمال . وتطل المكلا من فوق الطريق الذي سد بالصخور حتــى يلوح في نهايته شارع ضيق كله بياض مفتوح علــى البحر ، كرصيف طويــل لمينــاء كبيــر وقد تكدست اكوام الاخشاب والبضائع في كل مكان حتــى لم يعــد من مكان للمشاة ، واختلطت اشكال الوجوه الغريبة بعضها مع بعض في الجو ، فلا وجه واحدا يشكل طابعا للمدينة .
ومن المكلابحــر الحضارمة الــى العالم ليجمعوا ثروات ويبنــوا امجادا ، ويعودوا بحضارات وعادات تندمج في بيئتهم وتراثهم ، ومن ثــم

السياســي والدينــي والاجتمــاعــي منتقــدا الاوضــاع القائمة نقدا صريحا مما اثار الضجيــج عليــه شأن كل مصلح وفي سنــة ١٣٤٧ انتقل الــى عدن فكان شأنه فيــها

تكافح في ارض غريبة لتثبت اهليتها وفرديتها وخصائصها . فالحضارمــة المهاجرون أكثر من الحضارمة المقيمين ، والمسافر منهم يعيل المقيم ، والثروة الوحيدة هــي ثروة الهجــرة .

من اندونيسيا الــى سنغافورة الــى الملايو ، حيث اسسوا دولا وممالك ، حتــى الهند وسيلان في آسيا . ومن زنجبار وكينيا وتنجانيقا والحبشة والصومال في افريقيا ، كان مد الحضارمة يتدفق الــى جنوب الجزيرة العربيــة ، ومعه اموال ، ليبنــي . وتتحول الرمال في بلاده الى ناطحات سحاب من الطيــن ، وينقل من الشرق الاقصــى وافريقيــا التوابل والخشب والحرير والقصب . ولا يحمل معه من الجزيرة الا الاسلام ، فيعطيه لاندونيسيا والملايو وزنجبار ، « نحــن فاشلون في بلادنا ، وناجحون فــي الخارج .. » ، كان تعليــق رفيق حضرمــي في المكلا لملاحظتــي علــى بدائية تفريــغ البضائع من السفــن في المكلا ، مع وجود عشرات مــن الحضارمة العاطليــن عــن العمل .. ولكن يبدو ان المد الذي ركبــه الحضارمة عاد بهم مــن الشرق الاقصــى وافريقيــا الشرقيــة . فكانت اندونيسيا وقد توقفت ثرواتهم فيها وتعطلت اعمالهم في عهد سوكارنو . وكانت الهند وفقرها ، وقد جفت ينابيــع الخير فيها . وكانت زنجبار وثورتها حيــن ذبح الافارقة العرب ، وكانت كينيا وقد فرضت قيودا علــى غــير الافريقييــن . وعاد الآلاف من الحضارمة وخاصة من افريقيا الــى الوادي الاخضر دون مال ولا عمل ليعايشوا الفقر من الاول .

وبدات هجرةثانية : الــى السعودية . الــى الكويت . الى الخليج العربــي . فثمة اليوم ٢٥٠ الف عائلة حضرمية في السعودية وحدها ، ترسل في الشهر ١٠٠ الف جنيــه استرلينــي الــى البلاد . ونصف هذا العدد في بلدان الخليــج العــربــي .

ودخلت السياسة لتفسد . واصبح يهم الحضارمة التجار ان يرضوا مصالحهم في الدول التــي لهم تجارة فيها . ووقع الصراع . فاذا اغضبوا السعودية ، يا ويلهم . واذا اغضبوا اندونيسيا يا ويلهم ، واذا اغضبــوا سنغافورة والملايو ، فيا ويلهم ايضا . اذن ، ليمشوا علــى الحبل بمهارة.

شأنه في المكلا ثم انتقل من عدن الى الحديدة سنة ١٣٤٩ وبقي فيها الى ان توفي سنة ١٣٥٠ .

وكان السيد محمد بن عقيل معروفا في العالم الاسلامي كله ولما توفي رثاه شاعر من بلاد الشام بقصيدة طويلة مطلعها :

سالت دموع العين كل مسيل
حزنا لفقد محمد بن عقيل

آل الحداد

نبغ من هذا البيت العديد من العلماء والشعراء منهم العالم الشاعر السيد عبد الله بن علوي الحداد الذي ظل ديوانه كغيره مخطوطا لم يطبع .

آل السقاف

ومن هذا البيت ايضا خرج العلماء والشعراء كالسيد احمد بن عبدالله السقاف والسيد ابن عبيد الله . والاول منهما كاتب بارع وشاعر مجيد ومن اعرق الثائرين على الاستعمار الهولندي وله في هذا المضمار الكفاحي الكثير من الشعر الحماسي المثير لا سيما في اول الحركات التحررية سنة ١٩١٠ . واذا كان معظم شعر بقية الشعراء المهجريين لم ينشر حتى في الصحف بل ظل مخطوطا في الدواوين مقرؤا في المنتديات فان شعر هذا الشاعر كان له من الحظ اكثر مما كان لغيره اذ نشر الكثير منه في الصحف والمجلات العربية التي كانت تصدر في المهجر ، ولكنه لم يجمع في ديوان مطبوع .

آل العطـــاس

ينتسبون الى جدهم الاكبر السيد عمر بن عبد الرحـــمن العطاس ، المتوفى بحريضة حضرموت سنة ١٠٧٢هـ ومنهم السيد عبدالله بن علوي العطاس الذي نشر الاسلام في بورما والهند وغيرهما . والمتوفى سنة ١٣٣٤هـ .

ومنهم السيد سالم بن احمد الطعاس الذي تولى الافتاء في جهور (الملايو) مدة خمسة وثلاثيـــن عاما والمتوفى سنـــة ١٣١٣هـ ومنهم السيد عبد القادر بن محسن العطاس الـــذي تولـــى كذلك الافتاء في جهور مدة ثلاثين عاما وتوفي سنـــة ١٣٤١ . ومنهم السيد عبد الله بن عبد الرحمن العطاس الذي تـــولـــى القضاء في سنغافورا مدة عشرة اعوام ، والمتوفـــى سنـــة ١٣٥٥ باندونيسيا .

آل جمل الليل

ومنهم السيد محمد بن عيدروس الحبشي المتوفى فـــي سورابايا (جاوا) سنة ١٣٤٤هـ .

آل حبشـــي

ومنهم السيد محمد بن عيد روس الحبشي المتوفـــى في سورابايا (جاوا) سية ١٣٤٤هـ .

آل الكـــاف

وهم اللذين كانت لهم الايادي البيض في بناء المساجد والمدارس . وقد صكت لهم نقود تحمل اسمهم ، وكان يتعامل بهـــا في حضرمـــوت .

آل شهـــاب

نبغ الكثيرون من رجال هذا البيت ويعتبر السيد علـــي بـــن احمـــد بن شهاب من ابرزهم ، كان من الكتاب المؤلفين ولكـــن مؤلفاته ظلت هـــي الاخرى مخطوطة . وهو مـــن المكافحيـــن للاستعمـــار الهولندي ومن اركان الحـــركـــة التحرريـــة وابرز زعمائها . وكان هو الداعـــي الى تأسيس جمعيـــة خير سنـــة ١٩٠٧ كمـــا كان عضوا في الحـــزب الاسلامـــي الاندونيســـي (شركة اسلام) وفي العام ١٨٨١ هوجم اجتمـــاع وطني كان يرئسه فساقته الشرطة الهولندية الـــى السجـــن حيث قضـــى فيه فترة ، وبعد خروجه من السجـــن ساح في البلاد الاسلامية فزار تركيا ومصر وسورية ثم ادى فريضة الحج ، ثم عاد الى اندونيسيا متابعا الكفـــاح الاستقلالـــي وظل حيـــا حتـــى دخول الجيوش اليابانيـــة الى اندونيسيا ، ثم توفـــي سنة ١٩٤٥ في اواخر العهـــد اليابانـــي عـــن عمـــر ناهز الخامسة والتسعيـــن .

ابـــو بكر بن شهاب

من هذه الاسرة خرج العالم الشاعر المؤلف السيـــد ابو بكـــر بـــن شهاب . وهو الشاعر الذي نريد ان نتخـــذ منه نمـــوذجا للشعر المهجري العربـــي الشرقـــي لانـــه الوحيـــد الذي طبع ديوانه من بيـــن شعراء المهجر الشرقي.

ولد ابـــو بكـــر بـــن شهاب سنة ١٢٦٢هـ بقريـــة

حصـــن ال فلوقه احد مصايف تريم(١) من بلاد حضرمـــوت

١ — قال رياض الريس مواصلا وصف بلاد حضرموت متابعا رحلته من سيؤون الى تريـم :

وانطلقت سيارة اللاندروفر في حر بعد الظهـر عبر الطريـق المرصوف في الوادي البنـي اللون الاغبـر الجاف . وكانت تريم في الجانب الاخر تسبـح في واحـــة مـن النخيـل والالوان والماء . وكانت الكثيري فيعزها

واذا بتريم مدينة مسورة ، بابها ضيق ، ومن خلف السور الطينـي تطل ناطحات السحاب الطينية ، ومعها مآذن علـى مد النظر . وامـام الباب احتشد جمع من الناس وقد علت اصواتهم واختلطت باطـــلاق الرصاص في الهـــواء وقد مشـى امامهم فتيان يحملون حرابا علـى رأسها مـا لـم اتبينــه من بعيـد .

وسالت رفيق الطريق الحضرمي ، فقال هؤلاء الناس قد عادوا من صيد الغزلان ، وقد حملوا رؤوسها علـى الحراب ، وهم يطلقون الاهازيج بيـن كل وقفة ووقفة . انه تقليد من تقاليد الصيد ، وصيد الغزلان عندنا فن قديم.

ودخلنـا الباب وراء الجمـاهير ، فاذا نحن في ساحة كبيرة خلفها جبل كبير وقـد التصق السور وجدرانه الثلاثة به ، وكان هو الجدار الرابع . ووسط الساحة مقابر ذات شواهد قصيرة وكانها مجمـوعة تحف صغيرة صفت بشكل هندسـي انيق في واجهة متحف من المتاحف .

لعل هذه المقابـر وجدت قبل تريم ، وبعضها منذ ايام الحميريين . اجيـال وراء اجيال تدفن هنا في وسط البلدة : قالها رفيق الرحلة الحضرمي المولود في سنغفورة ومن اكبر عائلات حضرموت واغناها .

وكانت جمـوع الصياديـن والناس قد اختفت من الساحة وتوزعت في الازقة الترابية الضيقـة . واذا بتريم تختلف عـن سيؤون وشيبام . انها مدينة حدائق مسورة : داخل السور الكبير ، اسوار صغيرة تدور حول قصورها وعـماراتها المرتفعـة ، واذا بالجو ، جو اريستوقراطـي بعيـد عـن التجارة والمقايضة والاسواق التـي تملأ سيؤون والمكلا .

واثارتنـي كثرة المآذن ، فسالت رفيقي الحضرمي السيد يعقوب الكاف عـن كل هذا ، فقال : في تريم ٣٦٥ مسجدا . كل يوم من ايام السنـــة لهمسجـد . فاغنياء حضرموت كانوا ينذرون بعد موتهم ببناء مسجـد علـى ارواحهم ، بدلا من ان يبنوا مدارس ومستشفيات . امـا اليـــوم وقـد

وتوفـــي سنة ١٣٤١ بحيدر اباد الدكـــن من بلاد الهـــند .
وكانت هجرته الاولـــى من بلاده الى الحجاز سنة ١٢٨٦
وهذه الهجرة كانت لطلب العلم حيث اخذ عـــن علمـــــاء
الحجاز لا سيمـــا السيد احمد بن زينـــي دحلان ثم عاد الى
تريـــم واقام بها حتـــى سنة ١٢٨٨ حيـــث هاجر الـــى
الشرق الاقصـــى هجرة امتدت اربع سنيـــن كانت جـــل
اقامته فيهـــا باندونيسيا في مدينة سورابايا من مدن جزيرة
جاوا مشتغلا بالتجارة ثم عاد الـــى وطنـــه ولكـــن لـــم
يستقـــر فيه بل عاود الهجرة سنـــة ١٣٠٢ مفتتحا هجرته
بسياحة في عدن ولحج والحجاز ومصر وسورية وفلسطين ثم
في الاستانـــة ، واختتم سياحته بالحلول في مهجر جديد هو
مدينـــة حيـــدر اباد الدكـــن في الهند ، ولكنـــه ظل دائـــم
التردد الـــى اندونيسيا . وفي العام ١٣٣١ عاد الـــى وطنه

اتفـــق عدد الجوامع مع عدد ايام السنة ، فنرجو ان يبدأ بناء المدارس والمستشفيـــات .

ووصلنـــا الـــى منزل الدليـــل ، فاذا به قصر من قصور ال الكاف . وتعبـــر البوابـــة الخارجية فاذا قطعة من الشرق الاقصـــى ، وتمر الـــى الحديقة ، واذا بها جزء من الملايو او سنغفوره . كل شـــيء اخضر ، وكانك في غابةاستوائية . واصطفت مائدة طويلة ، فيها من انواع الشراب والمرطبات والاطعمـــة ، وكانك عنـــد سلطان من سلاطين ماليزيا ، اضيفت اليها كل اللمسات العربيـــة الجميلة ، فاختلطت حضارتان في الطريق الى المعـــدة . واكلنـــا وشربنـــا وتحدثنا .

وسقطت الشمس وراء السور الكبير ، وبدات النساء في العباءات البرتقالية والبراقع السوداء ينسحبـــن الـــى بيوتهـــن من الحقول ، ولمعت انوار المآذن الكهربائية كمنارات علـــى شاطـــىء مهجور ، وتحولت تريـــم عنـــد المغيـــب الـــى مهرجان من الالوان الاريستوقراطية ، وبدت سيؤون في الطرف الاخـــر من الوادي كانها خرافة . وكانت سيؤون وتريم .

مصطحبا عائلتــه بعد هجرة استمــرت نحو ثلاثيــن سنة، وتــرك اسرتــه في الوطــن وعا دالـــى المهجر سنة ١٣٣٤ ليقطــع ما تبقــى من علائقه ثم يعود الــى الوطــن ولكــن لم تكتــب له العودة حيــث قضـــى نحبه في ديار الغربة .

شعــــره

لن نجد في الشعـــر المهجري الشرقي ما نجده في شعر المهجــر الغربـــي من تجديد وتطوير ، بل ان الشعر الشرقي هو امتداد للشعر العربــي القديم بكل خصائصه وكـــل موضوعاته ونحـــن حيـــن نعرض لشعر هذا الشاعر لا نطمع ان نجد فيـــه اكثر مما نجد في شعر اي شاعر تقليدي مـــن شعراء العرب .وكذلكيمكننا ان نقول نفس القول فيمـــا وصلنـــا من شعر غيره من شعراء المهجر الشرقي . فالغزل والمديـــح والرثاء واحيانا الهجاء هي قوام هذا الشـــعر . والتعابير والالفاظ والمعانـــي هي نفس ما عرفناه في كل شعر قديم . ومن العجيب انالانفعالات العاطفيـــة التـــي اثارتها الغــربـــة في شعر شعراء المهجر الامريكي فنظموا في الحنين الـــى بلادهم شعرا هو بان يوصف بانه عبرات وزفـــرات وتأوهات احرى من ان يوصف بانه الفاظ وكلمات . ان هذه الانفعالات التـــي اشتمـــلت عليها احيانا قصائد كامـــلة في شعـــر الشاعـــر القروي والياس فرحات وايليا ابي ماضي وغيرهم ، ان هذه الانفعالات مفقودة في شعر المهجر الشرقي فيمـــا وصل الينا منه .كمـــا ان الابداع الذي تجلى في شعر المهجـــر الامريكـــي هذا الابداع الذي رفع الشعراء الثلاثة المقدم ذكرهم الـــى اعلـــى قمة في شعرنا العربـــي في القديم

والحديث ، هذا الابداع مفقود هو الاخر في شعر المهجر الشرقي ، فليس فيه شعر يطاول الشعر الامريكي لا في المبنى ولا في المعنى .

واذا كانت الانفعالات العاطفية مفقودة ـ كما قلت ـ في الشعر الشرقي فذلك لا يعني ان اصحاب هذا الشعر لم يحنوا شعرا الى اوطانهم ، ولم يتأوهوا في غربتهم شوقا الى ديارهم . بل هم فعلوا احيانا ذلك ، ولكنه كان انفعالاعابرا مر قصيرا خلال القصائد الطويلة. فشاعرنا ابو بكر بن شهاب مثلا ينظم قصيدة من اطول القصائد يتحدث فيها عن علي بن ابي طالب فلا يكون فيها من الحنين والاشارة الى الغربة الا بيتان اثنان :

الا ليت شعري والتمني محبب
الى النفس تبريدا لحر اوامها
متى تنقضي أيام سجني وغربتي
وتنحل روحي من عقال اغتمامها

ولكن هذا الحنين لم يكن الى حصن آل فلوقة مسقط رأس الشاعر ولا الى تريم مراح صباه ولا الى حضرموت مدرج هواه . بل الى بلد اخر غير هذه البلاد ، الى بلد يعتبره موطنه الروحي ، فاذا حن غيره من الشعراء الى مواطن اجسادهم فان هذا الشاعر انما يحن الى موطن روحه الى النجف :

وهل لي الى ساح الغريين زورة
لا ستافريا رندها وبشامها

وانـــي علـــى نأي الديـــار وبينهـــا
وصدع الليالـــي شعبنا واحتكامهـــا
منوط بها ملحوظ عيـــن ولائـــها
قريب اليها مرتـــو من مدامهـــا

ولكـــن ليس هذا كل ما في شعر الشاعر من حنين ، فاذا كان في القصيدةالسابقة قد حـــن الـــى وطن الروح فهو هنـــا يحـــن الـــى وطن الجسد ، يحـــن الى حضرموت وتـــريـــم :

علـــى سلمى وان نـــأت الخيـــام
من المضنـــى التحيـــة والســـلام
تناشدنـــي اتـــرجع عـــن قريب
فقلت نعم وللدهـــــر احتكـــام
الا يا دارهـــا مـــن بطـــن وادٍ
بهنبـــت الخزامـــــى والبشـــام
سقـــاك العـــارض الوسمي ســـحا
وحيـــا ذلـــك الشعب الغمـــام
تـــرى هل تجمـــع الايام شمـــلي
بهـــا او هـــل لفرقـــتنا التـــئام
اليها قبلتـــي ولهـــا صلاتـــي
وحجـــي والتنســـك والصيـــام .

ويبلغ به الحنيـــن في الهند حدا ينطقه باكثر قصائد عاطفـــة واحرها شوقا :

يـــا ايها الراكب الغادي الى بلد
جرعـــاؤه خصبة المرعـــى وابرقـــه

ناشدتك الله والود القديم اذا
ما بان من بان ذاك السفح مورقه
ان تستهل صريخا بالتحية عن
باك من البعد كاد الدمع يغرقه

يثير اشجانه فوح الصبا سحرا
وساجع الورق بالذكرى يؤرقه
له فؤاد نزوع لا يفارقه
حر الغرام وجفن ليس يطبقه
بالهند ناء اخي وجد يحن الى
اوطانه وسهام البين ترشقه .

الفرق بين الشعرين

والفرق بين هذا الشعر وبين شعر المهجر الامريكي ان الثاني لا يوري عن بلاده بالجرعاء والابرق وما اليها من اسماء عربية ليست هي المقصودة بالشعر ولا هي مكان الحنين ، بل هي مواطن لا يعرفها الشاعر ولا يشتاقها ، وانما هي منازل لقوم من العرب تغنوا بها في القديم ، فكان من الشاعر الحديث ان حذا حذوهم بذكرها معبرا بها عن ارضه ووطنه . واذا كان لم يصرح باسم البلد الذي يشوقه فانه قد صرح باسم البلد الذي يحن منه الى بلده ، واعلمنا انه الهند . لولا ذلك لما كان من فرق بين هذه الابيات واي ابيات لشاعر عربي قديم يذكر جرعاء الحمى والابرق . على العكس من الشعر الامريكي الذي يسمي الاماكن باسمائها ، ثم هو يعبر عن حنينه

تعبيرا لا يدنو في شيء من تعابير الاقدمين ولا من اساليبهم ولا معانيهم .

تبرير الهجرة

وهذا المشوق في الهند الى بلده يبرر الهجرة ويعين اسبابها ، ويرى انه ما دام المقام في الوطن مدعاة للخمول والاهتضام فلا بد من الرحيل عنه الى اقصى مكان :

تلك السبيل الى الفخار فان ترد
ادراكه فدع الربوع وعادها
وارحل فان العجز شر مصاحب
عجلا وطأ في السير شوك قتادها
واخطب عذارى المجد في آفاقها
واشهد مواسمها على ميعادها
هل في القضية ان اقيم ببلدة
يخشى الكرام بها اذى اوغادها
في الارض متسع لحر نفسه
عصماء يأمن مستحيل كسادها
فسنام اي الارض اذهب منزلي
ولي الندامى الغر من امجادها

ويكرر هذا المعنى فيقول :

واذا ما الكريم آنس ذلا
في بلاد فليعن بالارتحال .

ولكن هل شفت الهجرة آلامه وابلغته مرامه حين ترك وطنه خوف الهوان او اذى الاوغاد ، وهل وجد

في الارض متسعا لنفسه الحرة العصماء ، وهل لقي الندامى الغر الذين تحدث عنهم ؟ انه هو يجيبنا عن ذلك بعد ان مضى هلى هجرته تسع سنين :

غربة في ديار من ليس جنسي
جنسهم والمقال غير المقال
سمت فيهم نفيس علمي فلم ينفق
وقد قرظتهم بسحر حلال
وبمحض العفاف صار كتابي
مستعارا وصافناتي نعالي
ذهبت حكمتي ضياعا وشمسي
في استتار وعزتي في ابتذال
فيهم قد قضيت تسعة اعوا
م اذابت نفسي وعمري ومالي

ثم تزداد الآلام تفجرا فيقول :

ومن عجب اني نزيل ببلدة
شمائل اهليها الحماقة والدعوى
الى الله اشكو غربتي بينهم فما
الى غيره من مثلهم تنفع الشكوى .

ثم تتراءى له في الذهن اوطانه بعيدة لا سبيل الى الوصول اليها فيقول :

كيف السبيل الى اللقاء ونحن في
رق الزمان وربما لا يعتق
اترى زمان السوء يسمح لي بما
ارجو فتسري بي اليك الاينق

لابثك الشكوى وتعلـــــم اننـــي
دنف وشمــلي بالبـــعاد ممــزق

وايـــن هو من النوق في عصر البخار ، فليست النوق هـــي التـــي يمكـــن ان تسري به من اندونيسيا او من الهند الـــى حضرموت وانمـــا هـــي البواخر الجواري كالاعلام ، ولكـــن الشاعـــر المتأثر بالقديم لا يستطيـــع التخلـــي عن قديمـــه ولا التخلي عن الاحتذاء حذوه حتـــى فيمـــا تستحيـــل عليـــه فيه رؤيته ، فكيف بان يكون وسيلته ..

سنغـــافـــورا

وفي كل ما نظم الشاعر لم يذكر اسما من اسمـــاء منازله في المهجـــر ما عدا ما رأينا من ذكره للهند ذكـــرا عابرا لا دلالة فيه علـــى شـــيء سوى انه نزيلها . علـــى انه يخص جزيرة سنغافورا بقصيدة يحييها بها ويحييـــي نازليها من مهاجـــرة العرب :

مـــدينة سنغفـــورا حيـــن تبـــدو
معالمها تـــرى الســـوح الرحيبـــا
فحياها الحيـــا الوسمـــي حتـــى
يغادر سفحهـــا ابـــدا خصيبـــا
قصور لا يلـــم بهـــا قصـــور
ودور بالبـــدور نفحـــن طيبـــا
ولم تسمـــع اذا مـــا طفـــت الا
حماما ساجعـــا او عنـــدليبـــا
وبـــالعرب الكـــرام الساكنيهـــا
من المجد اكتســـت بردا قشيبـــا

وجوه بالمكـــارم مسفـــرات
سمـــت عـــن ان ترى فيها شحـــوبا
اذا عض الزمـــان لهـــم نزيـــلا
مـــن الدهـــراستقادوا ان يتـــوبا .

وتبدو هذه القطعة من اثمن ما في شعر الشاعر مـــن حيث تسجيلها للهجرة العربيـــة تسجيـــلا شعريا يحـــدث الاجيـــال القادمة عمـــا كان للعرب من الشأن في تـــلـــك الجزيرة القصية ، التـــي يبدو جليا من الشعر ان العـــرب فيها كانوا من الكثرة وكان لهم من الاثر بحيث صح للشاعر ان يتحدث عنهم كجزء بارز في تكويـــن سنغافورا الاجتماعي.

وبالرغم من ان الحديث في هذا الشعر عن سنغفورا حديث مجمل عام ولا دلالة فيه علـــى مكان معيـــن وطبيعة معينة ، ولا وصف فيه لتحسس نفســـي مثير ، فان مجرد التأثر بسنغافورا وابراز هذا التأثر في الشعر يكسب هذا الشعـــر طرافة ويجعل منه وثيقة ادبية ثمينـــة . وفي مثل هذه القطعـــة يبرز الفرق ايضا واضحا بين شعر المهجـــر الغربـــي وشعر المهجر الشرقـــي ، فالشعر الغربـــي فـــي مثل هذا الموضوع يعنـــى بالتفاصيل ويحدد لك المكان تحديدا واضحا ويحدثك عـــن كل جزء من اجزائه وكل بقعـــة من بقاعـــه ، في حيـــن ان الحديث هنا اقتصر علـــى الاشارة الـــى السوح الرحيبـــة والقصور والدور ، والسفـــوح الخصيبة ، وعلـــى الدعوة بان يحييها المطر لتظل ابـــدا خصيبة .. ثم انتقل نجاة الـــى العرب الساكنـــي سنغافورا والتباهـــي بهم والاشادة بخلالهم .

واذا كان الامر كذلك فلان ما يثير الشاعر العربي الغربي هو غير ما يثير الشاعر العربي الشرقي ولان ما شاهده مثلا وعاشه جورج صيدح على شواطىء فنزويلا فانطقه بالشعر الجميل . لم يشاهد مثله ولا يمكن ان يشاهد مثله فضلا عن ان يعيشه ابو بكر بن شهاب الفقيه الجليل ، ولان ما تعمد ان يقصده ويستمتع به شاعر المهجر الفنزويلي ، ينهى عن قصده والاستمتاع به شاعر المهجر السنغافوري فجورج صيدح مثلا وهو يشاهد المستحمات العاريات على الشواطىء الامريكية ، كان يرى ان السعي اليهن ومطالعة مشاهدهن والانس بهن ، هو ما يسوقه كل اصيل الى الشاطىء ، لذلك فهو يهتف بمثل هذا الشعر :

افدي الحمائم باكرت حمامها
في شاطىء فرش العيون امامها
الكاسيات العاريات تؤمه
بغلائل ما غلفت اجسامها
تركت الى عبث النسيم شفوفها
فنضا النسيم عن النجوم غمامها

. اما شاعر سنغافورا ، فان كل ما في الامر انه كان وهو في طريقه الى عمله وعوده من عمله يرى امام عينيه السوح الرحيبة والميادين الطليقة ، ويبصر القصور الشاهقة والمنازل القوراء ، كما يرى السفوح الخصيبة الخضراء يراها من الخارج دون ان يستطلع ما في تلك القصور وما تضمه تلك الدور ، ودون

ان يقصد ماوراءالسوح من مقاصف ومراقص ومشارب ، وما على جوانب السفوح من مباهج وملاعب . لذلك جاء حديثه عاما مجملا ، حديث العابر العجل ، لا حديث المستأني المقيم . في حين انه كان في نفس الوقت يحيى حياة العرب هناك ، وينغمس في مجتمعاتهم ويغوص في عيشهم لذلك كان التفصيل في شعره بالحديث عنهم وعن اخلاقهم وشمائلهم . ولم يكن التفصيل في غير ذلك .

اختلاف مواضيع الشعرين

ومن هنا اختلفت مواضيع كل من شعر المهجرين الشرقي والغربي ، فأبو بكر بن شهاب مثلا يصل الى علمه وهو في مهجره طبع كتاب (الاستيعاب) لحافظ المغرب ابي عمر بن عبد البر فيرى في ذلك حدثا يستحق منه النظم ويستحق ان يؤرخه شعرا فيقول :

زحزح البدر نقابه
وبكت عين السحابه
وغدا البلبل يشدو
فوق افنان الخطابه
ودعا داعي المسرا
ت فاسرعنا الاجابه

والدعوة الى المسرات والاسراع الى اجابتها يشترك فيها شعراء المهجرين ، ولكن الذي يختلفون فيه هو نوع تلك المسرات فشاعرنا هنا يعلن ان ما يمكن ان يظنه الناس انه مسرات تغريه ، لا يعنيه في شيء وان مسراته من

نوع خـــاص :

لا الـــى الدنيا ولا للغير شوقا وصبابـــه
بل لنشر العلـــم نرويه ونستصفي لبابـــه

وبعد ان يتحدث عن (الاستيعاب) بمثل قوله :

(اسد الغابـــة) منه   مستمد و (الاصابه)

يختم القصيدة ببيتـــن يؤرخ بهمـــا طبع الكتاب :

وببيت كامـــل أر   خته فاضبط حسابه
رق (الاستيعاب) طبعا   واصفا مجد الصحابه (١٣٢٤)

ومن البدهـــي انه عندما يدعو داعـــي المسرات جورج صيدح فيسرع الاجابة ، يكون ذلك الاســـراع لا لكتـــاب (الاستيعاب) ولا لاي كتاب غير الاستيعاب ، وانمـــا الـــى الدنيا والـــى الغيـــد شوقا وصبابة . ويبقـــى بعد ذلـــك عنده مكان لكل الكتب ليقرأها ، لا لينظم فيها الشعر ويؤرخ سنـــة طبعها ، ولاالينبذ من اجلها الدنيا والغيد والصبابة .. علـــى ان شاعرنا الناقم علـــى الدنيا والغيد والصبابـــة هو نفسه القائل في ابيات لم تذهبالصنعة احساسها الحي :

ســـت الحســـان لمـــاذا
سمـــاك اهلـــك « تقـــوى »
غفيـــك طـــال اغترابـــي
وكـــادت الـــدار تقـــوى
كم صفـــت فيـــك نسيبـــا
ليســـت توافيـــه تقـــوى
نفسـي نـــداك صلفيـــني
فالوصـــل بـــر وتقـــوى .

وهو حتى هنا تبرز فيه صفته الفقهية فيأتي بالبر والتقوى في سياق حديثه الغرامي الصريح. على ان ابياته الاتية توضح لنا موقفه الصحيح ، فهو انسان بكل ما في الانسان من عاطفة وحاسة وهو شاعر بكل ما في الشاعر من شعور ورقة ، لا يستطيع الا ان يستجيب للجمال ويخشع للحب ، ولكنه في نفس الوقت مقيد بسلاسل تربط عاطفته وتحبس شعوره فتتصارع في نفسه شتى الاحاسيس وتتجاذبه شتى الطرق فلا يلبث ان يكبت حقيقته ويطفىء جذوته معبرا عن ذلك بهذا الشعر :

انا من هوى سود الذوائب ذائب
اصلتمودتهن في كبدي ضرم
ولطالما دعت المحبة والهوى
لعناق خرعبة يزول به السقم
فيصدني عنها مخافة خالقي
وعفاف نفسي والمروءة والكرم
فبقرع داعية الهوى وسماع نا
هية التقى أرد المنية لا جرم
ما الحب للعشاق الا محنة
سبق القضاءبها عليهم في القدم

حمية وطنية

والغربة والبعد عن الوطن لم تنس الشاعر انه ابن الجنوب العربي وسليل تلك الارض الطيبة التي

لها عليـــه حق الوفاء فما هو ان يبلغه ان شاعرا هجا (عدن) بشعــر يقـول فيــه :

هــي عــدن لكنها من جهنــم
عندهــا يمــرض الصحيح ويسقم

حتى يهــب مدافعها عن وطنه متحمسا لارضه قــائــلا مــن قصيــدة :

عدن وهــي في الحقيقة عـــدن
جنــة ازلفــت لمن سوحـــها ام
بلـــد طيـــب ورب غفــور
وقصر ســرور سكــانهــا عــم
ومغان كــأنهــا في جنـــان
وغــوان كالحور او هــي انعــم
حيث يرعــى الذمام والجار يحمــى
ويعز القطيـــن فيــها ويكـرم

كيف هم بقايا المهاجريــن

هذه صفحة من تاريخ الهجرة العربيــة الى الشــرق الاقصــى ، تلك الهجرة التــي لم تنل من عناية الدارسيــن ما هــي خليقة بــــه .

واذا كان شاعرنا قد تغنــى ــ كما رأينا فيمــا تقدم ــ بالعرب سكان سنغافورا ، واذا كان غيره ربما كان قد تغنى بالعرب سكان غيرها من المهاجر البعيدة ، فكيف حال العرب اليوم في سنغافورا وغير سنغافورا وفي اندونيسيا وغيــر اندونيسيــا ؟

هنا تتحد الهجرتان الغربية والشرقية وتتوافقان في ان مصير كل منهما كان مصيرا واحدا . فكما انتهى اليه امر المهاجرين الى امريكا انتهى اليه امر المهاجرين الى جنوبي اسيا . ونستطيع ان نقسم بقايا مهاجري جنوبي اسيا الى ثلاثة اقسام :

قسم ذاب بالكلية في مهجره فلم يعد يربطه بوطنه الاول اية رابطة ولم يعد لهمن الماضي اية ذكرى . وكان العامل الاول في هذا الذوبان الكامل ان اسرا بكاملها هاجرت تدريجيا حتى انتهت بمجموعها الى المهجر فلم يعد لها في موطنها من ترتبط به او تتطلع اليه من اهلها فانغمرت في موطنها الجديد انغمارا كليا . ونستطيع ان نعد من هذه الاسر اسرة ابن احسن واسرة بارقبة واسرة باركوان واسرة باشيبان التي انطوت اسماؤها العربية انطواء كاملا واصبحت سلالاتها تحمل الاسماء الاندونيسية ومن آل باشيبان الدكتور علي ساسترو اميجو (رئيس وزراء سابق) . ومن تلك الاسر يتحدر كل من محمد هاشم اشعري مؤسس حزب نهضة العلماء والدكتور سويونوهادي نوتو من الوزراء السابقين .

وقسم ثان لا يزال يحتفظ من الماضي باسم الاسرة العربي وببعض العادات العربية ويحس بانه عربي النجار وان كان لا يحسن النطقباية عبارة عربية .

وقسم ثالث وهو اقل من القليل لا يزال مرتبطا بالوطن العربي ويجيد التكلم باللغة العربية ويكتب بها تاريخا وادبا . ولا يزال محافظا على تراثه وعاداته .

هذا عن المهاجرين الذين اقاموا اقامة نهائية في المهجر

وهنـــاك فريق كان يعود الـــى بلاده ويعاود الحياة فيها(١) .

الصحافة العربية في المهجر الاسيوي

كمـــا حفل المهجر الامريكـــي بصحافة غربيـــة كان لها يوما من الايام شأو رفيع ، وكما اخذت تلك الصحافة بالتراجع والتلاشـــي آنا بعد آن حتـــى انتهت او كادت . كذلـــك كان الامر في المهجر الاسيوي فقد صدر فيه العديد مـــن الصحف جرائد ومجلات بلغت احيانا من المنزلة ما جعلها نظيرا لحصف الوطـــن العربـــي في حينها . ولكن علـــى كثرة تلك الصحف لم تصدر منها واحدة يوميـــة علـــى خلاف المهجر الامريكـــي التـــي صدرت فيه اكثر من صحيفة يومية .

واذا كانت الصحافة المهجرية الأمريكيـــة قد عرفـــت وارخت فان من حق الصحافة المهجرية الاسيوية علينا ومن حق منشئيها ان نلم بها وبهم هنا الممة ولو قصيرة ففـــي سنغافورا صدرت الصحف العربية الاتية : السلام : اسبوعية رئس تحريرها احمـــد بافقيه ، صوت حضرموت اسبوعية ورئيس تحريرها طه السقاف ، الهدى : اسبوعيـــة رئيس تحريرها عبـــد الوهاب الجيـــلاني .

وفي اندونيسيا صدرت الصحف الاتية : حضرموت : مؤسسها عيدروس المشهور ورئيس تحريرها محمد بـــن هاشم . صدرت اول الامر اسبوعيـــة ثم صارت تصدر مرتين في الاسبوع ، الرابطة : شهرية رئيس تحريرها ، احمـــد

---

١ ـ قال رياض الريس وهو يتحدث عن السكرتير العام لاحد احزاب حضرموت : هو حضرمي من مواليد اندونيسيا .

بن عبد الله السقاف ، المدرسة : نصف شهرية ، الثقافة : نصف شهرية ، الاقبال : اسبوعية رئيس تحريرها محمد بن سالم بارجاء ، القسطاس : اسبوعية رئيس تحريرها عمر مكارم ، الدهناء اسبوعية ، الاحقاف : اسبوعية هذا عدا الصحف الذي مر ذكرها فيما تقدم .

اما اليوم فقد عفى الزمن على تلك الصحف جميعها ولم تبق منها بقية . وانني لاذكر اننا كنا نتلقى في مطالع الشباب بعض تلك الصحف ، وكانت تصل الينا من تلك الارض البعيدة فنرى فيها ادبا رفيعا وشعرا رقيقا وبيانا ناصعا وحكمة اصيلة .

هذه صفحة من تاريخ الهجرة العربية المجهولة بل صفحة من تاريخنا جديرة بالحفظ والذكر .

وهنـــاك فريق كان يعود الـــى بلاده ويغاود الحياة فيها(١).

الصحافة العربية في المهجر الاسيوي

كمـــا حفل المهجر الامريكـــي بصحافة غربيـــة كان لها يوما من الايام شأو رفيع، وكما اخذت تلك الصحافة بالتراجع والتلاشـــي آنا بعد آن حتـــى انتهت او كادت. كذلـــك كان الامر في المهجر الاسيوي فقد صدر فيه العديد مـــن الصحف جرائد ومجلات بلغت احيانا من المنزلة ما جعلها نظيرا لحصف الوطـــن العربـــي في حينها. ولكن علـــى كثرة تلك الصحف لم تصدر منها واحدة يوميـــة علـــى خلاف المهجر الامريكـــي التـــي صدرت فيه اكثر من صحيفة يومية.

واذا كانت الصحافة المهجرية الأمريكيـــة قد عرفـــت وارخت فان من حق الصحافة المهجرية الاسيوية علينا ومن حق منشئيها ان نلم بها وبهم هنا المامة ولو قصيرة ففـــي سنغافورا صدرت الصحف العربية الاتية: السلام: اسبوعية رئس تحريرها احمـــد بافقيه، صوت حضرموت اسبوعية ورئيس تحريرها طه السقاف، الهدى: اسبوعيـــة رئيس تحريرها عبـــد الوهاب الجيـــلاني.

وفي اندونيسيا صدرت الصحف الاتية: حضرموت: مؤسسها عيدروس المشهور ورئيس تحريرها محمد بـــن هاشم. صدرت اول الامر اسبوعيـــة ثم صارت تصدر مرتين في الاسبوع، الرابطة: شهرية رئيس تحريرها، احمـــد

---

١ ـ قال رياض الريس وهو يتحدث عن السكرتير العام لاحد احزاب حضرموت: هو حضرمي من مواليد اندونيسيا.

بن عبد الله السقاف ، المدرسة : نصف شهرية ، الثقافة : نصف شهرية ، الاقبال : اسبوعية رئيس تحريرها محمد بن سالم بارجاء ، القسطاس : اسبوعية رئيس تحريرها عمر مكارم ، الدهناء اسبوعية ، الاحقاف : اسبوعية هذا عدا الصحف الذي مر ذكرها فيما تقدم .

اما اليوم فقد عفى الزمن على تلك الصحف جميعها ولم تبق منها بقية . وانني لاذكر اننا كنا نتلقى في مطالع الشباب بعض تلك الصحف ، وكانت تصل الينا من تلك الارض البعيدة فنرى فيها ادبا رفيعا وشعرا رقيقا وبيانا ناصعا وحكمة اصيلة .

هذه صفحة من تاريخ الهجرة العربية المجهولة بل صفحة من تاريخنا جديرة بالحفظ والذكر .

ملحق لمقال الدولة الفاطمية

الصفحة ٦٢

قال الدكتور حسن حبشي في كتابه (الحروب الصليبية) وهو يتحدث عن الغزوات البيزنطية لبلاد الشام :

« وامتد النفوذ البيزنطي عام ٩٧٥م ـ ٣٦٥هـ على طول البلاد الشامية فدفعت له حمص الجزية واستسلمت بعلبك ، واراق الافتكين صاحب دمشق ماء وجهه ابقاء على ولايته » .

الى ان يقول الدكتور حبشي مستمرا في الحديث عن الفتح البيزنطي :

« على ان موجة الفتح (البيزنطي) على حساب البلدان والامارات الاسلامية لم تلبث ان توقفت منذ اواخر القرن العاشر واصطدمت بقوة الفاطميين اللذين امدوا الاسلام بدم جديد وعنصر قوي يتدفق حياة ويتطلع للفتح ...)

وقالت الدكتورة سعاد ماهر في كتابها : البحرية في مصر الاسلامية :

ان اهتمام الفاطميين بالشام ودعم قواعد الاسطول المصري على سواحله كان له اكبر الاثر في صيانة كيان الدولة الاسلامية عامة ، والمحافظة على النفوذ العربي في شرقي البحر الابيض المتوسط خاصة ، ذلك ان الروم كانوا قد تمادوا في استهتارهم بالخلافة العباسية ولا سيما بعد استيلائهم على اقريطش ، فعولوا على الهجوم

علـــى اقليـــم الشام لكـــي ينتزعوا بيت المقدس منه . ففي سنـــة ٩٧٥م سار الاسطول الرومـــي الى بلاد الشـــام واستولـــى علـــى كثير من مدنها ولا سيما الساحلية منها ، مثل بيروت وصور وعسقلان وصيدا ، الا ان قوات مدينـــة طرابلس البرية استطاعت بفضل مؤازرة الاسطول المصري لها(١) من هزيمة الاسطول الرومي ، وبذلك عاد فاشلا الـــى القسطنطينيـــة . وبدأت الدولة الفاطمية بعد ذلك تثبـــت سلطانها علـــى قواعد بلاد الشام البحرية وتطارد الروم من اطراف الشام الشماليـــة .

وتقـــول ايضـــا :

... وتحققت مخاوف الفاطميين ، حين لجأ امبراطور الروم سنة ١٠٢٥م الـــى تأليب حكام صور وطرابلس علـــى الفاطميين ومساعدتهم علـــى شق عصا الطاعة عليهم ، ولكن الاسطول المصري (الفاطمي) كان لهم بالمرصاد فتصدى لسفن الروم في مياه هذيـــن المينائيـــن وانزل بهم هزيمة منكرة .

وتقول ايضا ما خلاصته : ارسل غليوم(٢) الاول صاحب صقلية اسطولا نزل دمياط سنة ١١٥٥م ـــ ٥٥٠هـ فعـــاث فيها فسادا ثم اتجه الـــى تنيس فقتل بحارته الرجال وسبوا النساء وكذلك فعل في رشيد والاسكندرية . ولكنه سرعـــان ما فر هاربا عندما ظهر له الاسطول المصري (الفاطمي) .

---

١ ـ Brehier: vie et mort de Byzance, P. 200

٢ ـ Stevenson: The Crusaders in the east, P. 82

ملحق لمقال الدولة الفاطمية

الصفحة ٦٢

قال الدكتور حسن حبشي في كتابه «الحروب الصليبية»
وهو يتحدث عن الغزوات البيزنطية لبلاد الشام :

« وامتد النفوذ البيزنطي عام ٩٧٥م ــ ٣٦٥هـ على طول البلاد الشامية فدفعت له حمص الجزية واستسلمت بعلبك ، واراق الافتكين صاحب دمشق ماء وجهه ابقاء على ولايته » .

الى ان يقول الدكتور حبشي مستمرا في الحديث عن الفتح البيزنطي :

« على ان موجة الفتح (البيزنطي) على حساب البلدان والامارات الاسلامية لم تلبث ان توقفت منذ اواخر القرن العاشر واصطدمت بقوة الفاطميين اللذين امدوا الاسلام بدم جديد وعنصر قوي يتدفق حياة ويتطلع للفتح ...)

وقالت الدكتورة سعاد ماهر في كتابها : البحرية في مصر الاسلامية :

ان اهتمام الفاطميين بالشام ودعم قواعد الاسطول المصري على سواحله كان له اكبر الاثر في صيانة كيان الدولة الاسلامية عامة ، والمحافظة على النفوذ العربي في شرقي البحر الابيض المتوسط خاصة ، ذلك ان الروم كانوا قد تمادوا في استهتارهم بالخلافة العباسية ولا سيما بعد استيلائهم على اقريطش ، فعولوا على الهجوم

علـــى اقليــم الشام لكـــي ينتزعوا بيت المقدس منه . ففي سنــــة ٩٧٥م سار الاسطول الرومـــي الى بلاد الشـــام واستولـــى علـــى كثير من مدنها ولا سيما الساحلية منها ، مثل بيروت وصور وعسقلان وصيدا ، الا ان قوات مدينـــة طرابلس البرية استطاعت بفضل مؤازرة الاسطول المصري لها(١) من هزيمة الاسطول الرومي ، وبذلك عاد فاشلا الـــى القسطنطينيـــة . وبدأت الدولة الفاطمية بعد ذلك تثبـــت سلطانها علـــى قواعد بلاد الشام البحرية وتطارد الروم من اطراف الشام الشماليـــة .

وتقـــول ايضـــا :

... وتحققت مخاوف الفاطميين ، حين لجأ امبراطور الروم سنة ١٠٢٥م الـــى تأليب حكام صور وطرابلس علـــى الفاطميين ومساعدتهم علـــى شق عصا الطاعة عليهم ، ولكن الاسطول المصري (الفاطمي) كان لهم بالمرصاد فتصدى لسفن الروم في مياه هذيـــن الميناثيـــن وانزل بهم هزيمة منكرة .

وتقول ايضا ما خلاصته : ارسل غليوم(٢) الاول صاحب صقلية اسطولا نزل دمياط سنة ١١٥٥م ــ ٥٥٠هـ فعـــاث فيها فسادا ثم اتجه الـــى تنيس فقتل بحارته الرجال وسبوا النساء وكذلك فعل في رشيد والاسكندرية . ولكنه سرعـــان ما فر هاربا عندما ظهر له الاسطول المصري (الفاطمي) .

---

١ ــ Brehier: vie et mort de Byzance, P. 200

٢ ــ Stevenson: The Crusaders in the east, P. 82

الفهرست

الصفحة